

عبد الله بن الحسين

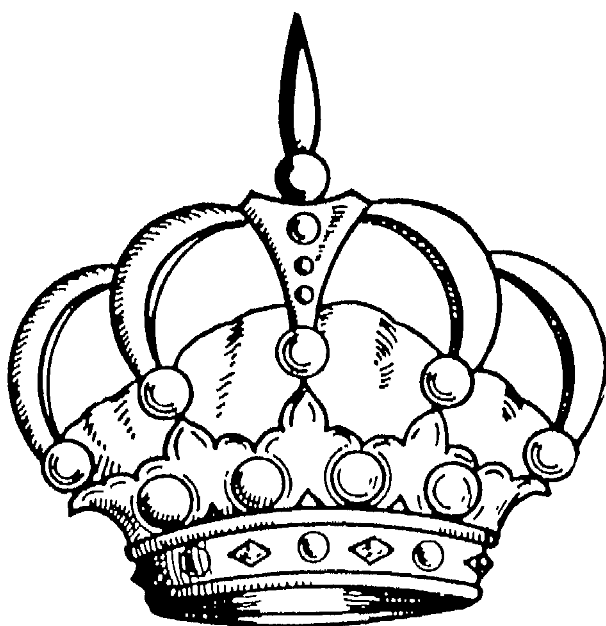
مذكراتي

الأهلية للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن

مكتبة برهومة
عمّان - الأردن

مذكراتي

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



أهدي مذكراتي لهذه الأمة التي ستجد في الكثير من المفاخر من مجد الأجداد وجهاد الأحفاد بقلب ملؤه الإكبار لهذه الأمة سائلين الله لها الهداية والرعاية إنه سميع الدعاء والحمد لله بدءاً وختاماً والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده وأصلي على نبيه الكريم

واسأله التيسير والهدى والرحمة والغفران

توطئة

تعريف وطفولة

هذا دفتر حياتي، أودعته وقائع أيامي والليالي، وكفى بالله حسيباً.

أنا عبدالله بن الحسين صاحب النهضة العربية الأخيرة وموقظ قومه من رقدتهم ومؤسس ملكهم، ابن علي بن محمد أمير مكة بن عبد المعين بن عون، وأمي عابدية بنت عبدالله بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن الحسن بن عبدالله، وهو الذي تنتمي إليه العبادلة من شرفاء مكة.

ولدت بمكة المكرمة، وشعرت بالوجود أول ما شعرت بالطائف وأنا أحبو. أذكر ذلك جيداً حينما أتت إحدى النساء، فرأتني وخشيت علي السقوط من الدرج، فقالت: من أنت؟ فقلت: أنا عبدالله. فحملتني وأدخلتني إلى مكان به ظئري. هذا أول ما أذكر من الدنيا.

توفيت والدتي وأنا في الرابعة، وقد أقبلت على الخامسة من سني عمري، فكفلتني جدة والدي لأبيه، وهي الشيخة صالحة بنت غرم الشهرية العسبلية أم علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، فنشأتني تنشئة عربية محضة؛ وكانت معها بنتها هيا بنت محمد بن عون عمة والدي، فروعيت بينهما خير رعاية. وكانت تألف النساء العربيات من قومها بني شهر، ومن نساء العشائر من الحجاز، فكنت بينهن أصغي دائماً إلى ما يلقينه على مسامعي من وقائع وحوادث بين العشائر، ويذكرن ما جرى من أحوال في عهد الوهابية الأولى، وما وقع من حرب حينما

دخل والي مصر محمد علي باشا الحجاز لأخراج الوهابية، ويذكرن الأيام بين ذوي عون ــ وهو بيتنا ــ وذوي زيد ــ وهو الفرع الثاني من امراء مكة ــ ذاكرات أشعاراً حماسية لا أزال أذكرها.

ثم لما جاء سن طلب العلم، قرأنا على المرحوم الشيخ علي منصوري ــ نسبة إلى المنصورة بلدة بمصر ــ وهو شيخ والدي الذي علمه القرآن. وكان التدريس على الطريقة القديمة، طريقة إرهاب الطفل وإخافته، فكانت « الفلكة » وهي آلة التهديد، حيث تجمع اليها رجلا الطفل فيضرب، ولذلك فررت منه ومن القراءة والدرس، فتركت رعاية لسني أو لحماية نلتها من الجدة الكبرى الشيخة صالحة بنت غرم المشار إليها. فاستأنفت القراءة بعد ذلك بسنة، في الطائف، وكان فراري من المعلم بمكة. أما شيخي في الطائف، فهو العالم الجليل الشيخ ياسين البسيوني، إمام والدي ذلك الحين، الذي يصلي به وبمعيته، وإمامه وهو شريف مكة وأميرها، ثم إمامه وهو ملك البلاد العربية؛ وقد تلطف بي وحملني على أن اقرأ، بأن اشترط أن يملكني جملا لفرط حبي للإبل؛ وبالفعل قد أتي لي بجمل ارتبط في ناحية من الحيز المخصص للقراءة. وكان يعلف وكنت أقوم عند رأسه إلى أن ينتهي علفه. ولهذا فللشيخ ياسين المرحوم ولذلك الجمل، الفضل في زوال نفوري من المعلمين ومن القراءة الابتدائية.

وكان أخي، المرحوم الملك علي بن الحسين، قد سبقني في الطلب للعلم والدراسة، وكنت حينما قرأت (الف باء) كان هو قد اجتاز جزء (تبارك)، وهكذا ابتدأت. ولما وصلت الى سورة (المرسلات) الشريفة، وبها الآية الكريمة ﴿ **كأنها جمالة صفر** ﴾، اذكرتني كلمة « جمالة » بالجمل، فحفظتها عن ظهر غيب، فاكرمت بذلك السبب بما يكرم به امثالي، فزاد شوقي الى التعلم. ولما شرعوا يحفظوننا القرآن الكريم، كان الأخ المرحوم الملك علي وصل في حفظه سورة

(الاسراء)، وكنت قد وصلت في حفظي سورة (الرعد)، وكان أخي فيصل يتحفظ سورة (الأعراف). أما الشيخ علي منصوري فله الفضل في تمييز الأصولين في القراءة القديمة والجديدة، وأما الشيخ ياسين فهو الذي فتح الله علي بسبب دماثته وحسن احتياله، رحمهما الله واسكنهما فسيح جنانه.

أما الخط، فأول من علمني الشيخ عثمان اليمني، ثم الشيخ عبد الحق الهندي، ثم نوري افندي التركي. وكان الأول أشرسهم، اما الثاني فأتقنهم لخطي الثلث والنسخ، وأما الآخر وهو نوري افندي فكان املكهم لخط الرقعة العثمانية. وكان الشيخ عثمان يأمرنا ان يكتب كل واحد منا مئة سطر في اليوم للتمرين، وكانت لي معه قصة عجيبة؛ فلقد كان رحمه الله دامي اللثى كريه الفم، وكانت المحابر على الطراز القديم من تلك التي لها أنبوبة لحفظ الأقلام ملتصقة بها الدواة، وكان الورق يصقل بمصقلة بعد ان يمحى ما كتب عليه بالأمس للاقتصاد، وكانت له عادة يألفها، وهي بئست العادة بالنسبة لفمه الدامي وللثاته المريضة، فكان يلعق الأقلام فتدمي هي أيضاً متلوثة بدمه، فيكتب بذلك ثم يعيد القلم في المحبرة فيتهيأ منها هنالك خليط قذر. فعمدت يوماً الى حوش كان للأغوات — أي الخصيان — بها مراكن من الفليفلة الحمراء الشديدة الحرارة، وأخذت منها قدراً وضعته — بعد أن أجدت دقه — في دواة أخي المرحوم فيصل. ولما كان الغد، وجاء بعدي الأخ المرحوم يقدم للشيخ ما كتب، وقفت لأنظر ماذا يحصل، ولما ان لعق القلم وجد لذع الفلفل في اللثاة والشفتين، فتألم، ثم اشتدت به الحالة فطلب الماء فازداد ألمه وورم فمه، فطلب ان ينظر في الدواة واذا بها الفليفلة، فأمر بأخي — عقاباً لما وقع — ان توضع رجلاه في (الفلكة)، فأخذ يبكي و يقسم انه لم يفعل، وأنا قائم اضحك، فقال القيم على الدرس: ما يضحكك؟ فهربت لاجئاً الى الجدة الكبيرة،

وقصصت عليها الواقع كما هو ورجوتها أن تنجد أخي، واذا بهم قد وقعوا على طبعة رجلي عند مركن الفليفلة، فعرفوا ان ذلك من عملي. وقد سمع أبي بما وقع، فأرسل في طلبي، فاختبأت عند جدته رحمها الله، فحضر بذاته ليحملني الى الشيخ لأعاقب على جريمتي، فرفضت الجدة تسليمي اليه وقالت: اسمع سبب ذلك. فقصصت عليه الخبر فسرى عنه، وأخذ يضحك لما عرف السبب، وقر قرارهم على أن يمنحوا الشيخ كسوة جليلة وهبة نقدية وان يصرف بعد الاعتذار اليه، فصرف. وقد بلغ الخبر بعد أيام المرحوم الشريف عون الرفيق ابن محمد أمير مكة وعم والدي، فطلبني اليه، فلما جئته أخذ يضحك ويتعجب من عملي ويقول: فطنة غريبة عجيبة! وأمر بإحضار الشيخ عثمان واحضار طبيب الأسنان عبد الغفار، ولما حضر قال: يا عثمان، تريد أن تعلم أبناءنا الخط وهم علموك كيف تكون النظافة! يا عبد الغفار اخلع أسنانه. فأخذ الشيخ يصيح ويستغيث بي، وكان الشريف مازحاً، فكافأه بهبة قدرها الف وخمسمائة ريال، وأوصاه بأن يتداوى.



صاحب المذكرات في طفولته

نحن ذوو عون

ان عونا هذا الذي تنتمي اليه الأسرة الهاشمية الملكية، هو عون ابن محسن بن عبد الله المار ذكره، تفرعت منه ثلاثة فروع: فرع محمد وهم أهل الأمارة، وفرع هزاع، وفرع ناصر. فأما محمد وهزاع فهما ابنا عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله، وأما ناصر فهو ابن فواز بن عون، وهذا الفرع فيه امارة الطائف عندما تكون الشرافة في ذوي عون، والشرافة في عون هي لبني محمد بن عبد المعين.

مكة ومصيفها

مكة المكرمة عاصمة الاسلام وبلد الله الحرام الآمنة المطمئنة، والطائف مصيفها. وبمكة يجتمع المسلمون بسبب الحج، وهو موسم الاسلام. بلد الرفادة والوفادة والسفارة والايلاف. مصيفها الطائف، وما أبهج الرحلة اليه في تلك القوافل، المزدانة هوادجها ومحاملها بالجوخ الأحمر والبسط الفارسية الجميلة، وما أبهى مراحلها وخيامها والاجتماع بها.

تخرج القوافل عادة من مكة، إذا قصدت الطائف، بعد غروب الشمس، إلى الزيماء أو سولة المرحلة الأولى، كي تقطعها في براد الليل، فتصل إلى الزيماء أو إلى سولة بعيد الشروق، فتجد خيامها وقد بنيت على العين وسط البساتين الخضراء، فتقضي بها زهاء سبع ساعات، ثم تسافر بعد الظهر بثلاث ساعات آمة المرحلة الثانية، وهي ذات عرق تعرف اليوم بالسيل، وهذه المرحلة في طرف السراة، حكمها حكمه في لطافة هوائه وبرده وشجره، فتصل إلى السيل مع الشروق. والسيل هذا نهير يجري دائماً ولا ينقطع. وبعد أن تأخذ القسط من الراحة، وتعلو الدواب وتتغدى، يستأنف السفر بعيد الظهر، فتصل الطائف قبل الصبح، وهي أطول مرحلة. وفي القفول من الطائف إلى مكة، يكون السفر منه في ضحوة النهار، ليدخل المسافرون مكة في منتصف الليل، بعد مسير

يومين. وفي هذه المرحلة المتعة الممتعة للصبيان، فيركبون أنواع وسائل السفر، من جمال عراب عليها المحامل الظريفة، إلى بغال فارهة وخيل أصيلة وذلائل عمانيات، أو ركاب أحرار عليها رحال الميس، وفوق هذه الفرصة التحرر من الدرس.

أقمنا على هذه الحالة، من طلب للدراسة الابتدائية ورحلات مسرة، حتى عام ١٣٠٩، فطلب الوالد إلى الاستانة، لاختلاف حدث بينه وبين عمه أمير مكة المرحوم عون الرفيق بن محمد، وبهذا ختمت الدورة الأولى لي ولاخوتي في وطننا الحجاز الأقدس، الذي لا شبيه له في الأوطان، لنستأنف الدراسة في الاستانة، عاصمة آل عثمان.

في السفر الى الاستانة

في اليوم السابع عشر من شباط سنة ١٣٠٩ مالية، سافرنا من جدة في الباخرة « عز الدين »، وهي باخرة جميلة منسقة، ذات دواليب من الجنبين وليست من البواخر ذات الرفاس. وكنا نحن الأخوة علي (الملك علي) وعبد الله صاحب الخاطرات وفيصل (الملك فيصل) في رعاية الجدة بزمجهان والدة الوالد، وحرم الشريف عبد الآله بن محمد أمير مكة المكرمة المشهور والمعروف، وكانت العائلة مركبة من اثنتين وثلاثين سيدة واتباعها، فوصلت الباخرة إلى السويس يوم عشرين من الشهر، وهو أول سفر لي في البحر. وكانت حالة البحر ليست بالهادئة ولا بالهائجة، ولقد أصاب الدوار جميع الهيئة المسافرة في أول يوم، ثم أخذ يتناقص. وأما الرحلة في ترعة السويس فكانت ممتعة مريحة، ولقد كرهت نفوسنا الزاد والخبز الأبيض، ولولا الضرورة لما تناوله أحد.

وقد أمضت السفينة ليلة في البحيرة قرب الاسماعيلية، ثم استأنفت السفر إلى بور سعيد، وبها تجلت لنا الحالة الجديدة، فكان من المستغرب أن نرى النساء المسيحيات سافرات. فرست السفينة في الميناء فتزودت بالفحم اللازم، وتزودنا نحن أهل الحجاز بملابس شتوية ثقيلة، ثم سافرت نصف الليل قاصدة ازمير، وكان البحر في غاية الهياج والجو ماطراً، فكانت تجري في موج كالجبال، لا يستطيع الانسان معه أن يسير

أو يقف على قدميه، فاضطرت السفينة إلى التعريج على ميناء ليماسول في قبرص، ووصلت إلى هذه الميناء بعد اثنتين وسبعين ساعة، فأقامت هناك خمس عشرة ساعة، وانتهى العاصف فسافرت من ليماسول والقصد ازمير، ولكن عندما مرت بجزيرة رودس عصف البحر وهاج، فعرجت على ميناء مرمريس، وكان أبهج محل رأيته في تلك السياحة جمالا وروعة، تحف بتلك الفرضة جبال شاهقة وقرى لطيفة. وبعد أن رست السفينة حف بها زوارق صغيرة من البلدة، يبيع أهلها العسل الطيب ولبن الزبادي والتفاح وأبا فروة والفندق، ثم سافرت السفينة في اليوم التالي، فلم تقف بازمير بل استمرت في سيرها ووقفت بميناء الدردنيل، فانزلت منها بعض المنفيين من الحجاز إلى ازمير، ثم سافرت، وكان وصولنا إلى الاستانة في الليلة السابعة من ذلك الشهر، فرست جوار كوم كبوباب الرمل.

ثم سافرت السفينة مع الفجر وربطت في مرساها أمام القصر السلطاني، وإذا برفاس صغير هيىء لينقلنا إلى الدار الساحلية بقرية أميركان بالبوسفور، وبها عبد العزيز افندي مدير دائرة المرحوم الشريف عبد الآله بن محمد عم الوالد الاصغر، فانتقلنا اليها ثم إلى المنزل، فبلغناه بعد ساعة، والتقينا بالوالد المرحوم فكان لقاء مؤثراً، ثم أمر بأن نسرع إلى زيارة عمه المشار اليه، وصحبنا اليه السيد حسن عرنوس رئيس دائرة الوالد المرحوم، ولما وصلنا رأيناه وقد خرج من دائرة الحرم يسير إلى دائرة الرجال، وهو ربعة من القوم متواضع مائل الرقبة إلى الامام عريض الجبين كث اللحية أشيبها أشم الأنف، له منظرة مثبتة إلى أنفه بقراص أنفي؛ فأخذ يقبلنا واحداً واحداً، ثم انهملت عيناه بالدمع يبكي ذاكراً الوطن، ثم أضحكته بسؤال عجيب، وهو قولي: يا سيدنا، ما هذا الخشب المهذب المقطع الموضوع في هذا الصندوق؟ اشارة الى حطب (الصوبة) فقال: هذا الحطب. فقلت: الحطب في الحجاز ليس كهذا، بل هو ملتو

معوج دقيق العيدان، اما من السلم أو من السيال. فاحتضنني وضحك وهو يبكي.

ومن أغرب ما استرعى أنظارنا نحن الصغار، البوسفور ومبانيه الساحلية وتلاله المكسوة بالأشجار، والسفن البحرية للشركة الخيرية التي تنقل الناس من البوسفور وقراه الى الاستانة والبحر ومنها الى آخر البوسفور، مارة بكل قرية من قرى الساحل معرّجة عليها أو مجتازتها. أما مفاتن الاستانة وجمالها، فهو يجوز الحصر والتحديد، في المواسم كلها: من ربيع وصيف وخريف وشتاء.

أما اقامتنا باسطنبول، فكانت اقامة جبر واكراه واقامة تعلم وعبر، وبالرغم عن أن السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله، لما قبل والدي في حضرته يوم وصوله الاستانة قال له انه انما استدعاه لينشئه ويرجو منه أن يخدم الدولة ويخدمه، وبالرغم عن انه عينه عضواً في شورى الدولة وأمر بأن تهيأ له دار ساحلية في البوسفور وتفرش، فقد كان في الحقيقة ورغم هذه الاعتبارات، أخذ الى الاستانة نفياً وتغريباً، بناء على معارضته سياسة الظلم والاعتساف بالحجاز، واخذ الأموال الطائلة من الحجاج بشتى الأساليب، تلك السياسة التي اختطها ولاة الحجاز والأمير عون الرفيق، فقد نفي أثر أخذ الوالد الى الاستانة كل من العلماء الاعلام: الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي مكة المكرمة الأكبر، والشيخ عابد مفتي المالكية بمكة المكرمة، والسيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بمكة المكرمة، بأن أخرجوا من الحجاز، وطلب الى صاحب مفتاح بيت الله الحرام الشيخ عبد الرحمن الشيبي أن يسكن بالهدى.

وبعد ذلك تفاقم الظلم بالبلاد المقدسة الاسلامية، ووقع من الاستيلاء بشتى الصور المخزية على أموال الحجاج مع عدم الأمان، مما اكسب

الظالمين الوزر وعدم التمتع، فتشتتوا هم وذراريهم أيدي سبأ، وحاق بالسلطان وبدولته الدمار.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى عن البيت الحرام ﴿**ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾. فليعتبر كل سلطان أو ملك يمتحن بالخدمة هناك بهذا، فان الحسنة هناك تضاعف، والسيئة تضاعف.

أما الاخوة الثلاثة (علي وفيصل وأنا) فقد تعلمنا على أيدي معلمين خواص، علم العربية والتركية والعلوم العسكرية.

وان من جملة الانقلابات الكونية والمحاربات الطويلة، التي مضت وقيدها التاريخ ونحن هناك، حرب الصين واليابان حيث انتصرت الأخيرة، وحرب الحبشة والطليان وكانت الغلبة للنجاشي منلك، وحرب الاسبان والأمريكان وقد غلبت الأخيرة فأخذت جزر هوانة والفلبين، وحرب الترك واليونان وكانت الغلبة للسلطان، وكانت الاضطهادات في اليمن ودفاع الإمام وقد تغلب مرة واستولى على صنعاء، ثم حركة حزب الاتحاد والترقي والانقلاب الدستوري وعزل الشريف علي بن عبد الله أمير مكة مع مَنْ عزل من خواص السلطان ووزرائه وولاته وتعيين الشريف عبد الآله بن محمد أميراً على مكة وارتحاله الى الجنان قبل سفره، ثم سعى حزب الاتحاد والترقي لتنصيب الشريف علي حيدر بن جابر بن عبد المطلب بن غالب، وسعيي أنا لدى والدي للمطالبة بحقه من الامارة من حيث أنه الأحق الاكبر واقناعي له بعد جهد وقبوله تسطير مذكرة بهذا الطلب الى جلالة السلطان بواسطة الصدر الأعظم كامل باشا.

وكانت هذه المذكرة المثبتة ترجمتها الى العربية هنا وهي:

(بناء على وفاة عمي الشريف عبد الاله بن محمد أمير مكة بعد عزل ابن عمي الشريف علي بن عبد الله بن محمد

وخلو مقام الامارة ولكوني أسن العائلة الهاشمية واحقها بمقام الآباء فاسترحم جلالة السلطان أن يتكرم بايصالي الى حقي الذي لا يخفى على جلالته مع صداقتي واخلاصي)

وأخذت المذكرة بنفسي، وذهبت بها الى الصدر الأعظم كامل باشا ودفعتها اليه، فلما قرأها سألني: هل أنت اكبر أنجال الشريف حسين؟ فقلت: كلا، بل أنا الثاني، والاكبر هو الشريف علي بن حسين. فقال: ولم لم يحمل هذه المذكرة هو؟ فقلت: إنه لا يزال يشتغل بمأتم العم الاكبر ووالد زوجته الأمير عبد الاله رحمه الله، فقال: أقبل أنامل والدك وأطلب اليك أن تبلغه بأن حقه لا يضيع إن شاء الله. فخرجت شاكراً وأنا في شك مما قال، فكتبت نسخة برقية الى مقام السلطنة وهي هذه:

(نظراً لشغور مقام الامارة الجليلة بمكة المكرمة ولكوني صاحب الحق فانني انتظر من الاعطاف السنية السلطانية عدم حرماني حقي وتعييني في مقام آبائي)

وعنونتها بثلاثة عناوين للعرض على السلطان: (بواسطة الصدارة العظمى الى الأعتاب السنية) و(بواسطة مشيخة الاسلام العليا الى الأعتاب السنية) و(بواسطة رئيس كتاب القصر السلطاني الى الأعتاب السنية).

وحضرت الى الدار وأنا أحمل ما كتبت، فقلت لوالدي: إن الصدر الأعظم يقبل أناملك ويقول إن شاء الله لا يضيع لك حق، وانه لمن المناسب إبراق برقية الى جلالة السلطان بهذه العناوين. وفي تلك الليلة وبعد أن أبرقت البرقية، وردت برقية من رئيس كتاب القصر السلطاني يقول فيها: إن حضور والدي يوم غد في الساعة الثالثة صباحاً مرغوب فيه لدى جلالة السلطان (الساعة غروبية).

ولقد توجه الوالد المرحوم الى القصر السلطاني حسب الوقت، فعين أميراً على مكة، وعاد بعد الظهر وهو صاحب مقام آبائه. وكان من هذا التعيين أن أغضب حزب الاتحاد والترقي عليه — أي على والدي — فكان مبدأ الخلاف بينه وبين كل حكومة اتحادية، حتى وصلت الحالة من ذلك الاختلاف الى حين ترؤسه رحمه الله حركة النهضة العربية في الحرب العامة السابقة، على ما سيجيء.

العبرة من التاريخ

نشير الى من يتصفح ملخص التاريخ الاسلامي*، ان للظهور والاعتلاء أسباباً، كما ان للتدني والتضعضع والضياع أسباباً. أما أسباب الظهور والاعتلاء فالإيمان والجماعة والتنفيذ والأمانة في الرئاسة، وأما أسباب التدني فهي في التفرقة واختلاف العقيدة والحسد والتدابر. فداء العرب الأساسي هو الترف والعصيان على الأمراء ثم الخروج عليهم؛ ودليل ذلك خروج مَنْ خرج على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإن العرب بالخروج عليه قد فتحت عليها باب الفتن والانتكاس. وللعرب عدو آخر وهم اخوانهم من المسلمين غير العرب ودوافعهم القومية، وقد قال النبي ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يسلب أمتي حقها قوم فطس الأنوف كأنما وجوههم المجان المطرقة ».

وكذلك ملوك الطوائف والدول الاسلامية، كدولة بني سلجوق ودولة آل عثمان، اعداؤهم حسد الأمراء والخروج على السلطان وفساد الجند. ولقد جاء في ذكر السلطان عبد العزيز بن محمود خان الثاني، أنه خلع لأنه بذر أموال الخزينة، وقد أفتى بخلعه شيخ الاسلام خير الله افندي بجوابه (يجوز) على السؤال الذي قدم اليه من مجلس الوزراء

---

* انظر في الملحق بهذه المذكرات.

ونصه: (اذا كان زيد أمير المؤمنين بذر ما في بيت المال من حقوق المسلمين وعمل فيها بالهوى فهل يجوز خلعه؟) فأجاب يجوز كما قلنا. ولكن كان السبب الأصلي، لخلعه والقضاء على البيت العثماني بأجمعه، اعلان الحكم الجمهوري. ففي المدة التي كان فيها السلطان مراد الخامس في حالة الجنون، دعت الحكومة أمراء البيت العثماني المذكور لضيافة أقامتها، الغرض منها الفتك بآل عثمان. وقد نمي الخبر على حقيقته الى السلطان عبد الحميد الثاني قبل جلوسه فاعتذر، ولهذا لم يظفروا بمرادهم. وكان رأس هذه الفئة الصدر الأعظم احمد مدحت باشا، وكانوا على عزم أن يبايعوا الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة الأسبق خليفة للمسلمين، لو تم القضاء على آل عثمان. وقد شهدنا جميعاً تنفيذ هذه الخطة وإقصاء آل عثمان بعد اعلان الجمهورية في تركيا على يد مصطفى كمال باشا.

وما العرب إلا بالاسلام، وكان من الحق عليهم أن يسعوا الى استعادة مجدهم وحقهم وخلافتهم. فالثورة العربية الأخيرة التي قام بها المنقذ الأعظم رضي الله عنه ومَنْ معه من عظماء الحجاز، وبإفتاء علمائهم وانضمام عظماء الشام والعراق اليهم، ثورة حق للدفاع عن الاسلام، ثم لتبوُّؤ العرب المقام الذي خصهم الله به، حيث قال في كتابه العزيز :
﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾
فعسى الله ان يقيض لهذه الأمة مَنْ يعرف موضع الداء فيها فيحسمه، وكيفية الدواء فيستعمله، قبل ان يقال: واحرباه وواعرباه!..

لقد كان الانقلاب الجمهوري مطمع أنظار الشباب الترك من عهد مدحت باشا، وخفي عليه ان السلطنة العثمانية لم تصل في حدودها، شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً، الا بعد ان انتحلت صفة الخلافة، وانه بانسلاخ هذه الصفة عنهم ينسلخ العرب بطبيعة الحال. الست ترى انهم اليوم أقوى منهم بالأمس واكثر منهم نظاماً وتجديداً؟ ولكن اين

شهرتهم بالامس وتأثيرهم يوم كان سلطانهم أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين؟ لقد تضاءلوا اليوم وصغروا وقد تضخموا بالامس وكبروا، لذلك أقول ان الشيء اذا خرج عن أساسه فسد.

ونحن اليوم، أي الأمة العربية، كجسم بلا رأس، أو كجسم له رؤوس كثيرة؛ فالجسم الذي لا رأس له فهو حيران لا يهتدي سبيلا، والجسم الذي له رؤوس كثيرة كذلك هو ضال متحير لا يدري يتبع أي رأس من هذه الرؤوس. وقد قال الله سبحانه وتعالى في رده على مزاعم اهل الشرك وفي معنى السماء والارض ﴿**لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولذهب كل اله بما خلق سبحان الله عما يصفون**﴾ فالعرب هذه صفتهم اليوم، ذاهب كل رأس من رؤوسهم الى حيث يريد، وفي شتات الناس ضياع.

الاستانة.. اسطنبول

أما خاطراتي عن الاستانة يومئذ، واسطنبول اليوم، فخاطرات تجاذب وتدافع بين العصبية الاسلامية والنخوة القومية. فان قلنا نحن وانتم أهل الاسلام، قالوا نعم ولكن نحن السادة وانتم التبع. وإن قلنا نحن وانتم قالوا ختنتم وخرجتم. فالصلاة صلاتنا، والكتاب كتابنا، والشهادتان أصل ديننا، والزكاة اشتراكيتنا والصوم رياضتنا، والحج الى بلادنا، ولكن يؤمنا رجال لا يدرون معنى ما يقرأون ولا يفقهون مرامي ما يتلون. ترى العالِم العلامة من العرب يؤمه من لا يحسن اللفظ العربي ولا الأصل الفقهي؛ كذلك كانت الحال: ذل في عز، وعز في ذل، ومسكنة في ظهور، وظهور في مسكنة. وقالوا ﴿ **لولا فصلت آياته اعجمي وعربي** ﴾ كذلك كانت الحال.

أما الاستانة، فرائع جمالها، مقبول صيفها وشتاؤها. ما أجمل ربيعها واكثر ثمارها وأسهل مناخها! جميلة حوت الجمال، وحسناء فتنت الرجال، دار الخلافة جمعت فأوعت: تركي وعربي، شركسي وكردي، الباني وبلغاري، مصري وهندي، فيها كل أجناس المسلمين على مختلف أزيائهم وألسنتهم؛ فلا غربة ولا غرابة، يجد الانسان كل ما أراد من أي البلاد.

ولقد زعم الناس أن عبد الحميد كان ظالماً. لقد كذب الناس. والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر المتحوط. ولقد عرف بعد أن ذهب، انه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم اعدام في محكوم أبداً، الامرة واحدة، والبقية يتركون في السجون حتى يدركهم الموت. وأما الذين ينفون من بلادهم الى اسطنبول، أو من اسطنبول الى الخارج، فهم أولئك الذين عرض عليه انهم أهل خلاف عليه أو على سلطانه، فيخرجهم الى مكان لا يعرفون فيه، فيقي دولته بذلك التدبير الفتن، كما ظن وزعم. ولئن أحصى الناس ما وقع بعده من صلب وتشريد وادارات عرفية، وصولات في شام ويمن من الحكومات الاتحادية، لعلم أن ظلم عبد الحميد بالنسبة الى أفعالهم كان عدلاً محضاً.

بعد وصولنا الى اسطنبول بخمسة عشر يوماً، عُين لتعليمنا بارادة سلطانية الملازم الثاني صفوت أفندي العوا، معاون معلم فن العمارة والهندسة بالمدرسة الحربية، وكان بين الخامسة والعشرين والثلاثين من سنيه. فابتدأنا دروسنا الجديدة على الطراز الجديد، وحظر علينا الكلام باللغة العربية! أما الدروس فهي هذه: اللسان التركي، الجغرافيا، الحساب، مختصر التاريخ العثماني والاسلامي، الصرف العثماني، القراءة بالتركية، وظيفة تقرأ بصوت جهير. وكنا نتمم القرآن الكريم على يد الوالد، وكان يعلمنا العربية الشيخ محمد قضيب البان، وهو رجل أزهري وأصله حلبي، ثم جيء بشيخ آخر اسمه محمد توفيق افندي يعلمنا حسن الخط. وبعد عامين وظف لتعليمنا الأديب العالي التركي محمد عارف باشا.

وكان أشدهم علينا صفوت افندي العوا، وقد ترقى في خدمة التعليم هذه حتى أحرز رتبة قائد (بكباشي) فصار صفوت بك، ثم رقي الى رتبة لواء في العهد الهاشمي، جزاه الله وجزاهم عنا جميعاً خير الجزاء، فنعم المؤدبون هم. وأما محمد توفيق أفندي فقد توفي، وأما

الشيخ محمد قضيب البان.فقد اتهم تهمة سياسية وطلب اليه أن يغادر الاستانة فغادرها، وكان ذلك العهد آخر عهد لنا به. وأما عارف باشا، فوالدته رضيعة الوالد المرحوم، فهي عمتنا رضاعا، وقد توظف في دار الآثار التركية ورقي حتى حاز الكتابة الأولى هناك، ثم بدت حاجة الخديوي عباس حلمي باشا رحمه الله الى شخصية معتمدة في الديوان التركي الخديوي، فأوصيته به فعينه بديوانه وكان لا يزال معه حسب ما أعلم إلى أن توفي الخديوي المرحوم، وما كان بيني وبينه من صدق موروث ومحبة مؤكدة أمر لا يخفى على أحد.

هذا وإن كل سني إقامتنا باسطنبول، كانت سني عبرة واستفادة، وكنا نجتمع بمن بها من الأشراف أهل الحجاز، ولنا أصحاب من أعيان الترك وأشرافهم. وكانت لنا باسطنبول رحلتان صيفية وشتوية، ولا يمل الانسان من ذكر المواسم، وخصوصاً مواسم الصيد المائي والبري، يعلم ذلك من عاش هناك.

أما السلطان فهو محتجب إلاَّ عن خاصته، لا يخرج من قصره في غير أيام الجمع والأعياد، مهاب محترم، عليه تعلق الآمال، وقد جعل الله تصريف الأمور على يده. وأما الباب العالي والوزارة العثمانية، فبيدها ممارسة أمور الدولة بالشكل العادي، وما ارتفع عن ذلك فالبت فيه للسلطان، حيث لا يكون أي تبديل أو عزل في ولاية أو متصرفية أو مشيرية أو قيادة فرقة أو قيادة لواء إلا بعد عرض ذلك مع تبيين الأسباب والموجبات. وانه ليمكن القول بان السلطان عبد الحميد، كان آخر سلاطين المسلمين علواً ورفعة، وأشبه ما حصل بعد خلعه للمسلمين بما حصل للمسلمين، عندما وثب أهل الكوفة وأهل مصر على أمير المؤمنين عثمان بن عفان؛ فان كان عثمان هو الباب الذي كسر بين الفتنة والناس، فان عبد الحميد كان الباب الثاني الذي كسر في العصر الأخير بين الفتنة والناس أيضاً. ولله تصريف الأمور وله الدوام والعزة.

كان في عهدنا بالأستانة من عظماء العرب، الشريف عبد الاله بن محمد، والشريف الحسين بن علي بن محمد صاحب النهضة، والشريف حيدر بن جابر بن عبد المطلب بن غالب، وعمه الشريف أحمد عدنان بن عبد المطلب بن غالب، والشريف جعفر بن جابر بن عبد المطلب بن غالب، والسيد فضل أمير ظفار وأبناؤه، والسيد محمد أبو الهدى الصيادي نقيب حلب، والسيد أحمد أسعد المدني وكيل الفراشة السلطانية بالمدينة ـورة، والشيخ محمد ظافر الطرابلسي المغربي النقشبندي مرشد الحضرة السلطانية وبنوه، وكان السلطان يقبل عليهم جميعاً ويرعى جانبهم، وغير هؤلاء آخرون، لهم مصالح يحضرون من أجلها ثم يعودون الى بلادهم. إلا أنه لا يمكن لأحد ممن ذكرت أسماءهم، الرجوع إلى أوطانهم أو إلى بلد آخر البتة، فكانت اسطنبول السجن المحترم، أو منفى العزازة والاكرام لهؤلاء الأشخاص الكرام.

ومن طريف ما نذكر، فرار أهل الخلاف على جلالة السلطان والمرجفين بادارته. فكان الفرار الى أوربا وسيلة لجر المغانم. فاذا فر أحد، كمراد بك المؤرخ المعروف، الى باريس، أو كاحمد رضا بك الانكليزي رئيس مجلس المبعوثان أخيراً اليها، أو نزوح الداماد محمود باشا، كانت اسطنبول تقوم وتقعد في همس وتخافت: هل سمعت فر فلان.. هل علمت أن جيران فلان الذي فر أخذوا للتحقيق.. وكان ذلك السلطان العظيم الجرأة يقلق جداً لفرار الشخصيات، لا لهيبتهم في ذواتهم، ولكن لتساؤل الناس ما السبب ما السبب. وفي الحقيقة أنه كان يعمل بحسن نية واخلاص، فهو إن كان من المخطئين فلم يكن خطؤه إلا في اجتهاده.

من اسطنبول الى الحجاز

لنلتفت الى السفر من اسطنبول الى الحجاز، حيث تجهز الوالد المرحوم بعد أن وصل الى مقام الامارة باسبوعين، على الباخرة المسماة (طنطا) وهي إحدى بواخر الشركة الخديوية حين ذاك؛ وقد قابل السلطان عبد الحميد يوم سفره مودعاً، واختلى به اكثر من ساعة ونصف، وكان حزب الاتحاد والترقي يحاول الاستحواذ على الحكم، بعد أن ظفر بما أراد من انقلاب دستوري بتولية المناصب كل مَنْ ينتمي الى هذا الحزب؛ وبالطبع فان فريقاً من الناس الذين يتمسكون بما ألفوه لم يكونوا راضين بما هو حاصل، وكانوا يقولون: هل المستقبل بأيدي من لا خبرة لهم في الأمور أضمن من الماضين الذين في أيديهم الألف السابق؟..

وقال لي والدي، إن السلطان عبد الحميد قال له: أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية، وانني لست بالأمين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلبة. قال فاجبته: إن لذاتكم الملوكية في البلاد العربية الفئة التي إذا تحيزتم اليها كان لكم ما تريدون من حفظ الدولة والملك، ومتى شعرتم جلالتكم بذلك فأول بلد من بلاد العرب تقوم بالواجب المفروض هو الحجاز، وقد قال النبي ﷺ (المدينة خير لهم لو كانوا يعملون)، ولو فعلتم جلالتكم

ذلك وجلبتم آل بيتكم معكم، لجبيت اليكم الأموال ولأخضعت لكم رقاب العصاة، لأنكم تكونون حين ذاك فوق متناول أيديهم. قال فاغرورقت عيناه وأجاب: أشكرك أشكرك، بارك الله فيك، ولكن الوقت لم يحن.. ثم وضع وسام الافتخار المرصع بيده على صدره وودعه، وكان حضور الأمير الى الباخرة تأخر كثيراً، وعند وصوله حضر الى الباخرة الصدر الأعظم كامل باشا، مودعاً ومقدماً اليه مذكرة يقول فيها:

ان الخطة المباركة الحجازية مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى، وانه لا يسري اليها ما يخالف الحقوق المقدسة، بمناسبة الدستور الجديد، القائمة بين الامارة الشريفة والسدة السنية السلطانية، فقوموا بواجباتكم السامية على أساس التعامل القديم، وفقكم الله للخير. وان اعتماد الحضرة الملوكية والباب العالي على ذاتكم الهاشمية، مما لا يحتاج الى تأكيد. وهذا أول نضال بين السلطان ومتغلبة الاتحاد والترقي، واول علم أعطي لامير شريف ليكون السبب في اشتغال هؤلاء بمدعيات قديمة تركز مقام الخلافة والسلطنة وتدعمها، فافهم.

ولما خرج الصدر الأعظم، أقلعت الباخرة ليلا في شهر تشرين الثاني، شهر أوائل العواصف الشتوية، وكانت ليلة لا بأس بها، فالبحر لم يكن بالهادئ الساجي ولا بالهائج المائج؛ وكان في المعية الفريق عمر شاكر باشا المرافق السلطاني يحمل الفرمان، وكنت أنا في المعية، والشريف دخيل الله العواجي والشريف محمد الشنبري ومدير الحرم الشريف المكي حافظ أمين افندي ومعلمنا صفوت باشا العوا ومحمد شاكر افندي إمام الامارة ورجال الحاشية. فاجتازت السفينة الدردنيل بعد ظهر الغد، وبعد ان خرجت الى بحر ايجا، هاج البحر هياجاً لعارض هب كثير الرعد والبرق والمطر، وهي تجري في موج كالجبال، ولم يتمكن الكثير من المعية من الصلاة الا وهم جلوس. وكانت الحالة

على ما وصفت الى أن وصلت السفينة مضايق ازمير حيث تضاءل الموج، وأما العاصف فاستمر كما هو، فرست السفينة عند الرصيف، وزار الوالي الأمير والقائد أيضاً، ثم سافرت السفينة في اليوم التالي في بحر هادئ وجو حسن، استمر الى أن أقبلت السفينة على طرابلس الشام، فهاجت الريح وعصف البحر؛ وكانت بقية ليل موحش انتهى بالوصول مع السلامة الى طرابلس، حيث طرقت سمعي النداءات العربية الحبيبة، ورأيت النخيل وشاهدت المباني العربية، فأحسست بشعور غريب يقول: هؤلاء قومك ومعشرك.. وأحسست بشعور بين البكاء والضحك. ثم سافرت الباخرة بعد سبع ساعات الى بيروت، وقد زار رئيس البلدية والمتصرف سيدنا المرحوم في الباخرة. اما بيروت فوصلنا اليها عند آخر الليل، وأقامت بها السفينة الى ما بعد الظهر، وكانت بيروت ليست كما هي الآن، ظلت وعليها مسحتها الشرقية في اكثر محالها؛ فخرجت باخرتنا منها في الساعة الثالثة بعد الظهر متوجهة الى بور سعيد، بعد أن أبرق المرحوم برقيتين الى المدينة المنورة: واحدة الى الشيخ يوسف خشيرم « وصلنا بيروت وجهنا اليك وكالة اشغالنا الخاصة » والاخرى الى الشريف شحاد « وصلنا بيروت متوجهين الى جدة وجهنا اليك إمارة المدينة توجه باشراف طرفكم ومشايخ حرب وجهينة الى مكة المكرمة ».

أما البحر فكان في هياج. وقد حصل ساعة خروجنا حادث غريب، وهو انني صعدت الى برج السفينة في مؤخرتها ومعي أخي زيد وعابدين ابن الشريف دخيل الله العواجي، وهما بعد صغيران في الثامنة من عمريهما؛ وبينما نحن ننظر الى البحر وجبال لبنان، واذا بأحمد افندي بن محمد افندي مدير الحرم يقف خلفي وقد مد كلتا يديه وأخذ الغلامين من محزميهما رافعهما الى السماء وهو يقول: يا سيدي عبد الله ماذا تصنع لو قذفت بهما الى البحر؟ فبهت، واذا به ينظر الى صاري السفينة،

ثم يترك الولدين ويتوجه الى السلم الحبل يأخذه صعداً الى الصاري ويقول: يا سيدي عبد الله انا صاعد الى سيدي عيسى بن مريم، انظره في منتهى السلم يدعوني.. فأشرت لأخي وزميله بان يفرا، ففرا، وأمسكت برجليه وهو يقول « اتركني » وينظر الى فوق ويقول « يا سيدنا عيسى مره يتركني » ثم ينظر الي ويقول « والله لئن لم تتركني لأهشمن اسنانك بما في رجلي » واذا بأحمد افندي الياور وثلاثة بحارة يصلون الى حيث نحن، فامسكنا به وتجاذبناه كلنا، ووالله لم نأخذه حتى كاد يعيينا؛ ثم أخذوه وأنزلوه الى أحد عنابر السفينة لئلا يؤذي أحداً او يتأذى هو، وقد رآه الطبيب فقال ان مساً في عقله. فاستمرت سفينتنا بعد هذا الحادث، في بحر شديد الرياح والأمواج، فلم نصل بور سعيد الا في الليلة الثانية بعد الصبح بثلاث ساعات، فرست ببور سعيد، وقدم الى السفينة الشيخ عبد الله باناجه باشا، ومعه أخوه أحمد افندي باناجه، ولكن لم يتمكن من الصعود الى السفينة لمناسبة الحجر الصحي. ثم تبادل المرحوم البرقيات مع المرحوم الخديوي عباس، فتحركت السفينة من بور سعيد ليلا الى السويس، ومنه رأساً الى جده.

وكان الوصول في أول أسبوع ذي القعدة سنة ١٣٢٨ فرست السفينة، وبعد رسوها واتمام المعاملات أقبلت السنابك الشراعية نحو السفينة، وفيها مئات الرجال من شرفاء وعظماء ومشايخ عربان، فكانوا يدخلون على المرحوم وكلهم دامع العين شوقاً وسروراً. أما الشرفاء فمن آل محمد بن عون: محسن بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عون، وأخوه عبدالله، وجميل بن ناصر بن علي بن محمد، واخوته عبد المعين وزامل. ثم كان يتقدم أشراف الطائف الشريف زيد بن فواز بن ناصر، وابنه عبدالله، وابن أخيه شرف، وبنوه حمود وشاكر وعلي. ثم كان هناك من الفعور الأشراف: حمزة بن عبدالله ومستور. وكان الشريف فتن بن محسن. وكان من أشراف تهامة: الشريف أحمد بن منصور،

والشريف شرف بن عبد المحسن، ومحمد بن عبد المحسن، وناصر بن شكر، وسائر ذوي حسين. ثم شرفاء المضيق الحرث ومشايخ حرب وهذيل. ومن العلماء مفتي مكة المكرمة الشيخ عبدالله سراج يتقدم العلماء كلهم. ثم من لا أعرف من الناس. وأن أنسَ لا أنسى ما كان يردح به مقدم بيشة، حيث قد نبأ بردحته عما حصل بعد « أطرد الخوان وأسلم، وباعد من شرد يا ملك مكة، ويا سلطان جميع العرب ».

كانت الاقامة في جدة ثلاثة أيام، وكنا في الاحرام، حيث أهللنا من محاذاة الجحفة في البحر، فتحرك الركاب الأميري بعد صلاة العصر قاصداً (بحره) وكان الركب يمثل جلال القومية في روعة وهيبة، فلا تقع عينك إلا على عربي، فالركاب والخيل والأزياء والأدب عربي هاشمي. ولما اتسع المجال في الخبت خبت جده، أخذ الفرسان يظهرون أنواع التمارين على خيولهم مثنى وجماعات، فسار الركب العظيم على تلك الحالة، الى أن وصل الى الرغامة، وهو أول حد الجبال من خبت تهامة، فنزل الوالد وصلى المغرب، وكان على جواد أشقر (كحيلان النواق)، فطلب حين أراد الركوب إحدى الركائب العمانيات — نسبة الى عُمان — فقدمت اليه ناقة كريمة من خيار عمانيات الحجاز تسمى (غروة)، ولما وضع ركبته على الرحال قال « تعود لجداتها ولو قرحت ». ثم ركبت أنا أيضاً ذلولا عمانية اسمها (الشرفاء)، فسار الموكب على بركة الله، وكان الشريف حمزة الفعر المعروف بالثرثرة الى جنبي، فقال « امسك العصا من هنا وضع الرسن هاهنا، تقدم الى الأمام والوِ يمنى رجليك الغزال، ثم اسدل يسراك عليها واحثث الذلول بعرقوبك »، الى غير هذا مما يرى انه واجب عليه قوله... ولما اكثر أحفظني وأغاظني، وبالطبع كنت لا أحسن ركوب المطايا، لسفري من الحجاز وأنا طفل وغيبتي الطويلة، فقلت له « ليتلطف الشريف فيعلمني الركوب متى تفرغنا لذلك، والا فالسير على الأقدام أحب إلي من

أن تباريني بهذا الشكل » فلامه الناس وندمت على ما قلت، لأنه ربما كان حين ذاك فوق الخامسة والسبعين من عمره.

ما أحسن ذكرى تلك الليلة!.. كان يتقدم جلالته رتل من المشاة السودان الذين يسمون (البواردية)، تتقدمهم جنائب الخيل وهي ست تقاد ليطلب أيها شاء، يتقدمها خمس من نجائب الركاب تقاد أيضاً وقوادها راكبون على مثلها، وعلى يمينه ويساره المشاعل يحملها الرجال توقد بالحطب ويقذف فيها اللبان، وأهازيج الحرس الراكب وحداؤه.. فكان موكباً شريفاً تحفه الأشاوس من هاشم والنجباء من المنتمين لربيعة أو مضر. فبلغ الركب الميمون (بحره) في الساعة الخامسة من الليل الساعة الغروبية، فعدل الى حيث المناخ المخصص، وبه المضارب الهاشمية في بطحاء كاللؤلؤ من وادي مر الظهران، فنزل وأمر بالعشاء وكان مهيأً لكافة من حوى الموكب ولمن جاء لاستقباله من مكة، ثم نادى المنادي بالركوب بعد العشاء فوراً وكان ذلك أشد شيء علي، حيث أخذ مني التعب كل مأخذ، فقدمت لجلالته بغلة فارهة شهباء، وركب الى جانبه الشريف زيد بن فواز اسن آل عون يومئذ، وركبت انا ذلولي وخشيت تدخلات حمزة، ولكن سلمني الله منه، وقد أدركنا الصبح في (البازان) بعد ان اجتزنا الحديبية، ولعل هذا الاسم يعرفه كل عربي مسلم. فصلى الصبح هناك، ثم تريث حتى أسفر، فطلب احدى ركائب الخيل فجيء له بجواد اشقر اسحم يقال له (عبد الرحمن) نسبة الى مهديه عبد الرحمن باشا اليوسف امير الحج الشامي، وكان من أحسن جياد الشام، فأخذ يتهادى تحته ويصول كأنه قد عرف من عليه. ولقد ذكرتني حالته قول الحادي الذي حدا بالامام علي زين العابدين، بعد أن حدا هشام بن عبد الملك حيث قال:

يا أيها البكر الذي أراكا هلا عرفت اليوم من علاكا
ان علياً قد علا ذراكا

وهكذا يمسك الآخر الأول، ذرية بعضها من بعض.

سرنا واذا بجبال مكة، ثور وخندمة وحراء ثم أبي قبيس وقعيقعان، ثم بلغ الموكب الهجلة، وهناك ضربت خيام الاستقبال، وكان فيها كل مَنْ بمكة وكل مَنْ بالطائف ومَنْ لحق من أهل المدينة، يتقدمهم الشريف ناصر بن علي شقيق جلالته، ووكيل أمير مكة ووالي الحجاز وقائدها المشير كاظم باشا وهيئة الولاية وقاضي مكة، ومن العلماء الشيخ بابصيل والسيد عبد القادر الشيبي وأبناؤه الشيخ حسن والشيخ عبد الله وآخر نسيت اسمه، وكبراء عشائر عتيبة يتقدمهم جابر بن هليل الذئيبي السعدي نسبة الى حليمة بنت أبي ذؤيب ظئر النبي ﷺ، وهو رئيس عشيرة الثبتة، ورؤساء عشائر حرب يتقدمهم أبن عسم، وعشائر هذيل.. كل عشيرة عليها رئيسها ومقدمها.

وبعد السلام، أَمَّ المسجد الحرام، فنزل وطاف ثم سعى ثم أَمَّ دار الامارة وجلس مجلساً عاماً قبل أن يضع احرامه، فسلم عليه الخاصة والعامة حتى انتهوا بعد صلاة الظهر. أما أنا فقد انهزمت الى الجناح الذي خصص لي، فحللت الأحرام ودخلت الحمام، ثم اضطجعت وقد غلبني النوم بالرغم من حر مكة شرفها الله، ولم يوقظني أحد، حتى الغداء تركته يومئذ؛ وكنت بجوار العم المرحوم الشريف ناصر، وكان يهديني الى ما أجهله ويعلمني كل ما يجب أعرف. ولقد كانت تلك الليلة ــ أي أول ليلة أمضيناها بمكة بعد الغيبة الطويلة ــ أسعد وأشرف ليالي على الاطلاق، حيث العودة الى الوطن برضا الباري وبالعز وبالرفعة، شاهدت فيها الأهل والأحبة. ولقد تحسست باحاسيس غريبة، وخصوصاً لما تشرفت بتقبيل أنامل الشريفة فاطمة الكبرى بنت محمد بن عون وعمة والدي، وهي آخر ذرية محمد بن عون لصلبه، حيث قبلتني في جبيني وقربتني وأدنتني، وكانت سيدة طويلة بيضاء سبطة اليدين

طويلة الأنف عريضة الجبين مهابة. ثم تشرفت بالعمة الكريمة زين الشرف بنت علي بن محمد.

وتتالت الأيام، وكل يوم يفد فيه من شتى البلاد رجالات لهم مكانتهم في محالهم وعشائرهم. هذا ولا ينبغي أن أغفل ذكر وفد حزب الاتحاد والترقي التركي، عندما سلم على الأمير بجدة، متقدماً باسم الاتحاد والترقي، يرأسه عبدالله قاسم، وقال:

جئنا نرحب بالامير الدستوري الذي يؤمل من سيادته ان يضرب صفحاً عن الاصول الادارية القديمة وعن الظلم الذي كان يرتكبه الشريف عون الرفيق والشريف علي، تبعاً للادارة المستبدة السابقة وارضاء للسلطان، وان البلاد إذ تحيي سيادة الامير فانها تحيي فيه الامير الذي عرف روح العصر والتجدد المطلوب للعمل، تحت الدستور الذي هو نبراس السلامة.

فأجابهم بقوله:

لقد حظيت بمقام اسلافي وآبائي على الشريطة التي بايع بها الشريف ابو نمي السلطان سليم الاول، وان هذه بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهي حريصة على الاحتفاظ بحقها، فليذهب كل منكم ليشتغل بما يخصه: المأمور في وظيفته، والتاجر في تجارته، والصانع في حرفته؛ واياكم من قال وقيل وما يقولون، فهذه بلاد الله ليست بملك لاحد. وان السلطان الآمر بالدستور الذي تذكره والذي امر بان يعمل في بلاده، يفتخر هو واسلافه بانهم خدام الحرمين الشريفين وليس الخادم بالملك. دستور بلاد الله وشريعة الله وسنة نبيه.

فخرجوا يتعثرون، وكتبوا الى الاستانة والى مراكزهم يقولون: بعث عبد الحميد برجل جلس على مقام أسلافه لا يعبأ باحد ولا يقر بدستور

ولا بتجدد. وقد ابتدأت الحرب بينه وبين الاتحاد والترقي من تلك اللحظة.

وفي مكة، وبعد اقامة ثلاثة أيام فيها، أمرت بالسفر الى الطائف، لاستصحاب الأمير السابق الشريف علي بن عبد الله بن محمد بن عون، وهو خالي شقيق والدتي وابن عم والدي، والقدوم به الى مكة المكرمة. فتوجهت من مكة أول ذي الحجة عن طريق عقبة كرى، ومعي الشريف جميل بن ناصر ابن عمي، وابنا خالي الأصغر محسن بن محمد وعبدالله بن محمد، فمررنا في طريقنا على منى ثم عرفات ثم وادي المحرم فالحراجل فالكر وقضينا الليل به. والكر هذا موقف باسفل عقبة كرى، وكرى جبل من السراة ارتفاعه عن سطح البحر الف وسبعمائة متر. ولما أصبحنا استأنفنا الطريق صعداً، على البغال، وكان الطريق يتلوى يميناً ويساراً بانحرافات ضيقة وببعض محلاته درج وعتب، وهي مخيفة لعلو جبلها ووعورته وميله الشديد، يمتد ثلاث ساعات ونصفاً وينتهي الى المعسل ــ والمعسل ماء ينبع من الجبل خفيف عذب شديد البرودة ــ ثم يصل الراكب الى الهدى، والهدى قرارة في رأس الجبل، بها أنواع الأشجار المثمرة والمياه العذبة والقرى الجميلة، يكون به أحسن العسل، وهو لقريش والنمور ــ وقريش هؤلاء بقية من قريش الظواهر ــ وإذا قام الرجل برأس العقبة بعد الظهر يرى جدة والبحر.

فقابلنا هناك أهل الهدى أحسن استقبال، ونزلنا في دار شيخ القرية. وبعد أن سلم علينا أهلها قدموا إلينا (اللطف) وهو على لغتهم فكوك الريق، ولطفهم خبز سميك يرفع بالكلاليب في طست عظيم يوضع في وسط السماط وعلى يمينه ويساره مثله، يأتي أحدهم يطعنه بجنبيته أو رمحه فترى البخار يخرج من خلاله، ويأتي آخر وبيده عكة من سمن الشفا المخدوم فيريقه عليه، والآخر وبيده عكة من العسل المصفى فيتبع السمن العسل، ثم يؤتى بالجبن الأبيض في أوان متوسطة ولحم

سليق مبرد وشيء من الملح الصخري والفاكهة الموجودة، إما العنب أو ما يكون من فاكهة الموسم، وان كان الوقت شتاء جاءوا بالزبيب الرازقي الذي لا بذور له.. هذا هو اللطف الذي قدم لنا. وبعد أن انتهينا من فطورنا جاءوا بالقهوة الخفيفة، ثم دعينا الى الصعود على رأس الحبلة ـــ والحبلة جبل أسود فوق الهدى ـــ فلما صعدناه رأينا في ناحية الغرب البحر تتلألأ فيه الشمس، ورأينا من ناحية الشرق (حضن) جبل البقوم الذي جاء الحديث عنه، وهو قوله ﷺ (من رأى حضناً فقد انجد).

ثم عدنا ومررنا في طريقنا على الشريف الحسين بن زيد بن فواز، وكان في مرض موته، ولقد أحزنني منظره. وقال: خرجت من الطائف للقاء سيدنا بجدة، ولكن أعجزني السفر وقعد بي المرض، وقد كافأني الله بأن رأيتك. وكانت وفاته بعد ذلك بيوم، ومرضه السل. فعدنا الى دارنا التي نزلنا بها، وجاءوا بالغداء، وإذا هو مركب من ست ذبائح: ثلاث ندّى، وهو يصنع بطريقة خاصة في حفرة جمرية يختم عليه حتى ينضج، فإذا أخرج بعد نضوجه توضع حوله أقراص من الفطير وأوان بها العسل وأوان بها الطحينة، وثلاث ذبائح سليق تحتها الأرز المطبوخ بالمرق. وكانت الفاكهة العنب. فتغدينا ثم استأنفنا الطريق بين البساتين النضرة المثمرة تحف بها عرش الاعناب. وبالجبل هذا أشجار السرو والعرعر والعتم والبشام والقيقب. ثم انحدرت بنا الطريق من النقب الأحمر، ومرت بنا على الدار البيضاء، قرية لقريش بها العنب واللوز والخوخ وسائر أشجار الحجاز المثمرة، كالعناب والكمثري والبخارة، فاجتزناه ومررنا بقرى أخرى بواد المحرم الشرقي، ثم ارتفعت بنا الطريق تاركة جبل الغمير الى اليمين، وانتهت بنا الجبال واذا بالطائف المأنوس في قرارته الفسيحة وواديه الخصب، وهو وج، وهضابه الحمر ومساكنه البيضاء الضاحكة وقراه: كالمثناة والسلامة وقرواء والعكرمية

وشهار وحواية ثم شبرا وبها القصر الملكي، وقابلنا هناك الشريف جعفر ابن ناصر موفداً من الشريف علي بن عبد الله.

فوصلنا والمؤذن يؤذن لصلاة المغرب، فصلينا جماعة مع حاشية الأمير السابق، وبعد الاستراحة وتبديل ثياب السفر دعينا الى حضرته جميعاً، فدخلنا عليه وهو بدار النساء، فسلمنا ثم قبلنا يده، فمال الى اليمين بحركة خفيفة وأمرنا بالجلوس فجلسنا، فرحب بنا ثم قال: كيف حال سيدنا؟ فقلت: بخير يقرؤك السلام ويتشوق الى رؤية سموك، وقد بعثني لأكون في الصحبة الى مكة. فقال: السفر غداً ان شاء الله. ثم أشار الى جميل ومحسن وعبدالله بان يخرجوا فخرجوا، واستبقاني وقال لي: ما الذي ستفعلونه بي؟ فقلت: الخير كله ان شاء الله. فقال: هل ترضى يا عبدالله بسفري الى اسطنبول فيفعل بي سفهاء الاتحاد والترقي ما فعلوه بوزرائهم؟ فقلت: لا يكون ذلك ان شاء الله. فقال: كيف؟ فقلت: الذي تحب، ان رأيت البقاء فأنت في بلادك بعد ان تتفاهم مع ابن عمك، وان اردت الخروج فابقَ بمصر ولا تسافر الى اسطنبول من هنا الا بعد أن تطمئن. فقال: أتضمن لي هذا؟ قلت: أسعى ان شاء الله. قال: ألست خالك؟ قلت: بلى والله. قال: أترضى لي الاهانة؟ قلت: حاشا لله، ولكن علي عهد الله لك في انني ان عجزت عن تنفيذ مرغوبك ان لا افارقك حيث تسير. فقال: رضيت الآن. ودمعت عيناه ثم قبلني.

كان السفر، كما أمر الخال المرحوم، من الطائف الى مكة؛ فتوجه ركابه ومعه عائلته الكريمة الى مكة عن طريق ذات عرق والزيماء فمكة، ودخل مكة المكرمة ليلاً؛ وكنت عرضت لسيدنا الوالد في رسالة خاصة كل ما قاله لي. وأول ما وصل قصد الوالد، فقابله من باب البهو، فتسالما ثم تقدما الى المجلس فاجلسه معه على سريره، وخرجنا نحن. وبعد ساعة استأذن، فخرج الى داره بالسبعة الأبيار، فاستدعاني

جلالة الوالد وقال: لا أرى على خالك أثراً من مرض. فقلت له: انه مريض روحياً.

وفي الصباح استدعاني، واذا في المجلس العم المرحوم الشريف ناصر والشريف زيد بن فواز بن ناصر أمير الطائف؛ فقال: ما رأيكم في علي باشا، هل يقيم هنا أم يسافر الى اسطنبول ؟ فقال الشريف زيد بن فواز: نحن في خدمة من يتولى الحكم منكم مقام أجداده، ولم تجر العادة بان نبدي رأياً في ما يخص سادتنا، فارجو إعفائي، وما يقر عليه رأيكم فلا خلاف عليكم منا فيه. فالتفت الى العم المرحوم وقال: كيف ترى؟ أجابه: أرى لزوم نفيه الى اسطنبول، لأن في بقائه هنا ما لا تحمد عقباه، وهو غني مثر، والترك لا تؤمن غوائلهم، تعمل فيهم الرشوة ما لا يتصور. فالتفت الي وقال: ما رأيك؟ فقلت: انه يطلب إما البقاء هنا أو السفر الى مصر، وان أحب المقام بمكة فلا ضرر، وقد بقي الشريف عبد المطلب بن غالب وهو معزول في بيته وعون الرفيق بن محمد أمير، فما الذي حصل؟ وان هو أحب السفر الى مصر والاقامة بها فهو الأحسن له، فيسلم من أذى الأتراك له ونكون قد عملنا على ان يبتعد عن الحجاز بالنسبة لملاحظة العم المحترم، وانني قد تعهدت له بأنه ان سيق الى اسطنبول فانني أسافر معه يصيبني ما يصيبه. فقال العم: متى جرت العادة في أخذ رأي من كان في هذه السن؟ فقال الوالد: انه ميمون الرأي.

انتهى المجلس، وتقرر سفر الخال الى مصر، بعد الحج والحمد لله، ولقد شاهدت في وجه العم المرحوم أثر الاغبرار. ولو سافر الى اسطنبول لأهين أو ابتزت أمواله. لو فرض فسلم لكان محل تهديد للوالد، وفي الوقت نفسه يكون الحائل للعم في ما يصبو اليه من مقام الامارة بعد أخيه.

الحج

كانت مكة تغوص بحجاج العالم الاسلامي: القرم، وبخارى، والداغستان، والروم ايلي، والشركس، والقازان، والكرج، والأتراك، والمغرب الأقصى، والجزائر، وتونس، ومصر، وجاوه، والهند، وجنوب أفريقيا، والسودان، وحجاج بلاد العرب من الشام واليمن والعراق، وحجاج ايران.. الكل في زيه ومعه الكثير من تحف بلاده وبضائعه، وكما قال الله تعالى ﴿**ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾، والكل مهل بلبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد لك والملك لا شريك لك.. فخسئ ابن عبد الوهاب ومن على مذهبه! أين الشرك من هذا التوحيد والاخلاص؟ ولكن لا حول ولا قوة الا بالله.

والحج هو موسم الاسلام، فريضة تؤدى، وتعارف يحصل، واخوة تؤكد. وكان في ذلك العام الوارد من البحر مائة وسبعة وثلاثين الف حاج. وكان أمير الحج الشامي عامئذ عبد الرحمن باشا اليوسف المعروف، وكان بعد عبوديته ــ وجده سعيد باشا ــ لسلاطين آل عثمان، انتقل الى انه علم من أعلام حزب الاتحاد والترقي التركي، وقلب الى سادته ظهر المجن، فأبى الرجوع بالحج الشامي من طريق البر، مدّعياً عدم الأمان، يريد بهذا اثبات عدم كفاءة الأمير الجديد.

وأصر الشريف بلزوم رجوع الحج الشامي ومحمله، على عادته من طريق البر، فترك هو ـــ أي عبد الرحمن باشا ـــ الحج، وسافر من البحر الى مصر فالشام.

وتوجه ركب الحجاج، وعليه العم الشريف ناصر بن علي، ليوصله الى الشام، وكنت معه، وكان السفير يعتبر كل يوم من أيامه عيد، بمراحله ورحيله ونزوله. فزرنا المصطفى ﷺ.

ما أعظم ذلك الموقف، والمرء مستقبل المواجهة الشريفة يقول « السلام عليك يا رسول الله.. السلام عليك يا حبيب الله.. السلام عليك يا خير خلق الله.. جزاك الله عنا خير الجزاء.. لقد بلَّغت عن ربك الحق وأدَّيت الرسالة، وجاهدت في الله حق جهاده، وكنت بالمؤمنين رحيماً »... وليخسأ ابن عبد الوهاب ومَنْ تابعه، فأين الشرك في مَنْ يقر برسالته ﷺ، ويشهد بأنه عبد الله ورسوله، ويقول بانه بلغ عن الله ما أمر به ﷺ؟!..

وبعد إقامة ثلاثة أيام سافر المحمل، وأميره ناصر بن علي، بالسكة الحديدية الى الشام. ولقد كنت معه أيضاً. وفي صباح الغد من سفرنا، بلغنا تبوك، ونزلنا جميعاً الى الحجر الصحي الاحتياطي لمدة سبعين ساعة. أما تبوك فهي في حماد من الأرض، أي مكسوة بقطع الصوان وأحجار متكسرة، بها عين ونخيل، والجبال غربيها، فأقمنا مدة الحجر في الأرض المخصصة للحجر، وهي مربعة محددة بقضبان من حديد، مجهزة بأسلاك شائكة، ولها أبواب، وبها قساطل للماء الجاري لها حنفيات يجري منها الماء، يخصص كل مربع لعدد معين من الخيام، ويمنع الاختلاط حتى تتم المدة. وهنالك ثلاثة أجهزة للتعقيم في مبان مخصوصة، تعقم بها أمتعة الحجاج وملابسهم. وكانت ليالي تبوك باردة، والموسم أواخر كانون الأول، والنهار بارد أيضاً.

وبينما كنا به وردت برقية من ناظم باشا والي الشام الى المرحوم العم، يقول فيها انه متغيب وانه سيبعث بمدير أوراق الولاية أو سكرتيرها ــ على لغة اليوم ــ لاستلام المحمل والركب. فاجابه بأنه هو بذاته الذي سيوصل الحاج الى الشام. ووردت برقية من المرحوم عطا باشا البكري يدعونا بها الى النزول في داره. ولم يبقَ عين من أعيان الشام إلا ودعانا الى النزول عنده. وكان البكري هو السابق فأجيب بالقبول.

ولما وصل القطار الى محطة القدم، كان الشام كله هناك، فخرجنا من القطار واستلم الوالي المحمل، وهيئت لنا من الخيل آصلها وأفرهها، فسرنا ثم وصلنا الى مكان به جماعة عظيمة من المستقبلين، وقد هيأوا خيمة كبيرة، فترجلنا، فخطب الخطباء مرحبين، وكانت قصائد ترحيبية يتقدم بها شعراء بلغاء، فشكرهم العم المرحوم بما يقتضي. ثم امتطينا ركائبنا فزرنا الوالي بدار الحكومة، ومن هنالك الى دار البكري، واكرم به من مضيف كريم قام بالواجب وزيادة. وكانت إقامتنا بالشام سبعة أيام، ندعى فيها من بيت كريم الى بيت كريم، إما لغداء أو لعشاء.

ومن الغريب تلك النشرات التي وزعها عبد الرحمن باشا اليوسف، واثبت بذلك نفسيته وما في قرارة ذاته. ففي نشرة موجهة للوالد المرحوم، يقول فيها في أبيات يقول في أحدها:
ان كنت تبغي ملك مكة فاعلمنْ   ان المليك بها هو الدستور

وفي أخرى موجهة الى العم المرحوم، يقول فيها:
انت يا هذا ثقيـــــل   وثقيـــــل وثقيـــــل
انت في المنظــر انسان   وفــي الميــزان فيــل

وفي نشرة موجهة الي، قال فيها: « الى سعادة الشريف عبد الله بك ــ انك لا تستحق الهجو ولا المدح ».

بهذا لامه الناس؛ ونشرت قصائد عديدة في هجوه، ونصح له بأن

لا يخرج لئلا يضر به الناس، لأنه أساء الى ضيوف الشام. ولكنه قتل أخيراً بدرعا مع الوزراء، بعد خروج المرحوم الملك فيصل من سوريا.

ولقد ابتعت بواسطة المرحوم البسّام (رمكة) من آصل الخيل، وهي الكحيلة الجعيثنية، وهي حمراء سمراء لها غرة، عريضة الحوافر قصيرة مربط اليدين. واهدى هولو باشا الى المرحوم الوالد (رمكة) سوداء جليلة تنسب كحيلة عجوز. وهناك خيول أخرى أهديت.

ثم توجهنا الى المدينة المنورة، بالسكة الحديدية، وكان الوصول بعد الحركة بثلاثة أيام، فاقمنا بها عشرة أيام، أصلحنا فيها بعض ما يجب اصلاحه من أمور تتعلق بعشيرة حرب. وعند رجوعنا الى مكة وجدت الأخوين علياً وفيصلاً ومن بقي من الأهل باسطنبول وجدتهم بالحجاز، ووجدت سيادة الخال قد سافر الى مصر عن طريق البحر، ومعه ابن أخيه محسن بن محمد. وكان الحجاج ينصرفون كل الى بلاده. أما والي الحجاز يوم ذاك، فهو المشير كاظم باشا، وقد بنى خط السكة من معان الى المدينة، يوم بناها السلطان عبد الحميد، وترأس أعمالها في اسطنبول المرحوم أحمد عزت باشا العابد. وقد استقال هذا الوالي وسافر. وكان الأمير يرى أمور الولاية ايضاً. وفي تلك الاثناء فوجئنا بحركات محمود شوكت باشا، وبخلع السلطان عبد الحميد، وجلوس ولي العهد رشاد بن عبد المجيد خان، باسم السلطان محمد خان الخامس. وكانت تلك الاحداث من ملاعب الصبية من الاتحاديين، فاغتصبوا الملك وتحكموا في السلطان وفي الرعية.

ولقد علمت وانا بالشام، نفور الناس وخصوصاً الشباب، فانهم كانوا على وثبة لفصم العرى. ولم يقتصر الامر على هذه الفئة من الناس، بل عم التشويش الاكثر ممن كان يحب السلطنة العثمانية، لعبث شباب الاتحاد وتحكمهم وسقوط هيبة الحكومة. هذا ما شاهدته في غير الحجاز من بلاد العرب.

وان أعمال المنتدى العربي باسطنبول، وشُعبَه في سائر بلاد العرب، وما كتبته جريدة (اقدام) التركية عن هذا المنتدى وعن العرب، وهجوم شباب العرب على مطبعة الجريدة المذكورة وتحطيمها، كل ذلك من الاشارات البارزة على ما وقع أخيراً، من انقطاع الصلة بين العرب والترك، لضعف آرائهم في قلب الادارة السلطانية الخليفية الى حاكمية ملّية دستورية في زعمهم، وابدال الهيمنة العربية الأسلامية بالسيطرة الروحية القانونية الغربية. ولله في خلقه شؤون.

وبعد أن تركز الأمر في اسطنبول، جاء الوالي فؤاد باشا ــ وسيدنا الوالد بالطائف ــ وهو عسكري برتبة فريق كان مستشاراً للسرعسكر باسطنبول، وهو غبي لا يدري من أين تؤكل الكتف. وكان قبل الطلوع الى المصيف بالطائف، صدر أمر الأمير بغزو بني الحارث ــ بطن من بقايا الحارث الأول ــ وهي عشائر بين بلاد البقوم بوادي تربة وبين بلاد النفعة من عتيبة شرقي وديان الطائف، لقطعهم الطريق وعدوانهم على مَنْ جاورهم. وكانت هذه العشيرة تنزل شرقي بئر وهضبة سامورة بركبة.

فغزونا على ترتيب الغزو المعروف: قوة درك راكبة هجانة، وفرسان من خاصة الأمير، مع قوات من العشائر الطيعة. فجوزوا بما كانوا يفعلون، وخضعوا بعد ذلك وأطاعوا. ثم تبع هذا الغزو غزوة هذّان (جبل بالحرة) على الطريق الشرقية من مكة الى المدينة المنورة، وكانوا يخيفون الحجاج ولا يؤدون الزكاة، فغزوناهم بأمر الأمير وهو لا يزال بمكة المكرمة أيضاً، على الترتيب السالف؛ وكانوا بمحل صعب، وكان ذلك اليوم يوماً عجزت فيه القوة عن تأديب تلك العشيرة التأديب الكافي. ولقد أصابتنا إصابات بليغة، ولكن تراجعنا بعد أن قتل عدد من الشرفاء وصوب عدد، وقتل من القوة البدوية مشائخ وفرسان. وقد أصبت أنا برمية اخترقت فخذي، ولكن الله سلم. وعادت القوة الى

الطائف، وقد برئت بعناية الله في خمسة وعشرين يوماً، على يد طبيب عربي من ثقيف.

ولما وصل الوالد الى مصيف الطائف، ولم تستأمن عشيرة مطير وتخضع، أمر بغزوهم مرة أخرى، فغزوناهم وكانوا قد تسهلوا وتركوا الوعر، فصبحناهم على بئر تسمى الروبلية، شرقي مران مسيرة يوم ونصف يوم؛ وكان التأديب وفق ما طلب، حيث خضعت العشيرة بعد ذلك وأصبح طريق الحاج، في ديار عتيبة ومطير، في غاية الأمان حتى بلاد حرب.

وبعد رجوعنا من هذا الغزو، وبعد وصول الوالي الجديد بأسبوع، وأنا بحضرة الأمير رحمه الله، بعد الظهر، واذا بمذكرة ترد من الوالي، ففض ختامها وقرأها، وقال: هذا مجنون.. ثم رمى بالمذكرة الي، فلما تأملتها، وجدته يقول أنه تلقى برقية من مدير الجندرمة بمكة ووكيل الوالي، يقول فيها أنه تأكد من عزم فئة في مكة، يرأسها الشريف زيد بن فواز قائمقام الامارة بالطائف، على حركة ثوروية يوم الجمعة، بهجوم يقومون به ضد سلطات الحكومة، ولذلك فانه يطلب القاء القبض على الشريف زيد ومَنْ معه، وسوقهم الى التحقيق والمحاكمة. فأجابه على الفور، بأنه ــ أي الأمير ــ متوجه الى مكة المكرمة للتحقيق في هذا الأمر، الذي هو عبارة عن فرية شائنة، دليلها نسبتها الى الشريف زيد بن فواز، وهو المخلص الأمين، وانه أقامه بالطائف وكيلاً للامارة علاوة على وظيفته.

وتحرك ركابه السامي ــ رحمه الله ــ بعد الظهر، وأصبح بمكة بعيد الشروق مع الطريق الطويلة، وأمَّ الحميدية دار الحكومة، ونزل واستدعى وكيل الوالي مدير الجندرمة، وقال له: حضرت لتحقيق ما قلت إنه ثابت لديك، من حركة مدبرة في مكة يوم الجمعة، وإني

آمر بإيجاد لجنة تحقيق، ترأسها أنت وقومندان العسكرية وقاضي مكة المكرمة، ويكون بها، باسم الامارة، نجلي عبدالله. فامتثل وجمع اللجنة المذكورة.

وبالطبع، وحيث أن الخبر نشأ منه، سألته عن المصدر، فعجز عن إسناد ذلك الى شخص مسؤول، وقال: انا لا أستطيع بيان اسماء رجالي الذين يعملون ساهرين على الامن العام. فقلت: اليست هذه لجنة تحقيق رسمية؟ وان اتهاماتك موجهة لشخصية كبيرة في البلاد، ولسكان حرم الله، وان لم تفعل فلا يسع اللجنة إلا أن تعتبر هذه الإخبارية كاذبة تسلب عنك الاعتماد. عند ذلك قال: إن زوجتي سمعت هذا الخبر، من امرأة كانت تصلي معها في المسجد الحرام، في قفص النساء. فقلنا: حسن، هذا طرف حبل، ولكن من هي المرأة؟ قال: لا تعرفها ولا يمكن العثور عليها.

فهُيِّئ المحضر للجلسة على هذا النمط، ووقعه اعضاء اللجنة، وهو منهم، وقال: هذه وظيفتي، سمعت وكتبت.. ورفعت اللجنة التقرير للامير، وبرقية بمضمون ذلك للوالي بالطائف، واعتبرت المسألة مسألة افتراء ونذالة. وكتب الأمير برقية بالواقع الى الصدر الأعظم بالاستانة، وكان يومئذ الصدر سعيد باشا، ووزير الداخلية رؤوف باشا.

ولما وصلنا الطائف بعد ثلاث، كان أمر عزل الوالي ومدير الجندرمة قد وصل، وكانوا على أهبة السفر.

هذه نبذة من نبذ الادارة العثمانية، التي جرت الى نفور العرب، تلك النفرة الهادمة لهذا الشرق الاسلامي؛ وكانوا هم السبب.

توجه المرحوم الى شفا نجد
بسبب العشائر الحجازية التي كانت تحت يدي اميري نجد ابن رشيد وابن سعود.

توجه المرحوم الى نجد، للنظر في مسائل عشائر الحجاز، الذين كانت تتخاطفهم رغبات اميري نجد، ابن سعود وابن رشيد، ومعه كل الأمراء والأشراف، وبقيت وكيلا عنه في مهام أمور الامارة. فكان هنالك حادث القبض على الأمير سعيد بن عبد الرحمن بن سعود، شقيق الملك عبد العزيز، وهو يزكي عشائر عتيبة، ثم اطلاقه بعد تفاهم تحريري حصل بينه وبين ابن سعود، فعاد.

وفي اثناء غيابه، فصلت الحكومة العثمانية المدينة المنورة عن ولاية الحجاز، وكان المحافظ يومئذ علي رضا باشا الركابي، وكان الوالي كامل بك؛ فوردت برقيات من وكيل الأمير بالمدينة، تنبئ بأن المحافظ أقام حفلة كبرى وأنبأ وكيل الأمير بأن لا صفة له بعد الآن. ووردت برقيات من الشرفاء ورؤساء العشائر معترضة على هذا الفصل. فكتبت الى الباب العالي ـــ وكان الصدر الأعظم يومئذ ابراهيم حقي باشا ـــ اسأله عن مسؤوليات الامارة فيما بعد، عن قوافل الحجاج والزوار، هل هي كما كانت الى مدائن صالح أم الى محل معين بين الحرمين؟..

ثم طلبت الوالي فحضر، فسألته: هل فصلت محافظة المدينة عن الولاية، وهل ان مسؤوليات الامارة هناك قد ألغيت؟ فقال لي: هل بلغك ذلك؟ قلت: نعم. وأطلعته على البرقيات وعلى نسخة برقيتي الصدر الأعظم، فقال: نعم أعلنت ذلك رسمياً، وكان جوابي الاستقالة، لان ذلك عمل وأنا والي الحجاز، وبدون أخذ رأيي. فأكبرتُ عمله، فودع وعاد الى دائرته.

وبعد خروجه بساعتين، ورد جواب الصدر الاعظم يقول فيه:

« ان ارتباط المدينة المنورة بمركز السلطنة بخطوط تلغرافية وبالسكة الحديدية، تضمن السرعة في المخابرات؛ لذلك اعتبرت محافظة المدينة المنورة محافظة مستقلة مربوطة بوزارة الداخلية رأساً لا بالولاية. واما تبعات الامارة الجليلة وحقوقها، فهي كما كانت، من مكة المكرمة الى مدائن صالح »

وقد بلغ ذلك الى ولاية الحجاز ومحافظة المدينة، وانتهت بهذا عملية الركابي باشا غير المشكورة، وكان رحمه الله حين ذاك لا يتكلم الا باللغة التركية، وكنت ــ وهو محافظ المدينة ــ أوصلت الحج الى طيبه، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام؛ فزارني امير الحج ابن رشيد، وقال ان المحافظ منعه من دخول المدينة المنورة ومعه علم ابن رشيد، وهو علم أخضر مكتوب عليه (لا اله الا الله محمد رسول الله) فاذا لم يسمح له بذلك فسيعود بالحج، وانه كلم المحافظ بعزمه فلم يأبه له.

فزرت الركابي باشا، وقصصت عليه ما بلغني، فقال: لا يدخل هذه البلد ولا يرفع بها الا العلم العثماني. فقلت: يا حضرة الباشا، جرت العادة بهذا، وقد دخل مكة ومعه علمه، فاذا أصررت على رأيك عاد مع من معه قبل أن يزوروا المصطفى ﷺ؛ فماذا عساه ان يكون

إذا دخل كالعادة السابقة؟ قال: لا يكون هذا أبداً. فقلت: الامر خطير، وانا اسألك كمحافظ، وسأسأل وزير الداخلية ببرقية، بصفتي النائب الحجازي في مجلس المبعوثان، عن حقيقة ابن رشيد: هل هو صاحب امارة مستقلة، لا ينبغي رفع علمها إلا بإذن ومراسيم خاصة، ام هو امير تابع للدولة يحمل علم الحجاج الاخضر، لان محافظ المدينة رفض دخول الحاج على الطريقة المعتادة، وقال ان لا علم هنا غير العلم العثماني، وبهذا يشير الى ان ما بيد امير الحاج علم غير عثماني؟.. فقال لي: ارجوك لا تفعل، وانا قد اخطأت.. ثم استدعى امير الحج وسمح له.

وهذا هو الركابي باشا، الذي كان عندنا في عمان في رئاسة الوزراء مرتين، رحمه الله:

في ذلك الحج، الذي جرى ذكر الركابي باشا فيه، كان قد حج الخديوي المرحوم عباس حلمي باشا، وقوبل في الحجاز بما هو أهل له من الإكرام والاحترام بسبب شخصيته، ثم للعلائق الودية بين البيتين، منذ محمد علي باشا والشريف محمد بن عون. وكنت اصبت في تلك الزيارة، وأنا بالمدينة، بحمى التيفوئيد، وسافرت وانا مصاب بها، ولقد اتعبتني ولكن الله سلم. ولما وصلت الى بئر الماشي، وهي على مرحلة من وادي الليمون وعلى مرحلتين من مكة، بُشرت بابني طلال، وأُخبرت بأنني قد انتخبت مبعوثاً عن مكة المكرمة في مجلس المبعوثان العثماني. ولقد ساءني هذا الخبر، حيث سئمت الحياة الطويلة بتلك العاصمة، فدخلت مكة وانا في شدة مرضي، ثم برئت بعناية الله بعد انقضاء المدة المرضية؛ فسافرت الى مصر، ومنها الى اسطنبول، لأقوم بوظيفة المبعوث. ولما وصلت الباخرة السويس، واذا بمحافظ السويس والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وعلي بك شاهين صاحب تشريفات الخديوي على الرصيف في انتظاري، وقد أوفدهم الخديوي المرحوم

للتحية والدعوة للنزول ضيفاً عليه بقصر رأس التين بالاسكندرية، فشكرتهم ورجوتهم ان يبلغوا سموه امتناني وقبول الدعوة الكريمة مع الشكر العميق، ثم ابرقت لسموه بهذا المعنى.

ولقد كان الوالد المرحوم جعلني في رفقة سموه مدة الحج، فعرفني حق المعرفة ومال الي بكليته؛ فسافرنا من السويس في قطار خاص الى الاسكندرية، وكان الغداء والعشاء في القطار. أما هؤلاء الذوات فبعد أن أدوا واجبهم تخلفوا في القاهرة، ما عدا علي بك شاهين والشيخ حازم بن مليحم مقوم الحج المصري، فانهما سافرا معي الى رأس التين. وتفضل سموه فقابلني في اليوم الثاني، بذلك القصر الفخم الذي كان يزداد بهاء بطلعة سموه المشرقة، أسكنه الله فسيح الجنان وأبدله داراً خيراً من داره، فانه الغريب الشهيد. ولما رآني قال مظهراً الدهشة، « مالك؟ دانت خسّيت؟ جرى ايه؟ » فاجبته: ما من شيء يا أفندينا؟ وانما حمى أصابتني بعد سفر سموك من المدينة، واستمرت بي اكثر من خمسة وعشرين يوماً، ثم زالت. فقال: متى تسافر؟ فقلت: إن أذن سموك فالسفر غداً إن شاء الله. فأجاب: « ما يصحش قبل أن يفحصك الدكتور كاوسكي بك فنرى المرض ده هو ايه ».. وبعد المعاينة بأخذ الدم من إصبعي، قال الطبيب كاوسكي أن مرضي كانت الحمى التيفوئيدية، ورتب لي علاجاً استعمله.

فسافرت بعد أسبوع بالباخرة الرومانية (داجيتا)، وكانت مثل العروس، ذات مدخنتين وعلى أحدث طراز، تسير في الساعة ثلاثة وعشرين ميلا. فأمر سموه أن يحجز لي في الباخرة الجناح الممتاز، وكان معي المرحوم الشريف شاكر بن زيد والشيخ محمد بن غاصب؛ فسافرنا والشهر أول مايو والبحر ليس بالساجي ولا بالهائج، فمضت تلك الليلة. ومن لم يألف البحر من الركاب كان في حجرته. ولكن

لما أصبحنا، كان البحر وكأنه المرآة الصقيلة، والركاب على ظهر السفينة جلوس هنا وهناك.

ولقد لفت أنظار الأجانب لباسنا العربي المشلح والعقال؛ ولقد تجرأت شابة رومانية ورجت مني أن البسها صمادتي وعقالي ففعلت، فأخذت تنظر الى نفسها في المرآة وتصفق بيديها، وكانت جميلة رشيقة فاتنة، وأظنها غاظت المرحوم شاكر، فقال بلغته العتيبية: « نعن ابو ذا الوجه وراك ما طلبتي عقالي وانا وصمادتي؟ » فضحكت وأمرت خادمي احمد وصفي، فجاءني بصمادة أخرى وعقال فلبستهما؛ وتحيرت المسكينة ماذا عساها أن تفعل، فقلت: أتركها لك كتذكار — وكانت تحسن العربية قليلا — ثم قلت لها: انا فلان، النائب في مجلس المبعوثان، فشكرتني واخبرتني انها كريمة قنصل رومانيا بالاسكندرية. ووصلت بنا الباخرة صباح الغد الى (بيريه) ومن بيريه الى اسطنبول.

ولا ينبغي لي أن أنسى زميلي، الشيخ حسن الشيبي رحمه الله، العضو الثاني عن مكة في ذلك المجلس، والشيخ محمد علي طالب المطوف في مكة — الذي كان مسافراً الى القرم لعلاقته مع الحجاج هناك — ذلك الرجل البشوش الضحوك، الذي كان سبب أنسنا طول الطريق.

ووصلنا الاستانة، ورست الباخرة بالرصيف، فإذا في استقبالنا هناك الشريف جميل بن ناصر، موفداً من طرف العم المرحوم، الذي كان في اسطنبول عضو مجلس الأعيان؛ ووجدنا هيئة الاستقبال الموفدة من رئيس المجلس والمؤلفة من ثلاثة أعضاء: عبد الرحمن باشا اليوسف نائب دمشق وسعيد بك نائب ازمير وحسين جاهد بك نائب اسطنبول، فشكرناهم جميعاً؛ وتوجهنا الى استينيا، في القصر الذي أعرفه والذي تزوجت به، والذي لم يلحقنا فيه أي كدر، وبه نال الوالد المرحوم الامارة، كما انه قد ولد فيه أخي زيد وشقائقي الثلاث.

وبعد إقامة ثلاثة أيام، وتقديم الشكر للعم المرحوم، انتقلت الى قصر المصيف للوالد المرحوم ببيوك — دار بأعلى البوسفور — ثم توجهنا انا والشيخ حسن الشيبي في معية المرحوم قبل تلك النقلة، يوم كنا في ضيافته، الى دار رئيس مجلس النواب احمد رضا بك، فقابلنا بالبشر والغبطة واللطف الكثير، ثم قال انه ينتظرنا في دار المجلس بديوان الرئاسة في الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم.

ولما جئناه في الساعة المعينة وجدنا عنده مجدي افندي مبعوث بروسا، ورئيس كتاب ديوان الرئاسة وهو شيخ معمم ضخم طلق المحيا جهوري الصوت؛ ووجدنا عنده احد مستقبلينا سعيد بك مبعوث ازمير؛ ووجدنا الكسندر كرندوري باشا عضو الاعيان. فحييناه وصافحنا واجلسنا؛ ولكن لم أجده كما رأيته في داره، بل رأيته مقطب الوجه؛ فقال لي مبادراً: وجدت هنا في ديوان الرئاسة، بعد أن حضرت، برقيات من مكة تحتج على انتخابكما، قائلة عنك أنت يا عبد الله بك، انك لم تصل الى السن القانونية، وتقول عن زميلك الشيخ حسن افندي الشيبي انه لا يقرأ ولا يكتب لا في التركية ولا في العربية. فقلت له: انني لم أشهد تاريخ ولادتي، ولكن أعتقد أن الهيئة التي فحصت صناديق الانتخاب، ورئيسها الوالي وأعضاءها القاضي ورجال مجلس الادارة، ذكروا أن الانتخاب جرى وفق القانون؛ فان كان هناك ما يخالف الحقيقة فالتبعة عليه ولست بالكاذب، وأقرر انني لم أشهد يوم ولادتي. وأما زميلي فله أن يدافع عن نفسه، فهو من اكرم بيوت مكة، وهو يجيد اللغة العربية كتابة وقراءة، وأما اللغة التركية فلم يعتن بها هناك. والأوراق في المجلس ان قبلها فذلك، وان رفضها فلست بالذي يخسر أي شيء إلا زمالتكم. واسطنبول بلد احبها، وحضرت في موسم الربيع، وفي امكاني الرجوع الى وطني متى سئمت... وقمت وانا أقول: « الله اصمار لادق » أي في امان الله...

وذهبنا الى دائرة الأعيان، حيث أجلسنا العم المرحوم في الشرفة المخصصة للاعيان بدائرة المبعوثين. ولما عرفنا أهل المجلس اننا مندوبو مكة، قالوا: لِمَ لا يجلسون في كراسيهم؟ فقال الرئيس: هنا برقيات اعتراضية، وردت من الحجاز، ستقرأ عليكم الآن، فـان رفضتموها وقبلتموها نائبين فعند ذلك يجلسان. فقال أحد النواب: ومن تريدون؟ أتبعث اليكم مكة أفضل من ابن الشريف وابن فاتح بيت الله؟ فصاح المجلس كله: لا اعتراض لا اعتراض. ثم أخذنا باليد وأجلسنا وانتهى الأمر.

ومن غريب ما أذكره، انني انتخبت ثلاث مرات بدون أن أكلف حلف اليمين، وكذلك يوم انتخابي وكيلاً ثانياً لرئاسة هذا المجلس.

وبمناسبة المبعوثية، أحب أن أتعرض للحكم النيابي. فالحكم النيابي هو حكم من الأمة للامة. ان كان رئيس الدولة موصوفاً بالملك أو موصوفاً برئاسة الجمهورية، فهو لا يحكم حكماً مباشراً أو حكماً استبدادياً أو دكتاتورياً، بل يحكم حكماً دستورياً نيابياً؛ وعليه أن يختار رئيس الأكثرية الحزبية، فيكلفه بأن يشكل هيئة الوزارة. فمتى تم ذلك، تحكم هذه الحكومة بالقوانين التي أقرها نواب الدولة من قبل، والتي تحدثها بعد ذلك. فالنواب في المجلس العثماني، كانوا ينتخبون من كل الملل العثمانية، وكان حزب الاتحاد والترقي يشير الى من يريد، فينتخب بتدخلات حكومية، يقوم الولاة والمتصرفون بها، اللهم إلا ما كان من الحجاز، فانهم لم يستطيعوا أن يؤثروا في انتخاباتهم أي تأثير. وأما اليمن وعسير فالولاة يعينون الى هذه النيابة أشخاصاً، بشرط أن يكونوا اتحاديين. وإذا قلنا يعينون، نقول إن الظاهر انتخاب والباطن تعيين. ولقد رأيت أن القوانين التي تسن مجدداً انما هي في مصلحة العنصر الحاكم، وهو العنصر التركي، ليهيمن على سائر العناصر فيسلبها ما كان لها من امتيازات، نالتها يوم أن كانت الدولة على



في مجلس النواب العثماني

شكلها القديم. فالأموال التي تجبى، والمدارس التي تشيد وتبنى، والطرق التي تفتتح، كل هذه من الأموال العمومية التي تجري عليها القوانين العثمانية، فيما قرب من العاصمة وبعد من الولايات؛ نقول انه كان يصرف منها ثمانون في المئة على البلاد التي هي تركية محضة؛ وما في هذا من الحيف مشاهد معروف. ثم ان اكثرية الوزارة تختار من العنصر الحاكم، وللعرب وزير واحد وهو وزير الأوقاف، ومن الأقليات الأخرى يختار الصدر من أراد بالمناوبة؛ وفي هذا ما فيه من حكم الناس حكماً استبدادياً تقوم به وزارة عنصرية. وهكذا فأصول الادارة النيابية، في دولة مركبة من ملل كثيرة، تدفع بتلك الدولة الى التفرقة والشتات والبغضاء ثم السقوط، كما وقع في الدولة العثمانية.

ولقد عدت الى الحجاز في شهر تموز، وكانت تلك المدة لطيفة شيقة. وانني أذكر أن رجلا من علماء الفلك، قال عن نجم هللي المذنب انه سيصطدم بالأرض فيحرقها ومَنْ عليها، في اليوم الثامن عشر من شهر مايو من تلك السنة؛ فارتج الناس. وقبل الموعد بيوم، والمجلس منتظم، ونحن فيه، وإذا بصوت فظيع ولمعة، ففر كل من بالمجلس؛ وعلمت انا انه رعد وبرق، فأمسكت بحسن الشيبي وأجلستُهُ، وخرج الناس يركب بعضهم بعضاً؛ ثم عادوا ولقد غاظهم جلوسنا، فقالوا: رعد وبرق، ما من شيء.. ثم قال لي أحدهم: كيف بقيت انت وزميلك؟ قلت: أنا لا أؤمن بما تقولون، ولو فرضنا صحة ذلك، فما يجدي الخروج والأرض ومَنْ عليها في خطر الاندثار؟! فسكت.

عدنا الى الحجاز، بعد أن علق الاجتماع الى تشرين الثاني. وكذلك لما وصلنا الاسكندرية، أخذنا الى ضيافة الخديوي المرحوم، في القطار الى السويس رأساً، فالباخرة، وكان سموه رحمه الله في أوروبا. فوصلنا الوطن وكانت وجهتنا الطائف، فمررنا على مكة المكرمة، فطفنا وسعينا

وتحللنا من احرامنا. وبعد استراحة يوم، توجهنا الى الطائف عن طريق كر العقبة، فوجدنا الأهل بذلك المصيف اللطيف على خير حال.

وكان الوالد المرحوم غير راض عن تصرف وكيل الوالي امين بك الشاعر، الذي نقل بعد مدة وجيزة، وتوجهت الوكالة بالولاية الى المشير عبد الله باشا الشركسي، قومندان القوة العثمانية بالحجاز.

شكل الادارة العثمانية

قبل منشور الكلخانة، كانت الدولة العثمانية، من عهد عثمان الأول وأورخان، لا تشبه دول ملوك الطوائف؛ وكانت نشيطة فنية ادارية، حيث قدر لها الله ذلك وأن تسود الشرق الأوسط والعالم الاسلامي، ضامة الخلافة النبوية العربية اليها؛ فكانت في طراز ادارتها، بالنسبة لعصرها حين ذاك، خيراً من غيرها.

وكان أول مقام عرف، مقام قاضي العسكر، فهو القاضي الأكبر للبلد، والقاضي الذي يسير مع الجند في الحروب والغزوات. وإذا سار ترك من يخلفه باسم وكيل قاضي العسكر. وكانت للقضاة الكرامة التي للقواد. ثم أسست الادارة الملكية، وعين لها أشخاص، يسمون بيلربه أو ميرمران. ففي بلاد الأناضول بيلربه، وفي الروم ايلي بكلربكي. وفي معينات كل واحد من هؤلاء، أمراء ديوان على المتصرفيات بعد الولايات، منوط بهم أمر الجند الباش بوزق. وأما القضاة فهم بيدهم الادارة أيضاً؛ فإذا احتاجت الدولة الى حرب وطلبت جنداً، قام بكلربكي، أو الميرمران، مع أمراء الديوان، فجمعوا الجموع وتوجهوا الى حيث يطلب اليهم.

كانت تمشي الحال على تلك الوتيرة أو ما قاربها، تحت رئاسة

الصدر الأعظم في الديوان الملكي (ديوان هومايون). أما بعد منشور الكلخانة، فتأسست الولايات على الطراز الجديد، وتأسس الجند أيضاً على ما ذكرنا تأسيساً جديداً. ثم بعد اعلان القانون الأساسي سنة ١٢٩٣، جاء الحكم الدستوري، الذي سارت عليه الدولة الى أن انفصل عنها العرب.

ان أهم ما حدث ابان امارة المرحوم من انقلاب فكري جعله يترك التمسك بمحض عثمانيته التركية، هو مغزى عسير، عندما أمره السلطان بان يتوجه الى تلك المتصرفية، فينقذ حاميتها من حصار السيد الأدريسي. وكان حصار أبهى — مركز متصرفية عسير — وقت حركة الإمام يحيى وحصاره صنعاء اليمن قبل أن يتفاهم مع الدولة العثمانية بواسطة عزت باشا الصدر الأعظم أخيراً. فتوجه بالقوة العثمانية الموجودة بالحجاز، فاستصحب معه الجندرمة الراكبة وقوة هجانة المدينة، وألّف قوة اسماها (القوة المعاونة) على أن يأتيه المدد العسكري بالقنفذة.

وكنت يومئذ في المجلس النيابي، فطلبني، وأجازني المجلس، فالتحقت بالحجاز. وقال لي الصدر الأعظم ابراهيم حقي باشا: الأمير يطلبك ولا بد انه سيكلفك بمأمورية معه. وقال لي رئيس مجلس النواب احمد رضا بك: لِمَ تستعين الدولة بنفوذ والدك؟ ألم يأت الوقت الذي ينبغي أن تتخلص فيه الدولة من النفوذ الشخصي؟ فقلت له: انك نائب، ويمكنك أن تترك الرئاسة لوكيلك وتنزل الى كرسي النيابة كعضو فتوجه سؤالا الى الحكومة أو استيضاحاً، فان ذلك يكون أليق للصنعة التي أنت فيها، والدولة ستكون في حاجة ملحة الى نفوذ المخلصين من بلاد العرب أجيالا أخرى، ان بقيت وبقوا.

ولما وصلت الى مكة، مررت بسمو المرحوم الخديوي، وكان يميل رحمه الله الى السيد محمد بن أدريس، ولعله كان يعضده. ولقد بلغني أن الدولة العثمانية طلبت اليه أن ينصح السيد فنصحه، وبقيت هذه

النصيحة عند ذلك الحد. فلما رآني قال: السفر لتأديب الإدريسي؟ قلت: نعم. فقال: الوقت صيف وتهامة حارة، فلو أخرت الحركات الى أن يعتدل الموسم؟ قلت: لا أدري، ولكن ربما توجه الجيش من طريق الشرق، والتأخير فيه امكان سقوط ابهى، لذلك فالحركة واجبة. فقال: بلغني ان الأفكار العربية ممتعضة من هذا العزم. فأجبته بأن الأفكار هذه لا تصل الى بعض الأخطار الممكنة، ان حصل تفكك في القسم الجنوبي ن البلاد العربية يجعلها تحت أيد جاهلة، تمكن الأجانب من وضع أيديهم عليها. فقال: وفقكم الله، ولكن مهما أمكن، التمسوا الأسباب الواقية للصحة من الأوبئة والشمس. وفي الحقيقة لما وقعت الكوليرا في العساكر ذكرت تنبيهه هذا.

واقعة قوز ابا العير

وتحرك الركب الهاشمي من الحجاز في فصل الأسد، في حمارة القيظ، فوصلنا القنفذة، والانسان لا يستطيع أن يطأ الأرض الملتهبة كالنار، وليس بالقنفذة من عربان البلاد المجاورة أحد سوى أهلها. وكان في الصحبة ثلاثة طوابير نظامية، يبلغ عددها ثلاثة آلاف جندي. وبعد أخذ الأهبة، كانت الحركة نحو (قوز ابا العير) وكان فيه قائد للسيد الإدريسي، اسمه ابن خرشان، ومعه عشائر تهامة. فأمرت أن استصحب معي مائتي خيال والف هجان، مع تلك الطوابير والمدفعية، فتوجهنا وكان معي المرحوم الملك فيصل؛ وحيث أن التدريب العسكري للحركات الليلية كان غير كامل الترتيب، فلم تتمكن القوى التركية من قطع المسافة في الوقت المناسب، إلا بعد تأخر تسع ساعات. فوصلنا الى نقطة بساحل البحر جنوبي القنفذة، بها ماء يستطيع الانسان شربه، اسمه (ام الدبة). وبعد استراحة ثلاث ساعات، توجهنا فأدركنا الزوال، ونحن على طرف سهل صلب من رمل دمث، والبحر بالناحية الغربية، وأمامنا وادي (يبا) الكثير الحراج الملتف الأشجار؛ والجيش يسير ويتقدمه الطابور الأول، ثم الثاني، ثم الأثقال، ثم الطابور الثالث، وعلى الجناح الأيسر القوى الهاشمية والخيل، وعليها الأمير فيصل (الملك فيصل).

وكانت القوتان تأتمران بامرتي، وقائد الطوابير الثلاثة هو القائد زكي بك الشركسي. ولدى قدومنا الى ذلك المحل، عاد الينا ضيف الله العبود، أحد الشيوخ، وقد أرسل ـــ ومعه كوكبة من الخيل ـــ عيناً ليكشف ما وراء الحرجة وما بها، فقال انها محشوة بالرجال. وفي تلك الاثناء، واذا البقية من العيون ـــ أي القوة الكشافة ـــ تعود مسرعة، ثم عادت المقدمة من الهجانة وهي منهزمة متوجهة نحو الغرب الى ناحية البحر، واذا بجحيم من النار يطلق فجأة من تلك الحراج. فأمرت زكي بك بالتوقف، وأشرت عليه بان يسوق الطابور في شكل الصيادة، ويكون الطابور الثاني احتياطيه، وان تقف الأثقال، وان تقف ايضاً القوى الهاشمية؛ فاذا دفعناهم وجاء الوقت المناسب، أمرت القوى الهاشمية بالهجوم، والتعقيب من ناحيتها. فحرر هذا الأمر ووقع منه ومني، وأرسل الى الأمير فيصل والى قواد الطوابير، فسرنا والتحمنا مع القوى الكامنة في الحراج، فدفعناهم وتوغلنا.

وقبل ان يأتي الوقت ويصدر الأمر بهجوم القوة المعاونة، واذا بنا نراهم يهجمون مسرعين، وأن ليس أمامهم إلا زرع يحصد، فقلت لزكي بك: مر الطابور الاحتياطي يتقدم الى الميسرة، حيث كانت فيه القوة المعاونة، فانني لست آمن عليهم الهزيمة الآن. فقال إنه لا يستطيع ترك القوة الآن، ورجاني أن أبلغ هذا الأمر بذاتي. وقبل ان اتم المحاورة، واذا بالمرافق يقول لي: انظر يا سيدي الى يسارنا! فاذا بالقوة المعاونة ترتد لا تلوي على شيء. وقد بلغت الى حيث الطابور الثاني، وكان يقوده اسماعيل بك، فقلت: سر بالطابور وخذ موقعاً الى يسار الطابور الأول، أما القافلة فمرها لترجع الى (ام الدبة)، وليكن الطابور الثالث هو الاحتياطي. واذا بالرجل يمسك بعرف جواده يتقياً، ولم يكن في حالة ترضيني، ورأيت فيه من الجبن ما أزعجني؛ فكررت الأمر فلم يصغ، واذا بنا نضرب من الميسرة ضرباً مروعاً.

وبعد ثلاثة أرباع الساعة، كان الموقف في غاية من الحرج؛ واذا بفريق من الهجانة، فأنخته بين السبخاء والموقع الرملي، وشرعت أدافع ما استطعت؛ واذا بأناس من المنهزمين يلتحقون بي، وهم فرسان عرفوا بالنجدة، كفاجر بن شليويح، وحبيليص الشيباني، وفهد العرافة بن سعود، وبعض الأشراف، ثم لحق بي الشريف شاكر بن زيد؛ ولم يكن لنا منهم الا الثبات لتخليص القوة العثمانية من موقفها القتال. وبالنتيجة لم يسلم من الطوابير الثلاثة الا سبعون نفراً. ولما أن أُعيدت الحملة والمدافع الى أم الدبة، كنت آخر من ترك الموقف، بعد ان قتل ابن خيرة أمير الجناح الأيمن للقوة الادريسية. ووصلنا القنفذة في اليوم الثاني بخسارة عظيمة. ولو كرّ الأدارسة ليلتها او الليلة الثانية، لقضوا على الجميع. ولكن خسائرهم كانت أفدح.

كانت هذه الواقعة، واقعة (قوز ابا العير)، والتراجع الذي وقع من القوة المعاونة العربية، السبب الأول في سوء الظن الموجه الينا من باقي قوات الحملة التركية، واولهم المير الاي نظيف بك. وكأنهم نسوا ما كان يحيق بهم من حركات كهذه، في اليمن وعسير وفي جبل الدروز والكرك وفي كل محل.

وبعد خمسة عشر يوماً، تكررت الحملة بقوات جديدة وردت وأُمِّرَ على الجميع الشريف زيد بن فواز، وقد صدر الأمر الي بأن اكون أحد أمراء الحملة؛ فتوجهنا من القنفذة صباحا ووصلنا ظهراً الى (أم الدبة)، وكانت القوة التركية هي هذه: ثلاثة طوابير نظامية، كل طابور ثمانمائة وخمسون جندياً، بقيادة القائد زكي بك؛ وثلاثة طوابير رديف، بقيادة القائمقام اسماعيل بك، وكان عدد هذه الطوابير الف ومائتي جندي؛ وطابور آخر اسمه طابور اليمن، لانه جلب من اليمن، يقوده قائد اسمه ضياء الدين بك، وعلى المجموعة هذه كلها الامير الآي نظيف بك. اما القوة المعاونة، فكانت هي هي، خيلها وهجانتها.

فتحركنا وقت الظهر. ولما وصلت القوة الى محل المعركة الأولى، وكانت الساعة الحادية عشرة غروبية، وجدنا قوة الأدارسة في تلك الحالة الحرجة نفسها، فقابلونا بنار حامية كسالف عادتهم. فقال نظيف بك للشريف زيد: ماذا تأمر؟ قال: لا أمر لي إلا بعد ان تعرض علي ما تراه أنت، فاذا رأيت ما يجب تنبيهكم اليه فعلت. فالتفت الي وقال: ما رأيك؟ فقلت: الأمر بالمبيت واستئناف الحركة صباحا، لأني أخشى ان لا تكون الحركات العسكرية ناجحة ليلا، ونحن في ارض دغل لا نعرف مخارجها ومداخلها. فقال: تقول هذا من أجل ان يرى الناس، ان سبعة طوابير عثمانية أوقفتها شرذمة بدوية. فجلّى عما كان يكتم فقلت له: هذا رأي اكتبه كتابة. ثم التفت الى اليوزباشي أركان الحرب بهاء الدين بك فقال له: ماذا تقول؟ فقال: اقول إن كل شبر تتقدمه الآن في وقت الغروب والليل مقبل، يسوقك الى الاضمحلال، وإني أضم رأيي الى رأي عبد الله بك. فقال: اكتب الأمر بالمبيت: الآي زكي بك الجبهة. الاي سعيد بك الميسرة. الاثقال في الوسط. طابور اليمن في الساقة. القوة الهاشمية المعاونة الميمنة. فلما كتبه عرضه على الشريف زيد، فوافق عليه وصدق. ثم أمرت بان اكون مع زكي بك في الجبهة، وأن الأمير فيصل (الملك فيصل) على القوى الهاشمية في اليمين، وبقي الشريف زيد بن فواز ونظيف بك في مقر القيادة.

فتقدمنا تحت وابل من الرصاص، وقوّمنا الجبهة من طابورين، ومن كل طابور بلك فئة احتياطاً له، والطابور الثالث احتياطاً للكل. ونُظمت الجبهة في شكل مربع: فنحن جبهتنا الجنوب، والآي سعيد بك جبهته الشرق، وطابور اليمن جبهة الشمال، والقوى الهاشمية جبهتها الغرب. وعند إتمام هذا الترتيب، حمل أهل اليمن علينا من الجبهة حملة صادقة، استمرت ثلث ساعة، وقوبلت بجحيم من النار، فتراجعوا. ثم بعد ربع ساعة، كرّوا على الجبهة الشرقية، فقوبلوا بمثلها. على اننا كنا في

خطر من نار اتت من جبهة مكشوفة، فاضطر كل واحد منا ان يعمل له مجثما جنبياً؛ ولما كف هجومهم علا الصياح في الميمنة، حيث كانت النوبة على القوى المعاونة، فترجرجث ثم كرَّت، وبعد لأي أوقف الهجوم. ثم كانت الحملة على طابور اليمن، فأمد من الاحتياطي العام؛ ولم تدم هذه الحملة كثيراً، فتراجعوا، وكانت الليلة ليلاء حتى الصبح، فكنت متى سمعت بطلقة من ناحية أهل اليمن، تقابل بمئات الألوف من الطلقات من هذا الجانب؛ وكنت تسمع الايعاز حالا من الجبهات بالبوق (اتش كس اتش كس) (اقطع النار اقطع النار).

وبعد الساعة الرابعة، طُلبتُ الى مركز القيادة، فحضرت. وإذا بالمرحوم الشريف زيد ونظيف بك يقولان: كانت نجاة القوة هذه نتيجة لرأيك الميمون، فلو سرنا لكنا في خسران عظيم. فقلت: التجربة السالفة هي التي هدت الى ما وقع. فقالا: كيف الجبهة؟ قلت: على ما يرام، كل جندي قد نال قسطه من العشاء وزوّد بمطَّارتين من الماء، فلا خوف ان شاء الله.

ولم نذق تلك الليلة النوم إلا غرارا أو نعسه. ولما أصبح الصبح ونادى منادي الصلاة، بالبوق أولا ثم بالاذان ثانياً، كبَّر أهل اليمن من كل ناحية، فصلَّت كل فئة في محلها؛ ثم جلب الحرس الى مصافه، وقرأ مفتي الجيش سورة الصف؛ ثم ابتدأت المدفعية تُصْلِي الحرجة ناراً حامية فتمسح الأرض مسحاً. واذا بميسرة اليمن يقودها الشيخ بيطري تتقدم على اعلامها، فلما خرجت من الأدغال وتبينت في أرض صحصح، باغتتها القوى الهاشمية بهجوم بالخيل من ناحية البحر، ثم أصلتها المدفعية ناراً حامية، فاهتزت يمنة ويسرة كشجرة في مهب الريح، ثم ولت الادبار، فاتبعتها القوة الهاشمية الراكبة.

وتقدم الآي زكي بك، وأنا معه، فلما وصلنا الحرجة، لم يرعنا إلا وأهل اليمن بمآزرهم، وليس على ظهورهم من الثياب شيء، غير

المحازم والخناجر في أواسطهم، فقابلوا الجيش بطلقة أو طلقتين من كل واحد منهم؛ ثم استلوا الخناجر وحلوا تلك العربية؛ فاصلتهم القوة التركية ناراً حامية، فوقع الأكثر وهزم مَنْ بقي. وكنا حين ذاك نسمع لعلعة البنادق والمدافع من ناحية الآي سعيد بك، ثم أخذت الأصوات تبتعد كل ما تقدمنا، فقال زكي بك: نحن في خطر، حيث تمكن هؤلاء من احداث فجوات بين الميمنة والقلب والميسرة.

وحين ذاك كان المقر معه فئتان ومدفعان، وبه الشريف زيد بن فواز والأمير الآي نظيف بك. فقال زكي بك: سآمر بالتوقف، وهذه الشجرة الدوحاء علامة لك؛ فاذهب الى المقر، وليكن بيننا وبين قوة سعيد بك، التي ينبغي أن تسرع السير حتى توازينا من يسارنا؛ أما القوة الهاشمية فلا سبيل الى اللحاق بها. فلما وصلت، وإذا بالشريف زيد بن فواز، ومعه مائة وخمسون هجانا وأرباب الأسنان من المشايخ والشرفاء، فسألته عن نظيف بك، فقال: تقدم بالفئتين والمدفعين الى الكعدية — بئر بأعلى أبهى — وإذا بالملك فيصل معه، فلما سألته عن قواته قال: العهد بها يوم أن أغارت. فبعثت بمرافقي الى زكي بك، ومعه مَنْ يرشده الى الكعدية، حيث قائد المفرزة والمقر النظامي، وسرت مع ربعي؛ فلما سرنا نحو خمس دقائق، وإذا بنا نخرج الى أرض جرداء، فتبينت لنا منها الكعدية، وبها نظيف بك والبلكان الفئتان، تضرب مدافعه بالقذائف الخاصة للرمي من قرب والتي تدعى (شبرا).

ولما برزنا وعلم القيادة معنا، ورأوا الهجانة، ترك أهل اليمن نظيف بك وحملوا علينا، فأنخنا ونزلنا؛ فكانت ملحمة من أفظع ما رأيت، وكان الشريف زيد يصاب أحياناً بالرعاف، ولا يطيق الشمس، وهو واقف وعلى رأسه المظلة البيضاء، فأقول له: يا عم اندرق هنا. فيقول: لو أحببت الاندراق لكنت بالطائف، اصبروا سينكشفون الآن.

وهرع الملك فيصل الى الأمير الآي نظيف بك، ونحن في تلك

الساعة الكربة، واذا بحملة الأثقال ومعها طابور اليمن يتصلون بنا؛ فتقدم ذلك الطابور الشجاع، وانتشر حتى كانت اقسامه اليمنى متصلة بنظيف بك على الكعدية؛ وأمر الشريف زيد، ومعه الشيخ جابر بن هليل عظيم الثبتة من عشائر عتيبة، الحملة بالتقدم، وصاحوا: يا حاملوه يا حاملوه! فحملنا نحن من مرابضنا، والعلم الهاشمي بيد ابن جنيح — وكان رجلا طويلا أسمر — وكانت الهزيمة على أهل اليمن. ثم أخذنا نسمع أصوات الطلقات من ناحية المشرق، فتبين انها قوات سعيد بك وقد أقبلت.

وعند وقت العصر، كنا بقوز ابا العير، وليس من قوات اليمن أحد، فقد اضمحلوا وتراجع ابن خرشان الى القحبة. ثم قبيل المغرب، جاء التقرير الطبي الى مقر القيادة، بأن الوفيات اليوم في الجيش بلغت مائتين وثمانين، وان الوباء وباء الكوليرا. وفي اليوم الثالث، نزلت القوة الى ثلثها، وقدم المرحوم الى القوز؛ ولقد رأيت بعيني رأس الغفير القائم على خيمتي، يقع ميتاً كأن قد ضرب برصاصة. وأصبحت القوى المسلحة التركية الفاً وسبعمائة نفر من سبعة الآف، فأمر بالحركة نحو أبهى، وكلما تقدمنا تناقص المرض. وكانت وقائع، في بارق وفي الثنية، ثم صعدنا الجبل من عقبة ساقين المشهورة، ولما اجتزناها بعد ثالث، أيقنا بالسلامة من شر تهامة وأوبائها.

ثم كانت واقعة سدوان، ثم واقعة اثني خريم؛ وكان قائد الأدارسة السيد مصطفى الإدريسي والسيد الفصال، وكانت الهزائم تتالى على أهل اليمن. وكانت الفظاعة من الجند التركي، في احراق القرى وتقتيل الأبرياء، السبب الأول في الانقلاب الأخير، حيث قال الأمير: ليس من هؤلاء خير للعرب.. ولقد عرضت عليه أربع مرات جثث شويت على النار شياً، بأن تدخل أعمدة الخيام من أدبارهم حتى تخرج من

أفواههم. وقد عرض عليه، في اثني خريم، ست رؤوس وقد قطعت عن أجسادها، ووضع ذكر كل رجل منهم في فمه؛ فقال الأمير لنظيف بك: هذا يليق؟!. فأجابه: أليسوا قد حرقوا قلوبنا؟!. فسكت.

أسس النهضة

وبعد الأوبة الى الحجاز، كان الشريف يضع أسس النهضة. ولقد كانت الأوبة من عسير بسبب الخلاف الذي قام بينه وبين القائد والمتصرف سليمان باشا؛ فان الباشا المذكور قال انه لا يستطيع الائتمار بما يشير اليه الأمير، لأنه لم يتلق من الباب العالي أي أمر بهذا؛ وقال ان العساكر النظامية التي وصلت مع الشريف واللواء مصطفى نشأت باشا، يجب أن تكون تحت أمره، الى أن تأتي الاشارة من الباب العالي موضحة الحقيقة.

فعلى هذا، ولما رأى بعينه من مثلة في قتلى العرب، ومن أفعال جبارة وقعت من الجيش العثماني وقواده؛ ترك أبهى وعاد الى الحجاز بالقوات الهاشمية، عن طريق الشرق، حيث مرَّ بوادي شهران ووادي بيشة، وقد ترك رنية الى الشرق وسار مع أعلى حرة تربة، ونزل وادي كرى. وبناحية الشرق من هذا الوادي، تكون قرية تربة، وقصر رمادان الذي أبيدت فيه القوى المصرية في حركة الوهابية الأولى، ثم بها وقعت الهزيمة على الجيش الشرقي الهاشمي الذي كنت أقوده بذاتي يوم تربة.

ثم توجه الى وادي كرى، وقد ترك ديار غامد البدو الى يساره. ثم اصحر عندما بلغ جنوب ركبة في الخمرة، وهو ماء على حد

سهل من جبل، حيث تلتقي حدود ابن الحارث وغامد وعتيبة. وبذلك المحل جاء المستقبلون من الطائف ومعهم الشريفان عبدالله بن زيد ابن فواز وشرف بن راجح بن فواز، وجاء من الخرمة خالد بن لؤي، الخارج على قومه أخيراً، وغالب بن لؤي، ورؤساء العشائر بأجمعهم. ثم توجه مغربا الى الطائف، فمر بوادي النفعة، وهو واد به النخل الكثير الفاخر. ثم مضى في طريقه، ماراً بوادي ليّة، وبها قدم (مكتوبي الولاية الكاتب الأول) موفداً من الوالي، والميرالآي احمد بك موفداً من الكومندان منير باشا. وكان المكتوبي أسرّ اليه ـــ اي الى الأمير ـــ بأن الشريف ناصر بن محسن ـــ احد ذوي غالب ـــ أشاع الهزيمة عن الجيش العثماني والشريف، وأنه يقال إن الشريف قد قتل، الى غير هذا من الإرجاف.

ولما وصل الى الطائف، في اليوم الثاني، واذا في مضارب المستقبلين هيئة الحكومة، ومعهم ناصر بن محسن هذا؛ فلما رآه أمر باخراجه إخراجاً عنيفاً، فقال الوالي: عفواً يا سيدي فانه قد جاء معي.. فقال: وان كان قد جاء معك؟! فقال الوالي: أنا ممثل السلطان، وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه.. فاجاب على الفور: هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها؟ أنا ممثل السلطان هنا لا انتم.. ثم التفت الى قاضي مكة والى القومندان منير باشا، فسأل عنهما، ثم فتش الجند وركب الى دار الامارة. وقد التفت الينا، وهو يصعد الدرج وهو يقول: ربما أن ما فعلته لم يرقكم. فلم يجب أحد بكلمة. فقال: أنا عالم بما لا تحبون، ولا ضير، فعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم.

وبعد ثلاثة أيام وردت برقية من الصدر الأعظم يقول فيها:

لقد بلغت المسامع السنية المعاملة الشديدة التي وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن محسن، الذي هرع لاستقبالكم مع عطوفة حازم بك والي الحجاز، وان الرغبة

السلطانية منصرفة الى استدعاء الشريف المومى اليه الى مقامكم السامي وتلطيفه وارضائه.

فأجاب:

بما ان الأسباب الموجبة لما نال الشريف ناصر بن محسن من زجر واخراج، لا تتعلق بي شخصياً، فانا لا أرى ان علي اظهار الندم على ما فعلت؛ وان ما أشاعه المومى اليه من اخبار اضمحلال القوى التي كانت معي وابادتنا، لم يقصد منه الا ايجاد حركة ثورية هنا أيضاً؛ فهو يستحق ما وقع عليه. وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية، ثم جاء به الوالي، وهو يعرف ذلك، وما في هذا من المداهنة والفساد ليس من خلقي.

فجاء الرد على الفور من الصدر الأعظم يقول فيه:

ان الباب العالي لا يستطيع غض النظر عن ما في كسر الرغبة السنية التي تبلغتموها بالبرقية السابقة، التي نؤيدها بهذه، مردفين انتظار جلالة السلطان النتيجة.

فأجاب على الفور:

انني، مع كرامتي لنفسي، الرجل الذي يعتبر قاعدةً الثاني بعد ولي العهد في المكانة؛ ولا اظن ان الرغبة السنية تقصد الحط من هذا المركز القديم. والباب العالي ــ الذي لا يستطيع غض النظر عن نفوذ الذات السنية ــ كيف يوجه هذه التهمة الشائنة الى رجل لم ينفض بعد غبار السفر عن رجله في مجد السلطان؟! وان الباب العالي حر في ما يجب ان يفعله.

فسكت الباب العالي.

وهلَّ شهر رمضان، وكانت القطيعة بين هيئة الدولة والامارة طول الشهر. وفي ليلة العيد، جاء قائد الجندرمة عثمان بك الى دائرة الأنجال،

وقال للمرحوم الملك علي: لقد وردت برقية الى الوالي في ان يزور الذات الهاشمية معتذراً، فهل يقبله سيدنا؟ فقلنا: لا شك، ولكن تفضل اعرض عليه ذلك. وبعد الاستئذان، ولما مثل بين يديه، قال له عثمان بك: كيف حالك؟ وما سبب انقطاعك؟ فقال له: اما انا، فكما تعلم الدولة انني ان عجزت عن المحافظة على حقوقي، فانني أعجز عن حفظ حقوقها. فتقدم عثمان بك وقبل يده وعرض عليه ما جاء به، فقال: مرحباً به، وهو زميلي السابق، اذ كنا جميعاً في دائرة الداخلية لشورى الدولة؛ وليكن الاجتماع غدا في مصلى العيد، ثم يأتي بمعيتي الى دار الامارة، ثم نزور الولاية والقيادة كالمعتاد، فان هذا أليق وأجمل. فوقع ذلك كما أراد.

ثم أعقبت هذا وثبة ايطاليا على طرابلس الغرب، فأبدل الصدر الأعظم ابراهيم حقي باشا بالصدر الأعظم سعيد باشا، المعروف بشابور سعيد. فأبرق اليه الأمير يقول:

ارجو ان تلاحظوا البرقيات المتبادلة بين الصدارة والامارة، من تاريخ كذا الى تاريخ كذا، وبها تفاصيل الحادث.

فكان ان نقل الوالي حازم بك، عزلا، الى ولاية بيروت، بعد ثمان وعشرين ساعة. وعندها قال لنا: لو طأطأت رأسي لِما ارادوا لَما رفعت ذلك الرأس أبداً..

وعلى ذكر الوالي حازم بك، أقول ان الصدر السابق ابراهيم حقي باشا كان يلتزمه؛ وقد قال لي حقي باشا يوم وداعي له، وانا قاصد الى الحجاز، عندما طلبني المرحوم الوالد لأكون بالخدمة في ذلك المغزى: ان سفير بريطانيا العظمى يشتكي من سعود بن عبد العزيز بن سعود (المشهور بالعرافة) وتنزيل والدك، بانه بسبب المساعدات المتوالية له من سيادة الشريف، يخرب على أمير نجد عبد العزيز بن

عبد الرحمن الفيصل، وان هذا الأمير له صلة عهد بحكومة الهند، وانه يطلب كف يد المذكور عن هكذا حركات. فقال الصدر الأعظم: اقبل ايادي الأمير، وأرجوه ان لا يفتح علينا باب اشكال مع بريطانيا، فانا على غير استعداد لمجاراته، ومسألة الكويت لا تزال نصب الأعين...

وهكذا كانت ماجريات الحال منذ ذلك الحين.

مع اللورد كيتشنر

لقد كانت الدورة الأولى والثانية، التي حضرتها في مجلس المبعوثان، دورتي تعرف واطلاع. أما الدورة الثالثة، فبها عزل والي الحجاز وقائده الفريق منير باشا؛ وعين الميرالآي وهيب بك والياً وقائداً في حكومة سعيد حليم باشا، بعد مقتل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا، وقد جاء متنمراً.

وكنت حين ذاك في طريقي الى اسطنبول، لحضور المجلس؛ فلما وصلت مصر، علمت انه عبر ترعة السويس الى جدة، وان معه جنوداً كثيرة.

وقبل هذا التاريخ بعام، وانا بمصر بحضرة الخديوي المرحوم، في الساعة الثالثة بعد الظهر، جاء رئيس التشريفات واخبر الخديوي بأن اللورد كيتشنر قد حضر، فقمت مستئذناً، فقال الخديوي: قد علم انك هنا، وليس من اللياقة ان تخرج، فاصبر لأعرفك به. فدخل اللورد بقامته الطويلة فسلم على الخديوي، فقال له الخديوي: هذا الأمير عبدالله بن أمير مكة الحسين بن علي. ثم قال لي: هذا اللورد كيتشنر، قنصل عام بريطانيا بمصر. فتصافحنا. ثم قال له: هذا يد والده الفعالة، وقد أصيب بجراح في احدى غزواته. فأشار الى عنقه وقال: وهذه

اصابة اصابتني في حرب السودان. فقلت مازحاً: انك يا فخامة اللورد هدف لا يخطأ، ولكنني أقصر منك قامة، فكيف اصابني ذلك البدوي؟

ثم استأذنت وخرجت، وكانت هذه المقابلة بسراي القبة، وانا نزيل قصر عابدين. وبعد وصولي الى عابدين بساعة ونصف، جاءني التشريفاتي علي بك شاهين وقال: اللورد كيتشنر هنا وقد جاء لزيارتك. وكانت مباغتة خفت عاقبتها على سياسة والدي مع الأتراك؛ وبالطبع ما كنت استطيع رفض زيارة تكريمية، فدخل ومعه مستر ستورز (سير لورانس ستورز) الكاتب الشرقي بالقنصلية البريطانية. ولما استتب بهما البقاء، قال الترجمان بيننا سير لورانس: انني مغتبط بالتعرف اليك، وانني بمناسبة هذه الفرصة السانحة أبلغك رضى حكومة جلالته البريطانية عن الحالة الراهنة في الحجاز، حيث الأمن وراحة الحجاج بالحج وزيارة النبي، وانني اطلب تبليغ هذا لصاحب السيادة العظمى الشريف، وان حكومة جلالته لا ترضى بأي تغيير هناك. وبعد تناول القهوة قام وانصرف.

ثم جاءني رسول الخديوي يقول: ان لورد كيتشنر قد زارك، ومن اللائق المقتضى ان تعيد له الزيارة. فأربكني هذا التكليف فقلت: افعل ان شاء الله. ثم على الفور قصدت دار المندوب السامي التركي، الوزير محمد شريف رؤوف باشا، فأخبرته بالزيارة وقلت له: هل تأذن في أن اعيد له واجب زيارته؟ فقال: لا بد من ذلك ولا بأس. ورجوت علي بك شاهين ان يرى الوقت الذي لا يكون اللورد كيتشنر فيه بدار القنصلية العامة، كي أصل فجأة وأترك بطاقة زيارة ثم أخرج، فقال لي: لا يكون اليوم بعد الظهر هناك. فأخذني اليها، ولما وصلنا الى الباب الخارجي الكبير، واذا باللورد يستقبلني من الباب، فدخلت وجلسنا، ثم أشار لعلي بك شاهين بالخروج فخرج، وقال لي: اذا حدث أي حادث تحتاج فيه الى اي خدمة اقدمها فاني مستعد.

وبعد أن تناولنا الشاي، ذكر ملمحاً أنهم أحاطوا علماً أن في نية

تركيا القيام بتغييرات أساسية في بلاد العرب، فهل إذا كان من جملة هذه الاجراءات أي تغيير في شخصية الأمير، سيرضى سموه بذلك؟ قلت له: ان الشريف في العرف موظف، من حق السلطان تغييره، وهو لا يعارض ان وقع، ولكن إذا رأى أن الدفاع من منفعة الوطن المقدس، فهل تساعدون الأمير في دفاعه أنتم؟ فأجاب: ان بيننا وبين تركيا صداقة تقليدية لا تبيح لنا التدخل في شؤونها الداخلية. فقلت له: كم لكم قدرة عجيبة في تكوين الأمور على مشيئتكم! فهل يسمح لي اللورد أن أسأله عن الكويت، لما تدخل في شأنها حاكم الهند بطلب قائم مقام الكويت مبارك الصباح، ألم تكن جزءاً متمماً من البلاد العثمانية؟ فقال لي: أنت صريح خطر، وسأبلغ حكومتي ما سمعت. فقلت: ليس هذا يستحق التبليغ، فان الحديث مجرد ملاحظات. فقال: وان كان...

مع الصدر الأعظم سعيد باشا

سافرت الى اسطنبول، ورأيت الجرائد ذكرت عن زيارة اللورد كيتشنر اياي، وردي الزيارة له، تحت عناوين (ماذا يجري في مصر) فقالت:

ان الشريف عبدالله بك، نجل أمير مكة الشريف حسين باشا، ينزل ضيفاً على الخديوي. وفي هذه المرة أقيمت له حفلة غداء رسمية حضرها وزير الخارجية المصرية، وكانت الموسيقى الخديوية تلحن ألحاناً معينة أثناء الغداء. وقد زار اللورد كيتشنر الشريف عبدالله بك، ورد هذا الزيارة للورد. وقد حج الخديوي كما هو معروف. فيا هل ترى ماذا يجري بين سمع الحكومة وبصرها؟!..

فذهبت الى الصدر الأعظم سعيد باشا، وبحثت له عن تقولات الجرائد، وقلت له: لم أرد الزيارة إلا بعد أن استأذنت المندوب السامي العثماني بمصر، محمد رؤوف شريف باشا. فقال: لا تحفل بتقولات الجرائد.

وهذا الرجل له من المقدرة ما يوجب الحيرة. فلقد زرته أثناء حرب ايطاليا والدولة العثمانية بطرابلس الغرب، فلما سمع بوجودي في داره طلبني فدخلت عليه، وهو مصاب بالعنكز ــ جدري الماء ــ وهو

في سن الشيخوخة؛ فلما أقبلت عليه استوقفني، فوقفت ولا أدري ماذا يريد، وإذا به يضع يديه على ذراعي الكرسي وينهض يرتعد، حتى قام واقفاً؛ وحين ذاك أشار الي أن أتقدم، فدنوت منه وقال: لولا ما بي لقبلت يدك. وجلس وأمرني بالجلوس، وكان يلبس ثوباً وعليه فرو من الالمي وعلى رأسه طاقية، أشعث اللحية والشارب داخل بعضهما في بعض، وقد أخرج من فيه أسنانه الصناعية، وكان إذا تكلم كانت الكلمات تخرج منه أشبه بطبطبة الماء يسقط في الماء، وقال: الحال كما ترى، ولا معين لي من رفقائي؛ وهذه احدى خطيئات الاصول النيابية، في جعل الوزراء من الأعضاء المنتخبين الذين لا خبرة لهم في شيء. ثم وضع يده على زر الجرس، ولما حضر القائم على الخدمة، طلب رئيس الكتاب ومعه كاتبان آخران، فحضر الجميع، وأمرهم أن يكتبوا ما سيمليه عليهم من برقيات. وابتدأ يملي على الثلاثة، فأملى على الأول:

ولاية بيروت العلية:

علمت من وزارة الحربية الجليلة بهجوم الاسطول الطلياني على المدفعية العثمانية «عون الله» الراسية في ميناء بيروت، وضربها بالمدافع قبل أن تتم مدة الانذار المعطاة لها، وهي نصف ساعة، وتحطيم المدفعية المشار اليها واغراقها واغراق المدمرة «برق سطوت» معها، وان المدينة ودار البلدية أصيبتا بخسارة، وان هناك قتلى وجرحى من الاهلين، وان الغوغاء هاجمت المخازن العسكرية فنهبت الاسلحة والعتاد، وان المدينة في فوضى وعليه ينبغي الاجتماع حالا من طرفكم، بقناصل الدول المتحابة، والمخابرة مع قائد المركز، ليخابر المشيرية بالشام، لجلب خمسة طوابير من الرديف، لاعادة الامن حالا، واسترجاع الاسلحة والعتاد من الاهلين. وان مسؤولية ما وقع

عائدة عليكم حتى تتبين حقيقة الحال. ولقد علمت أن لا علم لدى وزارة الداخلية بكل ما جرى، وفي هذا مزيد الاسف.

وأملى على الثاني:

وزارة الخارجية الجليلة:

لقد هاجم الاسطول الايطالي المدفعية العثمانية الملكية « عون الله » والمدمرة « برق سطوت » داخل ميناء بيروت، واغرقهما قبل ان تتم مدة الانذار المعطاة لهما، وهي نصف ساعة، وقد تضررت مدينة بيروت غير المحصنة بالقصف الواقع. وان الحكومة السنية تحتج لدى الحكومات المتحابة على هذه المعاملة غير القانونية، مستندة على مقررات مؤتمر لاهاي. وبلغوا هذا الاحتجاج الى السفراء العثمانيين لدى الدول العظمى، كما يجب ان تبلغوا سفراء الدول العظمى بذلك الاحتجاج هنا.

ثم أملى على الثالث:

وزارة الحربية الجليلة:

اشكركم على سرعة اخباركم بحادث بيروت. بلغوا المشيرية بالشام تهيئة خمسة طوابير من الرديف وسوقها الى بيروت، لتعيد الامن وتسترد الاسلحة والعتاد المأخوذة من مخازن الجيش.

وكان يملي هذه البرقيات الثلاث، على الكتبة الثلاثة، في آن واحد، بحيث أنه حينما ينتهي أحدهم من الجملة ألحقه بتالية؛ وهكذا بالتناوب، وهو في حالة المرض. ثم أخذ هذه الأوامر الثلاثة ووقعها وقال: خذوا صورها منها.

ثم قيل له: ان عاصم بك وزير الخارجية هنا. فقال: ليدخل. فدخل وجلس وقال: لدي معروضات يا سيدي — ونظر الى ناحيتي يشير

الى لزوم سرية المحادثة ـــ فقال: أقدم اليك يا حضرة الوزير، الشريف عبدالله بك مبعوث مكة المكرمة ونجل الشريف الأمير، فانه يحرس أسرار الدولة مثلي ومثلك، فقل ما تشاء. فشكرت الصدر، وتظاهرت بأنني أحب النظر الى الشارع، فقمت الى الشباك، ثم تسللت خارجاً الى الصفة، وتركتهما وشأنهما. فلما خرج وزير الخارجية، ورآني بالصفة احمر وجهه، ثم قبل يدي وقال: إن شاء الله أزورك ببيوك دره، بقصركم الجميل. وخرج ودخلت، وبعد أن أتممت مهمتي مع الصدر خرجت.

هذه لمعة عن رجال ذلك العصر وأحواله.

تغير السياسة العثمانية في الحجاز

عندما وصل الوالي والكومندان وهيب بك الى الحجاز، كنت أنا قد خرجت من الحجاز في طريقي الى مصر فالآستانة. وقد تصادفنا في البحر الأحمر، وهو في بواخره، وأنا في الباخرة التي أنا فيها. وجاء ومعه قوى جديدة. وقد كان في عزل الوالي والقائد السابق منيف باشا، الانذار بتغيير السياسة العثمانية في الحجاز، حيث لم يكن من داع لعزل ذلك الرجل المستقيم، إلا أنه لا ينتمي الى حزب الاتحاد والترقي.

ويوم أن تركت مكة، كان الشريف زيد بن فواز في مرض موته؛ وقد سافر معي ابنه شاكر، كعادته؛ وما كنت أريد سفره معي، لعلة والده، ولكنه قال له: سافر فبقاؤك لا ينفعني وسفرك فيه الرفقة لعبدالله. ولما وصلنا السويس وسألنا عنه بالتلغراف، جاء الجواب السامي بهذا النص « البركة فيكم »، فعلمنا بما حدث. وكان الركن الأهم في الحجاز، فموته ومجيء وهيب في وقت واحد فيه ما فيه، مما يربك الرجل الممتاز الثقيل. ولقد كان في مجيء وهيب على هذا الشكل، السبب المعجل لمرضه فموته.

ولقد قال لي قبل مرضه: بلغني أن الوالي الجديد لا ينوي الخير بنا؛ أما أنا فرجل له خطته، وأما سيدنا فلو أُخذ من هنا لما عشت

دقيقة واحدة؛ فماذا تقول؟ فقلت: لا تتوهم، إنما الترك يتظاهرون ولا يفعلون، والوقت وقت تفاهم وثبات؛ وأنا مسافر، وفي سفري أستطلع الأمر. فقال: وهل في سفرك نفع؟! لو بقيت هنا، فخدمت سيدنا برأيك، واذا اقتضى الحال ففي الدفاع بحسن قيادتك، فذلك الأولى؛ أما أنا فلا أعتمد على نفسي في أنه بقيت فِيَّ بقية تتحمل أي صدمة. فقلت: الأمر دون ذلك إن شاء الله. ثم استحلفني وقال: أقلت ما قلت لتطمئنني؟! فقلت: لأطمئنك بالحق وهو الذي أعتقده. فخرجت وعلى وجهه أثر البشر.

ولما وصلت مصر، لبثت أياماً بضيافة الخديوي. وقد زارني اسماعيل حقي بك، الكاتب الأول للمندوب السامي العثماني بمصر محمد شريف رؤوف باشا، وقال لي: تلقت دار المندوب السامي من وزير الخارجية الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، يطلب سرعة قدومك الى اسطنبول. فقلت له: لا يزال بيننا وبين افتتاح المجلس شهر ونصف، ولي أشغال هنا أريد إتمامها، وسأسافر بعد ذلك فوراً. فخرج من عندي بهذا الجواب.

وفي اليوم الثاني، وأنا عند الخديوي، حضر الصدر الأعظم الأسبق فريد باشا، فلما رآني قال لي: ماذا تصنع هنا؟ قلت: أنا في طريقي الى الآستانة. فقال: كيف تذهب الى الآستانة وتترك والدك في الحجاز، وقد حضر وهيب بقوات عظيمة بقصد عزل الأمير؟! فقلت: كما تعلم أبهتك، أن الأمير من جملة رجال الدولة، فإذا أرادت الدولة تبديله، فما من حاجة الى ايجاد عساكر أو قوة. فقال لي: ما الفائدة من هذه الرشوة الكلامية؟ أتظنني أستطلع خفاياك؟ أنسيتَ أنني ألباني، وان ما فعله هؤلاء من رجال الدولة قد قضى على آمال بلادي وعثمانيتها وأنتم كذلك؟! فقلت له: إنني في طريقي الى اسطنبول، وأنا أعتقد أن لا خلاف يصدر من والدي، ضد ما تريده الدولة، مهما كانت

صبغتها. فقال الخديوي للصدر الأعظم: هو لا يسافر قبل حلول وقت المجلس.

فخرجت من عندهما الى محلي، وأنا في غاية من القلق. وفي ذلك المساء، وردتني برقية بامضاء الملك علي، يقول لي فيها « سافر الى اسطنبول حالا »؛ ولما كنت شديد الحذر، ولما كانت إدارة البرق والبريد تركية، شككت في أن تلك البرقية صادرة من أخي علي حقيقة، فأجبته « سأسافر عند انقضاء أشغالي، وقد أشار الي الكاتب الأول للكوميسير العثماني العالي اسماعيل حقي بك، فأجبته بذلك ».

وقد علمت أنه قد حصلت في الحجاز أزمة شديدة، لضغط الوالي على العموم وعزمه على تطبيق قانون إدارة الولايات في الحجاز؛ فاعترض الرأي العام الحجازي على هذا، وتجمهرت الأمة وانقطعت السابلة بين الساحل والداخل وبين المدينتين، وتبدت أشباح المجاعة. وزار والدي الوالي وقال له:

هذا انت ترى رغبة الشعب الحجازي في التمسك بحقوقه القديمة وبالشروط التي بويع بها السلطان سليم الأول بالخلافة. فان احببت عدم اعتبار هذا، وكانت في يدك اوامر من الدولة بتطبيق قانون الولايات على هذه البلاد وسلخ امتيازاتها، فأرنا هذه الأوامر التي لم تأتني عنها من الباب العالي اي إشارة. وإذا كان المقصود إجراء تبديل في الامارة، فهذا أنا سأبقى هنا إلى حين تأتي الباخرة التي سأسافر بها من جدة، لئلا يقع ما تسند تبعاته الي.

وكانت دار الحكومة من غرفة الوالي الى الشارع الى دار الامارة الى قشلاق جرول وقلعة جياد وسائر الجواد، ملأى بالرجال يصيحون بسقوط تغيير امتيازات الحجاز، ويطالبون بعدم مد السكة الحديدية من

المدينة الى مكة، ويهتفون بالأمير « دم دائماً ».. فتزلزل الرجل وارتبك، وأخذ يقول: ليس من هذا شيء.. وكتب برقية مستعجلة بالحال الراهنة، وخرج الأمير بين الهتاف العالي « دم دائماً ».. وبقي وهيب وهو يعلم أنه قد خُذل.

ثم في مساء ذلك اليوم، اخذ الدفتردار وكومندان الجندرمة الاميرالآي سعيد بك بالقوات التي كانت معهما، في طريقهما الى جدة بالحديبية، فأسر بيد العشائر، وحُصرت كل النقاط العسكرية بين جدة ومكة، وامتنع أهل الأودية من جلب الخضار والفواكه والسمن والأغنام الى مكة. ولم تفرج الأزمة، الا بورود البرقية الجوابية من الصدر الأعظم للأمير، بانه لا اخلال بحقوق الامارة وبامتيازات الحجاز، وان الدولة في الوقت الحاضر لا تلح في مد الخط الحديدي. وتليت هذه البرقية في المسجد الحرام، وعادت المياه الى مجاريها.

ثم تلقيت برقية ثانية بامضاء الملك علي يقول فيها: سافر حالا الى اسطنبول. فأجبت: لا باخرة قبل يوم السبت.

وورد البريد من الحجاز بتفصيل ما ذكرت الآن، فجاءني السير رولاند ستورز، وقد ارسله اللورد كيتشنر، وبيده كتاب بعنوان السفير البريطاني باسطنبول، يقول فيه « متى احتاج الامير عبدالله الباخرة الحربية المخصصة للسفير البريطاني فاجعلوها تحت امره ». وقال لي: يرجوك اللورد ان تقبل هذه الخدمة، وتدفع هذا الكتاب للمستر فيتس موريس كاتب السفارة، الذي سيقابلك في الباخرة بازمير ليتناول هذا الأمر. وقال لي: لا بد لك من ان تعلم انه اذا دافع سمو الشريف عن حقوقه بالحجاز، فالحكومة البريطانية، التي ليس لها أي حق في التدخل في شؤون داخلية لدولة صديقة، لا ترضى أبداً بدوام أي حركات تسببها تركيا ضد السلام الحاضر في بلاد الحج.

فعلمت انه يريد ان اكتب بذلك الى مكة، فقلت له: وكما حمّلتني هذا الكتاب، سأرجوك ان تبعث بكتابي هذا الى القنصل البريطاني بجدة، كي يتوسط بارساله الى مكة عن يد مأمور العربان. وكتبت الكتاب وختمته بالشمع الأحمر، وهو لا يدري ما فيه، وسافرت وسافر معي رفقائي.

ولما وصلت الآستانة، رأيت ابن عمي الشريف ينتظر على الرصيف. أما الكتاب فقد أخذه فيتس موريس بازمير.

مع الصدر الأعظم سعيد حليم باشا
ووزير الداخلية طلعت باشا
ووزير الحربية انور باشا

وكان مع الأمير جميل رجل اسمه طاهر افندي، وكيل اشغال والدة الامير زيد أخي، فقال: هيا بنا الى الصدر الاعظم ـــ وكان الوقت ليلا ـــ فقلت له: ولماذا الآن؟؟ قال: هو يريد ذلك.

فركبنا السيارة الى الباب العالي، فقالوا انه خرج الى داره، فيممنا داره، ولحقناه في طريقه بعد ان اجتاز الجسر، ووصلنا منزله قبله؛ فأخذنا الى بهو الاستقبال، ولم يكن هناك أحد، فقال لي طاهر افندي: أرجوك ان تبلغ سيادة الامير ان لا يتأخر في مصر، إن هو عزل، كما فعل الشريف علي باشا. فقلت: دون عزل الامير خرط القتاد. فقال لي: اسكت.. ان للجدار اسماعا. فقلت: لا اخفي ما اقول.

واذا بالصدر قد وصل، فلما دخل هشّ متضاحكا وقال: مرحباً مرحباً، ابطأتَ علينا بمصر، ونحن في حاجة اليك. فقلت: ها انا ذا حضرت، وما كنت احسب ان لكم في حضوري اي رغبة شديدة. فجلس وقال لي: كيف، وقد بعثت اليك ببرقية مع اسماعيل حقي بك بعد الخبر الأول، قلت فيها انني أنتظر قدوم الأمير عبدالله، وأرغب تبليغكم اياه؛

وان الاشاعات التي راجت عن شخص سمو الأمير بمكة لا أصل لها من الحقيقة، وان رضا الخليفة الأعظم عن سموه لا يتزلزل؟... فقلت: هذه البرقية هي التي أخرتني. قال: ولِمَ؟ قلت: لأنني ذكرت بها برقية محمود شوكت باشا لوالدي قبل خلع السلطان عبد الحميد بيومين، التي يقول فيها ان جيش الحركة قد توجه الى اسطنبول ونيته الاصلاح وان الحوادث عن الذات الملكية لا أصل لها من الحقيقة. فضحك بصوت عال وقال: لا لا لا... هذا التفكير غير موافق للحقيقة، واني آسف لأنه أقلقك. فقلت: انني مازح، وهذا أنا الآن جئت؛ وان أبي يقرئك السلام، ويقول انه لا ينتظر أن يدافع عن حقوق الشرافة وعن مقام آبائه وأجداده في عهد صدارة سعيد حليم باشا، حفيد محمد علي باشا الكبير، صديق البيت. قال: ولِمَ؟ ان كل الأمور سُوِّيت، وقد رضي الأمير عما عرضناه عليه، وأنا أرجو أن تراني غداً في الباب العالي، في الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد أن تقابل وزير الداخلية طلعت باشا ووزير الحربية أنور باشا قبل الظهر. فقلت: أنا لا أذهب اليهما، وأنا مبعوث مكة، ولا علاقة لي بهما، لأنني لست بالموظف؛ وان كانت هنالك أي رغبة سامية منكم، فانا أنتظر الدعوة منهما بعد تعيين الوقت، وقد عرفتهما في انهما لا يقابلان من يزورهما بدافع من نفسه. فقال: ستأتيك الدعوة. فخرجت.

فلما أصبحت، أُبلغت أن طلعت باشا — وزير الداخلية حين ذاك — ينتظرني في الساعة التاسعة بالباب العالي، وان انور باشا ينتظرني في الساعة العاشرة والنصف.

فذهبت في الوقت المحدد. وبينما انا اصعد الدرج الى دائرة الداخلية، واذا برجل يضع يده على كتفي ويقول: نحن نبحث عنك بمصر واذا بك هنا.. فاذا هو طلعت باشا، فأخذ بيدي وصعد الدرج اثنتين اثنتين، ودخل غرفته ثم جلس وأجلسني أمامه؛ وبعد المجاملات قال لي: انحلت

الأزمة بالحجاز، فأعلمْني ماذا جرى؟ قلت: لا علم لي بما جرى، لانني كنت بمصر، والتفصيلات هي عندكم؛ ولكن الذي اعلمه اجمالا، هو ان ما حدث ليس الا نتيجة طبيعية لسياستكم، انتم الاتحاد والترقي، وسياسة الشريف. قال: كيف؟ قلت:

انتم تريدون اخراج الحجاز من صبغته الخاصة، الى ولاية عثمانية، يجري فيها ما يجري في سواها؛ وسياسة الشريف سياسة محافظة تريد ابقاء كل شيء على ما كان عليه. ويظن هو ان غاية ما ترجوه الدولة هو استتباب الأمن وسلامة المواصلات وأمن الحجاج. وانتم مع ارادتكم لهذ الاشياء تريدون كما قلت آنفاً جعل الحجاز خاضعاً لقانون الولايات، ولو جعلتم الشرافة تخدم الدولة في الحجاز، وعلى تأسيس روابط الاخوة الاسلامية الحقيقية بين العالم الاسلامي وبين دولة الخلافة، لعلمتم ان مكة هي القلب النابض لهذه السياسة وان الشريف هو المنظم لهذا القلب وشرايينه، وان فائدة الدولة من مظاهرة الحجاز لها اكثر بكثير مما ترجونه من تطبيق قانون الولايات عليه.

فقال لي: ولِمَ يمانع والدك في بناء الخط الحديدي؟ قلت:

لم يمانع والدي في ذلك. ولكن نسيتم ان الاسباب الموجبة التي دعت السلطان عبد الحميد الى بناء هذا الخط، كانت ترمي الى غير ما تبنون انتم عليه سياستكم. هو كان يظن ان في تجربة كهذه دعاية عظيمة لشخصه، وكان يود كما تعلمون ان يومي ايماءة خفيفة الى روسيا بان الخطوط الحديدية العسكرية هي الاشارة الى نواحي الخطر العدائي، وان في بناء هذا الخط الى الجنوب مع خط بغداد ــ الذي اعطي امتيازه الى الالمان ــ الاشارة الى ان الخطر متوجه على الدولة العثمانية من الناحية الانكليزية لا من ناحية روسيا، وان اغفال مد السكك

الحديدية الى شرقي الاناضول هو الاستخذاء للروس وعدم الرغبة في تهييج عواطفه. والذي يهم الشريف اليوم يجب ان يهمكم انتم ايضاً، الا وهو بناء سياسة اسلامية مركزها الحجاز والامين عليها الشريف. واتمام هذا الخط يعني ايجاد اشغال تدعو اليها الذين يحيون اليوم بممارسة صناعة النقل على الجمل في الحجاز وتعليم الحجاج الطواف وكيفية زيارة المصطفى ﷺ. وليست هذه الوسائل معدومة هناك. هذا ما عجز الشريف عن تفهيمكم اياه وعجزتم عن فهمه.

فرأيت التأمل يبدو على وجهه، وقال لي: نجتمع غداً في حضرة الصدر، في بيته في الساعة الحادية عشرة؛ وانني أشكرك على ايضاحاتك.

وذهبت في الوقت المحدد الى انور باشا. ولما وصلت الى الباب في مركز السر عسكر، وإذا بالجند يطلبون وثيقة أو بطاقة زيارة، فقلت: لا أملك هذه ولا تلك، ولكن وثيقتي عمامتي، وقد جئت بطلب. فتنحوا وتقدمت. وفي الباب الداخلي أيضاً، أُخذت الى غرفة بها اكثر من عشرة أشخاص يكتبون، فلما رأوني على الباب، ظهر لي انهم استثقلوا الجبة والعمامة، فقالوا: لعلك غلطت، ليس هذا بالمكان الذي تريده. فقلت: نعم ليس هذا بالمكان الذي أريده، ولم أغلط، ولكني هديت الى هذه الغرفة؛ وأنا فلان بن فلان، جئت على وعد من وزير الحربية في هذا الوقت، فكيف الوصول اليه؟ فقاموا باجمعهم معتذرين، ثم كلم الضابط المدير لهم، مرافق الوزير، بالهاتف، فجاء الرد وأخذني اليه، فصعدت وأدخلت الى بهو الانتظار.

ورأيت في أقصى البهو أربعة من الذوات، عليهم الشكل المغربي؛ فجلست الى الباب وهم باعلى مكان من البهو، فتهامسوا وتذاكروا، فجاءني أحدهم، وبعد أن سلم قال لي: ان هذا هو عبد العزيز شاويش

يبلغك التحية ويدعوك الى حيث هو. فقلت: اقرئه السلام، وقل له ليتفضل هو ان كانت له بي حاجة، أما أنا فليست لي به حاجة. فذهب اليه وبلغه، فجاء ومن معه؛ وبالطبع قمت لهم، وبعد أن تصافحنا جلس وقال:

ما هذه الحالة بالحجاز؟ كلما ارادت الدولة ان تقوم بمشروع اصلاح أوجد لها سيادة الامير انواع المعاذير؟ مثال ذلك الخط الحديدي وعدم الامان في الطرق؟ والآن ستنشأ بالمدينة المنورة كلية اسلامية عُهد الي برآستها. وقد علمت أن الشريف يعارض ايضاً في هذا المشروع، وان هذه المعارضات مستوجبة كدر الخليفة الاعظم. فان كان هناك اي سبب معقول، فانا على استعداد لازالة اي خلاف بين والدك والدولة. وما وقع اخيراً في الحجاز، من صد الوالي النبيه والقائد المحنك وهيب بك عن القيام باصلاحاته المرسومة، امر استوجب استياء اهل الاخلاص.

وسكت، فقلت له: اتممت ما تريد أن تقوله؟ فقال: نعم.

وفي تلك اللحظة جاء مرافق الوزير، وقال: عذراً، انتظروا عشر دقائق، فان المشير فونساندرس باشا لا يزال عند انور باشا. فقلت: لا بأس. ثم توجهت الى الشيخ عبد العزيز شاويش، وقلت له:

اشكرك على عزمك في الوساطة، ان كان هنالك ما يوجبها. اما قولك ان سيادة الشريف يعتذر عند كل اصلاح يراد، فهو قول بني على الظن؛ واما عدم الامان فهل لي ان اسألك عن سبب قيام الادارة العرفية بدار الخلافة. وما قلت من عدم امان السابلة، وهو مجرد اخبار لا حقيقة لها، فهل يستطيع الاستاذ ان يذكر وقائع معدودة وحوادث حاصلة بعينها؟ واما الكلية، التي ذكر الشيخ انها على وشك الايجاد، وكيف يتسنى لامير

مكة ان يعارض فيها، فالبلاد بلاد السلطان ولا علم لي انا بما ذكرت، وليس لي ان اطلع على كل ما يكتب الى الشريف من الدولة؛ فربما وقع ذلك، وربما كانت قد اتت ببعض النصائح مبينة التحبيذ للكلية وموضحة للكيفية التي ينبغي بناء هذه الكلية عليها. أما أنت أيها الاستاذ، فليس لك هناك ـــ كما سمعت ـــ صفة علم، بل الشائع عنك انك كاتب صحفي، وفي الحجاز من العلماء الاعلام مَنْ لهم منتهى درجات الاحترام.

فبهت، وإذا بالياور يدعوني، فقلت السلام عليكم.

وقمت فدخلت على انور باشا، فأقبل يحييني، فلما جلست قال:

ما هذا؟ نحن نريد لو استطعنا ان نخلق من الشجر رجالا، لنضيفهم على اعدادنا، والحجاز يقتل فيه رجال الامن، كما وقع على مدير الجندرمة والدفتر دار؛ ولكن والحمد لله كما علمت قد انتهت الازمة. فنرجو منك السعي لدفع كل اثر سيِّئ في قلب والدك، من نحو الاعتماد عليه من الدولة، فانه في منتهى درجات الاعتماد والحرمة.

فقلت له:

ما هذا القول، وانا لم استطع الدخول عليك ـــ وانت تلقب بقهرمان الامة ـــ إلا بعد ان أُخذت الى اكثر من مكان واحد، وطُلبت مني بطاقات واوراق هوية؟ وهذا ليس بالدليل على رضا الرأي العام عنك، وانت المحبوب بالامس؟ ثم وجدت هنا في غرفة الانتظار، الشيخ عبد العزيز شاويش، الذي اخذ يهاجمني بما يقارب اقوال الوزير الآن، ويعرض وساطته في تسوية الامر بين الدولة والشريف، وهو عبد العزيز شاويش، والشريف يرث الصداقة بينه وبين السلاطين العظام من عهد ابي نمي والسلطان

سليم الى اليوم؟! فاذا كانت الامور انعكست الى هذا الحد، فلا سبيل الى ما تريد. واما ما وقع في الحجاز، فما الذي تظنه أن يقع من رجل كوهيب بك، يرسل الى بلاد مقدسة لها قديمها وحقها، فيريد الاعتداء على ذلك القديم وذلك الحق؟ لقد ارسلتم هذا الرجل ليقع ما حدث. وانا على علم من أنه رفض ولاية البصرة خوفاً من النقيب السيد طالب. فهو كما قال الشاعر

اسد علي وفي الحروب نعامة   ربداء تجفل من صفير الصافر

فبهت هو أيضاً، وقال:

حسبي الله ونعم الوكيل. ما لهذا الانسان الذي لا يعرف حده؟ ارجوك ان لا تؤاخذه في نفسك. واما ما رأيت من احتياط هنا فليس بأمري، ولكن ما حدث على الصدر الاعظم محمود شوكت باشا اوجب على المسؤولين عن الامن العام ان يتذرعوا بما وقع، فعذراً. واننا دائماً نحب ان نعمل بنصائح سيادة الشريف وإشارته. أما وهيب فأنا لم أطلب أن يكون والياً على الحجاز، ولكن لما انهينا عنه انا نريد تعيينه قائداً، قال وزير الداخلية ووالياً ايضاً للاقتصاد. هذه حقيقة الامر. وأنا أرجو الاجتماع بك في كل فرصة.

فقلت: قد يكون الاجتماع مفيداً جداً. ثم قمت مستأذناً وخرجت.

وفي اليوم التالي كنت بدار الصدر، في الساعة الحادية عشرة؛ واذا بطلعت باشا هناك ــ وهو وزير الداخلية، وهو الذي ولي الصدارة بعد ذلك أثناء الحرب العامة ــ وإذا بهما على غير ما رأيتهما بالأمس. رأيت عليهما أثر الغضب والنظر الشزر.. فتكلم طلعت وقال:

اسمع، انه لا يهمنا تغيير الولاة في كل شهر، ولكن الذي يهمنا هو إنشاء الخط الحديدي من المدينة الى مكة ومن جدة

الى مكة، ومن ينبع الى المدينة؛ فان قام والدك بمسؤولياته في هذا الباب، عملنا له كل ما يريد. وان رفض فلا وداد ولا بقاء. واليك شروط للشريف: ثلث دخل الخط يصرفه كما يشاء، وله الامارة مدى الحياة ومن بعده لأولاده. وستوضع تحت أمره القوة الكافية لتأمين التنفيذ، وستصغي الدولة الى مشاريعه في هذا الباب، وستضع تحت يده ربع مليون من الجنيهات ينفقها على العربان. سافر في أول باخرة بهذه الاقتراحات، ونحن ننتظر الجواب، فان رضي وبلغنا بالرضا، فسافر أنت الى المدينة المنورة، لتجد هناك شيخ الاسلام خيري افندي ينتظرك لتباشرا وضع أساس الخط، وان رفض فلا عتب.

فقلت: هل لي أن أجيب؟ فقال: هذا قرار الدولة.

فقلت:

سأبلغ، وسيرفض ويعتبر هذه الاقوال رشوة وحقارة؛ وهو لا تهمه الامارة ولا تهمه الدراهم، ولا عليه أن يتولى أبناؤه الامر من بعده أو غيرهم؛ ولكن بلغوه، بواسطتي أو واسطة غيري، أن يكتب اليكم برأيه في اقامة الخط .وما ينبغي لذلك، فسترون انه سيدلي لكم بخير النصائح.

فقال لي انه سيطلب لجنة للتحقيق وقال — وذكر لي اسم أحد الافرنج ولعله (نابليون) — إذا أردت اعاقة أمر فأجله الى اللجان.

وقاما، فقال لي الصدر: متى تسافر؟ فقلت: في أول باخرة. وكان السفر بعد ذلك بيوم، على الباخرة الرومانية « رجل كارول ».

العودة الى الحجاز لمقابلة الوالد

قلنا اننا سافرنا، حسب طلب وزير الداخلية، حاملين الشروط المغرية. ثم لما وصلت الى جدة، علمت ان جلالة الوالد بالطائف، فسافرت على التو. ومررت على مكة المكرمة، فطفت وسعيت وحللت الأحرام. وفي النهار الثاني سافرت الى الطائف انا ورفقائي، عن طريق كرى، فوصلنا بخير الى الطائف.

وبالطبع عرضت على جلالته الأمر بالتفصيل، فقال: هل يرشونني؟ صدق من قال ان المرء ينظر الى غيره بعين نفسه. وأبرق هذه البرقية بعينها:

« أو غلم عبدالله واصل او لدي حجاز خطي حقنده كي تنسيبات ومقررات عليه صدارتنا هيلرني تبليغ ايتدى ذات حضرت خلافتنا هينك ودولت علية عثمانية نك بوكيبي مقررات نافعة وخيريه سنى بو مقدس وطنده قودن فعله جيقارمق اهم وجائب صداقتدر دا عيلرينه هيج دوشونيله جك برسبب موجود دكلدر نعم شاهانه ايله متنعم بلاد مقدسة اسلامية عشائر وسكنه سنك مدار معيشت واشتغاللرينه دوقو نمياجق وجهله شمندفير خطنك نه صورتله يايلمه سى لازم كله جكي حقنده كي مطالعات ايله وايلك فرصتده عبد اللهى كوندرجكم ».

وترجمتها:

وصل ابني عبدالله ونقل اليّ التنسيبات والمقررات العلية من الصدر الاعظم، بخصوص تمديد الخط الحديدي الحجازي الى مكة المكرمة. ليس هنالك ما يستحق التفكير في ما يخصني، وأنا متنعم بنعم الخلافة. وانني سأبعث بابني المومى اليه وهو حامل ما يلوح لي عن امكان اتمام هذا الغرض السامي، بدون أن يمس مدار معيشة العشائر وسكان البلاد المقدسة الاسلامية، باول فرصة.

ثم خرج الى مرّان للنزهة والترويح عن النفس. ومرّان هذه الى ناحية المشرق من الطريق الشرقي بين مكة والمدينة في نصف المسافة، وبها حرة مران المعروفة، وبها نخلتا مران، اللتان جاء ذكرهما في الشعر العربي، وهي على حد سهل من جبل، جميلة المناخ عذبة الماء. ومن ثم أمر بغزو الدواسر ووجّهني على رأس الغزية. ولما عدت الى مكة المكرمة، وإذا بجلالته فيها، والبرقيات من الصدارة في طلبي تتالى.

الى الاستانة ومنها

فسافرت ومررت على مصر ومنها الى الاستانة، وكان فيها أخي فيصل الذي كان حين ذاك مبعوث جدة؛ فقابلني على الرصيف ولم يكن بالمرتاح من الوضعية بين الوالد والباب العالي، وقال: ان تأخرك أغضبه. فقلت: لا عليك.

وكان البوليس اقتحم الباخرة وفتشها، والقى القبض على عدة رجال من الأرمن، كانوا بها يعملون كبحارة من الوقادين في مراجل السفينة، وكان هؤلاء فدائية أرسلوا من حزب الحرية والائتلاف من مصر، للفتك بانور باشا وطلعت باشا وجمال باشا، وكانت لي اليد مع هذا الحزب في هذه المسألة.. وبالطبع امتعضت وقلقت ولكن وقع ما وقع.

وفي اليوم التالي ذهبت الى الصدر الأعظم وقلت: يقرئكم والدي السلام ويقول:

« انا خادم الخليفة ولست بمعارض فيما يرى جلالته عمله وإني مستعد للتنفيذ حالا. ولكن إذا كان إتمام بناء الخط وتأمين ولاء العشائر ومعاشهم هو ما يريده جلالته وتريده الحكومة، فلذلك وسائل لا تقتضي ربع المصرف الذي بينه لي عبدالله، وهي ـــ اي الوسائل ـــ اللازمة لايجاد المشاريع التي تأتي بعد التفكير مع لجنة اترأسها انا ـــ اي الشريف نفسه ـــ

ومن المناسب ان يكون فيها صاحب الدولة والسماحة شيخ الاسلام او اي وزير من الوزراء. وان كانت الرغبة منصرفة الى اقامة الانشاء تحت اي شرط يكون فينبغي توظيف فرقة عسكرية بكاملها على طريق السكة واشغال المياه والقرى بين المدينتين. ثم بعد ذلك تكون البداية في العمل ».

هذا ما أمرني أن أنقله اليكم.

فأجاب الصدر سعيد حليم باشا بقوله:

« ليس بعد هذا ما يقال، وساستدعيك لنجتمع مع طلعت باشا في هذين اليومين ».

وكان قبل وصولي بيوم، قتل ولي عهد النمسا وزوجته بسراجيفو، وتوترت الحالة السياسية بين روسيا والنمسا وجرت الى التعبئة العامة بين الدولتين، واضطر الامبراطور (وليهلم) الثاني ان يعود الى برلين من سياحته البحرية في البلطيق. ففي تلك الاثناء زرت الصدر لأتلقى الجواب، فقال انه مسافر الى لاهاي ليجتمع هناك بالمسيو (فنزيلوس) رئيس وزراء اليونان لحل بعض المسائل المعلقة بين الدولتين، وأمرني بان انتظر أوبته، فقلت: يسر الله لفخامتك كل عسير، ولكني لا اظنك قادراً على السفر واوربا في هذه الحالة. فقال: اتظن ان الشعوب الاوروبية تشهر الحرب من أجل رجل وامرأة، فتسفك الدماء وتخرب الديار؟ هذا ما لا يفعلونه. فاستأذنت وانصرفت، وفي اليوم التالي تبودلت الانذارات النهائية بين روسيا والنمسا، واشتعلت الحرب العظمى السابقة.

وزرته في الباب العالي فقال لي: صدق ظنك؛ تأخرت لسبب الحرب. فقلت له: اريد النتيجة عن ما جئت من الحجاز لأجله. فكلم وزير الداخلية بالهاتف عني، فأجابه انه ينتظرني. فلما حضرت وسألته عن المقتضى قال: وهل هذا وقت تفكير في انشاء خطوط حديدية؟ ومن

اين القضبان والساحبات ومواد البناء، والحرب قد اشهرت؟ ولكن نريدك ان تسافر حالا الى الحجاز لجلب المتطوعة، فانه من الممكن دخول الدولة الحرب مضطرة. وهذه سيارتي اذهب بها الى انور باشا لتتذاكر معه في هذا الشأن.

فذهبت الى انور باشا، فقلت له: يظهر ان الحرب قد تشمل الدولة العليّة، وان مشروع الخط الحديدي قد يؤخر الى ما بعد انتهاء الحرب هذه. قال: بالطبع، ولكن نريد متطوعة من العرب ليشتركوا في الجهاد. قلت اين والعدو من الجهتين؟ قال: الا تريد ان نسترد ما اضعناه في القفقاس؟ ثم الا تريد ان نسترد مصر؟ قلت: اريد دفع الأعداء الى ما وراء أدرنة والقفقاس شاقة حربها بعيدة عن حاجة الامداد لمن يقاتل فيها. ومصر كيف تستردها وهي لها صفة خاصة؟ قال: باخراج الانكليز منها. قلت: هذا هو التعبير الصحيح. فقال: كم يمكن ان يكون عدد المتطوعة من اهل الحجاز؟ قلت: والله لا أدري. فقال: قل بالقدر الذي يمكنكم ان تكسوه وتطعموه. فقلت: وهو كذلك، ولكن في الجبهات؟ قال: سنجعل القوة المنظمة في جبهة الروم ايلي وجبهة مصر، أما جبهة قفقاسيا فسنخصص لها علاوة على الجيش الذي بأرض روم كافة المتطوعين. قلت: متطوعة العرب يجب ان يقاتلوا في جبهة مصر، واما المنطقة الباردة فمهلكة لهم، ولا ادري من عدو للدولة في الروم ايلي ما دامت بلغاريا والنمسا والمانيا حلفاء الدولة. قال: الصرب ورومانيا. قلت: انا افهم من هذا انكم تريدون امداد حلفائكم بالقوات المنظمة. فاحمر وجهه جداً وقال: يجب ان تسافر في أول واسطة من اجل التطوع والسعي لايجاد مَنْ يقوم بهذه الخدمة المقدسة. فخرجت من عنده والطبول تدق والمنادي ينادي بالتعبئة العامة وانه يجب على كل انسان ان يذهب الى دائرة أخذ العسكر فيقيد نفسه وسنة ولادته وصنفه.

ولما رجعت الى الباب العالي ودخلت على الصدر واخبرته بما

سمعت، اندهش وقال: هل قالوا سيتأخر امر الشمندفير؟ فقلت: نعم، ويطلبون سفري من اجل المتطوعة. فقال: (جوق شي) يعني أمر غريب!.. قلت: انا مسافر. فقال: على بركة الله، وقبل أيادي الشريف وقل له قد تأخر ما كان فيه تعبه.

وخرجت عائداً، واذا بنبأ الاعتداء على الخديوي عباس وهو خارج من الباب العالي يبلغني، فذهبت الى قصره بـ « جيبقلي » فرأيته بعد أن أسعف. وفي اليوم الثالث زرته فكتب على لوح من الحجر بقلم حجر ــ كالذي يتعلم فيه الصبيان ــ كتب يقول: ماذا تظن في هذا الاعتداء ومن يكون المشوق؟ فقلت: صاحب السمو أعلم باهل مصر والمعتدي مصري. فكتب الا تظن انه شوق من هنا؟ فقلت: اتظن ان هذا من ابن عمك الصدر الأعظم؟ فكتب: انا اسألك. فقلت: لا انفي و لا اثبت اذ ما فائدته من هذا وولي عهد مصر موجود؟ فسكت فقلت له: متى تسافر سموك الى مصر؟ فقال: بعد يومين أو ثلاثة. فقلت: بل سافر اليوم. فقال لماذا؟ قلت: سيشهر هؤلاء الحرب على انكلترا وروسيا، وفي بقائك هنا ما يشوش الانكليز من ناحيتك، ووجودك في بلدك الآن من مصلحتك ومصلحة مصر. فقال: الطبيب لا يرضى. فقلت: باخرتك فيها كل اسباب الراحة. انا لا انصح الا بلزوم مغادرتك اسطنبول في هذه الليلة. فامتلأت عيناه بالدموع وقال: كل شيء سيسير الى ما قدر الله. قلت: نعم. وكانت اجوبته بالكتابة، وكانت الاصابة في فمه ولسانه، وكان قد منع عن الكلام، فودعته وخرجت وسافرت في اليوم التالي على الباخرة الخديوية (اسماعيلية) ومعي المرحوم الأخ فيصل والشيخ حسن الشيبي ورفاقنا الآخرون.

فلما وصلنا الى الدردنيل أشارت المدمرات التركية الى باخرتنا بالوقوف، ثم اشارت اليها ان تدير مقدمة السفينة الى ناحية اسطنبول منتظرة الأمر. وبعد قدر ربع ساعة أشارت بالحركة وبلزوم اتباعها،

فكانت سفينتنا تتبعها من بين حقول الالغام، حتى اخرجتنا الى عرض البحر من وراء الدردنيل، فوصلنا ازمير في الصباح الثاني؛ وجاء القنصل البريطاني فبلغ القبطان بان يبقى بازمير حتى يصدر اليه الأمر بالحركة. وجاء بعد مضي اكثر النهار وقال توجهوا، فاتجهت السفينة الى (بيريه) ـــ وكانت مملوءة بكثير من اهل مصر، منهم من حضر للمصيف ومنهم من حضر بسبب جرح الخديوي ـــ فوصلنا (بيريه) قبل ظهر اليوم الثاني، وحجزت الباخرة هناك بسبب وجود الباخرة الالمانية الحربية (غوبان) بالبحر الابيض ومعها الطراد (بريسلاو). وانذرتنا الشركة الخديوية بانه يجب علينا ترك الباخرة لان الوقت الذي كان مأمولا فيه الوصول الى الاسكندرية قد مضى. وبعد المذاكرة مع الركاب المصريين استأجرنا جميعاً سفينة يونانية انتقلنا اليها، وعندما تحركت بنا واذا بالباخرة (اسماعيلية) تسافر وقد سبقتنا الى الاسكندرية.

فلما وصلنا الاسكندرية وسافرنا الى مصر ـــ وكان موعد الباخرة من السويس الى جدة بعد مضي اربعة ايام ـــ نزلنا كالعادة بقصر عابدين، فزارني قبل كل أحد حسين رشد باشا رئيس الوزراء، فسألني عن الخديوي وموعد قدومه وعن صحته، فقلت: هو بخير ولكنه متأخر حتى يبرأ الجرح على ما قال لي، وقد نصحتُ له بان يسافر حالا، فرأيته قد آثر البقاء على السفر العاجل، وهذا ليس في مصلحته، فلو استعجلتموه لكان من خيركم وخير مصر، قال: فعلت ذلك ولم اتلق اي جواب، وقد أدهشني ما بلغني من الخاصة الخديوية ان الجَناب العالي قد طلب ببرقية خفية المجوهرات الخاصة والأواني الذهبية والكثير من الصناديق الحديدية المرقمة بارقامه؛ وهذا لا يدل على نية القدوم، جعل الله العاقبة خير. ثم ودع، ولما وصل الى الباب انحرف راجعاً وقال: هل تأذن في ان أبرق اليه بان الشريف عبدالله وصل بخير شاكراً الجناب العالي راجياً منه العودة السريعة؟..

وقد علمت بعد ذلك من سموه، عندما زارني في عمان، ان السفير البريطاني زاره بـ « الجيبقلي » باسطنبول وهو جريح، وبلّغه أن الحكومة البريطانية تشير اليه بالسفر حالا الى روما وأن لا يرجع الى مصر. قال قلت له أسافر الى لندن. قال فأجابني السفير بأن خير ما يعمل تنفيذ ما طلب. قال سموه: قلت لا شأن لي بإيطاليا، فإذا كان الرجوع الى وطني غير متيسر، فأنا حيث أنا. قال فقال له السفير: هذا شأن سموك ولكن أنصحك شخصياً أن تعمل بما أشير اليك. وانصرف.

فقلت لسموه: لو أخبرتموني بتلك الممانعة لكان في إمكاني أن أتحمل مسؤولية إصلاح ذات البين حال وصولكم الى روما، فانهم كانوا يظنون أنكم تميلون الى ناحية الترك والألمان، وروما بلد محايد إن لم يكن حليف المانيا. فلو سافرتم الى روما لراقبوكم حتى يطمئنوا من عدم دخول تركيا الحرب ضدهم، أو في حالة دخولها ينتظرون الى أن تنكسر شوكة تركيا، ثم يدعونكم الى ملككم بعد أن تحبطوا بحكمتكم وساوس وزير الحربية لورد كيتشنر خصمكم القديم. فقال رحمه الله: هذا قدر الله، ولست بآسف؛ لقد مللت الحكم خمسة وعشرين عاما؛ وهذا عمي يقاسي ما كنت قاسيته؛ ومن كان في ذلك المحل فمن المستحيل عليه ارضاء الوطن وانهاء الاحتلال، لتفوق أولئك ولعدم القدرة على تغيير الحال بالقوة؛ وليس لي ما آسف له إلا البعد عن ديار الاسلام والنظر الى المآذن والاستماع الى ذكر الله، ثم أخشى أن لا يدركني الأجل هناك فأدفن بالغربة. ولكن قد تيسر الآن لي أن أزور تركيا وهذه الأقطار في لمحات من الزمن. ولو عرف عمي العزيز نياتي لما تخوفني، فانني قد جفلت من الماضي المخيف المؤذي الذي لا أريد أن يعود عليّ. وكان قوله بصدق واخلاص رحمه الله، فقد مات ودفن في أوربا.

من الشريف الحسين بن علي
الى السلطان محمد رشاد

عدت الى الحجاز واوقفتُ الوالد على حقائق الأمور، فكتب رسالة الى جلالة السلطان محمد رشاد وبعث بها الى (المابين همايون) أي (البلاط الملكي) ذكر فيها حالة أوربا، وصور الاتفاق المثنى (روسيا وفرنسا) والمعاهدة الثلاثية (المانيا والنمسا وايطاليا) والتفاهم الثلاثي بعد دخول انكلترا الحرب الى جانب الفرنسيس والروس بسبب اجتياح الألمان بلجيكا المضمونة أراضيها من جانب انكلترا كاحدى الدول الضامنة لاستقلال هذه المملكة. وقال في رسالته :

تعلمون جلالتكم ان الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه، وان الدولة الآن في حاجة الى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم الى الآن، وإنه في الدخول الى جانب المانيا الخطر العظيم، حيث أسلحة الدولة كلها من المانيا وكذلك عتاد هذه الاسلحة، وإن المعامل بالطوبخانة العثمانية لا تكفي امداد الجيوش بالعتاد اللازم، ولا تستطيع إمداد الجيوش بما يمكن أن تخسره من مدافع وأنواع الاسلحة الاخرى. عدا هذا فالاقطار المترامية الى الجنوب من جسم الدولة، كالبصرة واليمن والحجاز، هذه البلاد المحاطة من كل ناحية بقوات مستعدة

من الدول المعادية البحرية ستصبح في أحرج المواقف؛ وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حمية أهلها وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوربا المنظمة. وإنني أستحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب، وأن تعلموا بأنني أعتقد في كل من يرى الحرب الى جانب الالمان عدم التمييز او الخيانة الكبرى.

وقد وصل هذا الكتاب قبل اعلان الحرب. وفي شهر رمضان زار الوالي وهيب بك الأمير بالطائف، وقال له: أمِرت ببرقيات، وردت الي من وزارة الداخلية ووزارة الحربية، بان أستطلع رأيكم السامي في اشهار الحرب على روسيا وانكلترا. فقال: أنا لا أرى أن أجيب على هذا السؤال الشفوي بشيء، وانني أنتظر هذا السؤال أن يرد الي برقياً فيسجل ويسجل جوابه؛ ولكني أقول لك كجندي شريف اني لست بالخائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التي لا ناقة لها فيها ولا جمل. ونحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية، وأنتم ستشغلكم جيوش روسيا وجيوش الانكليز بمصر، مع انكم غير متصلين بحليفتكم المانيا من البر، وصربيا معادية ورومانيا معادية. فقال بعد أن مس لحيته بيده ــ وكان ملتحياً ــ هي ورقة زرقاء نريد أن نقذف بها على ميز الميسر فقال: عجيب أبالأمة تقامرون؟!.. ثم خرج.

وبعد أربع وعشرين ساعة وردت برقية من الصدر الأعظم وبرقية من وزير الحربية انور، بالسؤال عينه. فاجابهم رحمه الله بانه قد قدم رأيه ونصيحته الى جلالة السلطان بعريضة خاصة مفصلة، وهو الآن ينصحهم بعدم دخول الحرب ضد روسيا وفرنسا وانكلترا؛ ويقول ان هذا العمل هو خرق عظيم وخيانة للامانة، وان البلاد بأجمعها لا ترضى عن حرب ضد هذه الدول؛ وانهم ان كانوا عزموا على هذا، فقبل نشوب الحرب يجب عليهم أن يزودوا الجيش الخامس باليمن بما يكفيه

لثلاث سنوات وباحتياطي لما يطلب من مجاهدين، وكذلك العمل للفرقة العسكرية بعسير وكذلك بالحجاز. وانه يجب الاسراع في هذه المدة بخزن المؤن في هذه الولايات لمدة لا تقل عن الخمس سنوات، وان لم يفعلوا هذا فهم سيضعون هذه البلاد في أحرج مركز قد يفضي بهم الى ما لا تحمد عقباه.

فجاءت برقيات جوابية بأن الدولة قد فكرت في كل شيء، وانها تشكر سيادته السامية على نصائحه.

ثم توجه في أواخر ذي القعدة الى مكة، وفي أول أيام التشريق وردت البرقيات بأن روسيا قد اعتدت على الحدود العثمانية في الأناضول، وان الأسطول العثماني قد ضرب السواحل الروسية، وان الحرب قد أشهرت ضد روسيا وحلفائها. وفي الحقيقة ان الاعتداء وقع من الجانب التركي بحراً، وكان يقود الأسطول العثماني الأميرال سوخون الألماني في البارجتين (كوبان) و(بريسلاو) اللتين التحقتا بتركيا هدية لها من المانيا كي تدخل الحرب. وكان لا علم للسلطان ولا للصدر الأعظم ولا لأي شخص من الوزارة بذلك، سوى طلعت وانور، وحتى جمال السفاح كان يميل الى جانب فرنسا. وقد استقال يومئذ أربعة من الوزارة، منهم الفريق محمود باشا جوروك صولي وزير النافعة وثلاثة آخرون، كما استقال الصدر الأعظم سعيد حليم ولكن استقالته لم تقبل.

هذه حقائق ما حدث حين ذاك. فدخلت الدولة في الحرب التي خرجت منها وهي محطمة. وتبع ذلك برقية من الشريف يلح فيها على ارسال النقود الكافية لليمن وعسير وللحجاز، فلم ينل أي رد.

ولم يحصل بعد ذلك من حكومة الاتحاد والترقي أي اهتمام بالولايات العربية، بل كان جل همهم حبس قسم من الجيوش الانكليزية بمصر،

والقسم الآخر بالعراق، لئلا تتفرغ هذه الجيوش الى الحرب في الميدان الغربي، الذي هو أساس تدور فيه رحى الحرب، والمنتصر فيه هو الغالب.

ومضى الشتاء والأتراك في استعداد لحملة مصر، وقد ساقوا جيوشاً جمة الى جبهة القوقاز، وأخلوا العراق من الجيوش النظامية، واعتمدوا هناك على عساكر الرديف. ولما نزلت الحملة الانكليزية الى البصرة لم تجد من يناوئها فسقطت البصرة. وأخذ الجيش الانكليزي يتقدم نحو القرنة، والعرب في حيرة وقد شعروا بأن الجيش النظامي من أبناء العراق قد أخذ للدفاع عن الولايات التركية، وكانوا يرون ان لو بقوا في وطنهم للدفاع عنه. وجاء الصيف وطلع الأمير الى الطائف كعادته، ونزلت الجيوش الانكليزية تتلو الجيوش بالعراق. وكانت الحملة المصرية بقيادة احمد جمال باشا، فخُذل وقُهر الجيش العثماني كما هو معلوم.

مراسلات مكماهون

وفي تلك الأثناء، واذا برجل يسمى علي افندي البزار ــ مصري الأصل ــ جاء الى الطائف وأحب أن يقابلني فقابلته، واذا به يحمل كتاباً من مستر ستورس الكاتب الشرقي في دار القنصل العام البريطاني بمصر ــ وقد جرى ذكره قبلاً في هذه المذكرات ــ يقول فيه:

الى الشريف عبدالله بك:

بما ان الدولة العثمانية قد ضربت بصداقتها التقليدية مع بريطانيا العظمى عرض الحائط وانضمت الى صفوف اعداء بريطانيا الالمان، فان بريطانيا ترى نفسها في حل من تلك التقاليد التي كانت تربطها بتركيا من القديم. فهل انكم وسمو والدكم المعظم على رأيكم الاول في القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالا تاماً؟ فان كنتم وسموه على ذلك الرأي الى الآن، فان بريطانيا العظمى على استعداد لامداد الحركة العربية بكل ما هي بحاجة اليه.

وبالطبع لم أبتهج بهذه الرسالة، للخطر المحقق الذي كانت تجر اليه، لو عرف عنها أو سقطت في يد غير أمينة أو تفوه هو بشيء أو باع نفسه. وبالطبع أجبته بأنك رجل مخاطر بذاتك وقد ارتكبت

الشطط فيما فعلت، ولولا الأمانة بأنك رسول لما ابتهجت مني في قدمتك هذه بشيء. وأخذت الرسالة الى الوالد وعرضتها عليه، فابتسم وقال: اكتب اليهم بوصول الرسالة وقل « بأنا على غير استعداد البتة في الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب » واصرفه أميناً مكرماً. ففعلت وذهب.

وبعد شهر، أي على مسافة وصول الباخرة وقدوم أختها بعد الثانية، عاد برسالة أخرى من السر رولاند ستورس الي، وبها كتاب من السر هنري مكماهون الى سمو الشريف. أما كتاب ستورس الي، فيرجوني فيه أن أقدم الرسالة الى الشريف. وبالفعل قدمت، وبها صيغ من التعرف والاكرام وبيان حسن نية بريطانيا نحو العرب، وانها — أي بريطانيا — قد انفكت من تقاليدها الودية مع تركيا.. الى آخر ما قاله. فأجاب، بواسطتي، الى ستورس فقط، بأن قال: الصيف ضيعت اللبن.

ثم تتابعت مراسلات مكماهون المعروفة. وخلاصتها أن بريطانيا العظمى ستساعد العرب في حربهم التحريرية، بكل ما سيحتاجون اليه، حتى يتم جلاء الأتراك والألمان عن البلاد العربية، التي حددها المرحوم، وفق ما جاء من الهيئة المركزية لحزب العربية الفتاة في سوريا من حدود وهي: من اسكندرونة جنوباً الى الحدود المصرية برفح ثم التيه، فالبحر الأحمر غرباً حتى باب المندب، ثم يشرق ماراً بمسقط وعمان وينحرف الى الشمال محترفاً حدود البحرين والكويت، ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران، ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد، ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهي عند الاسكندرونة.

وقد قال مكماهون في احدى رسائله عن حكومته، أنها ستثابر على الحرب والمساعدة حتى يتم تحرير هذه الأقطار. وان انكلترا لا تستثني أي منطقة عربية لها فيها نفوذ، ما عدا الامارات الواقعة على خليج

فارس والبحر الهندي، تلك البلدان التي لها صلات عهد بحكومة الهند من القديم، وهي امارة الأمير عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل آل سعود وامارة الكويت وامارة البحرين وسلطنة مسقط وعمان ومشيخات حضرموت وسلطنة لحج. ثم انها لا تقول بمحض عروبة أضنه ومرسين وغرب ولاية الشام ــ وقد عنت بذلك لبنان الصغير بالطبع ــ وقال: ان لحليفتنا فرنسا فيها حقوقاً.

ثم سأل في أحدى كتبه عن الكيفية التي ستدار بها البلاد المقدسة ــ يعني فلسطين ــ متى صارت في الحوزة العربية، فأجيب بأن النية منصرفة والعزم على ادارتها على حرية الديانات الثلاث. فجاء الرد بالشكر على ذلك، وان بريطانيا العظمى ترحب بالخلافة الاسلامية إن هي عادت الى الدوحة الهاشمية مرة أخرى.

بوادر الثورة

وبعد ذلك كانت تجري المخابرات مع الاحزاب العربية بالشام، بواسطة المرحوم الاخ فيصل؛ وتُرِك تعيين زمن الثورة الى العرب. فجاء الصيف وتحرك الركاب الاميري الى الطائف، وقد حضر الامير فيصل من الشام والامير علي من المدينة، وانتهى كل شيء كما يجب عمله بالطائف، وتقرر زمن الثورة بعد مضي الصيف والشتاء. وعاد الامير فيصل الى الشام والامير علي الى المدينة. وفي هذه المدة استعدت الافكار العربية للحركة، بسبب انقطاع موارد البحر والغلاء وعدم الرخاء، وان ليس للعرب في متابعة هذه الحرب إلا نتيجة واحدة، وهي انهم سيبقون تحت ربقة الحكم ان ظفر الترك والالمان أو انتصر الفرنسيس والبريطان. وكان لا بد من اعلان الحركة العربية والتخلص بالحرب من عواقب الاستكانة لتحكم الغير.

ولم تجب اسطنبول مطالب والي اليمن ومتصرف عسير مما طلباه من نقود. وكذلك فعلت بالحجاز. ثم تغلغلت الجيوش الانكليزية في العراق، وتجاوزت حدود ولاية البصرة في طريقها الى بغداد. ثم هُزِم احمد جمال باشا بالترعة المصرية.

على انه قبل ان يتم اي عمل او قرار مع الانكليز، كان قد طلب المرحوم ــ بواسطة الأمير فيصل الى أحمد جمال باشا ــ ان لا

تكون البلاد العربية مضغوطاً عليها، وانه لا بأس من بر الدولة بوعدها للسوريين في منحهم الادارة اللامركزية التي طلبوها. وقد صادف هذا الطلب اشمئزازاً من أحمد جمال باشا، وألح في ارسال المجاهدين من الحجاز. ثم بعد ذلك، وفي اثناء وجود الأمير فيصل بالشام، زار أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام سوريا وفلسطين، وزار المدينة المنورة. وقد أهدى الأخ المرحوم الملك فيصل ـــ باسم والده ـــ لكل واحد منهما سيفاً مرصعاً، وقد كتب على كل سيف منهما اسم المهدي والمهدى اليه، فتقبلا الهدية بسرور وعادا الى الشام.

ثم أقبل الصيف، وجاء الطلب مرة اخرى بارسال المجاهدين، وجاء الطلب بإعلان الجهاد المقدس في أقطار الاسلام من مكة باسم الخليفة على روسيا وانكلترا وفرنسا؛ فأجاب الأمير بأنه:

> لاجل اعلان الجهاد وارسال المجاهدين ينبغي إرضاء العرب بما تتوق اليه نفوسهم من الوصول الى حقوقهم، وان أول ذلك اعلان العفو العام عن المجرمين السياسيين ومنح سوريا إدارة لا مركزية وكذلك العراق، واعتبار الشرافة بمكة معترفاً لها بحقها الموروث والمتفق عليه من عهد السلطان سليم وأن تكون وراثية فمقابل هذا تقوم الأمة العربية بواجبها عن اخلاص؛ وأنه سيبعث بالمجاهدين الى الامير فيصل بالشام، وأنه سيبعث احد بنيه إلى الجبهة الاخرى بالعراق، بعد أن يقضي على اي زعامة غير موالية بشرقي الحجاز، وإن على الدولة التأثير على ابن رشيد بأن ينضم الى الجهاد، وانه بدون هذا لا يستطيع التقدم بالامة العربية في حرب نصح بان لا تثار وان لا تشهر؛ وانه سيكتفي بوظيفة الدعاء للدولة بالنصر والظفر.

ولقد جاء الرد على هذه البرقية من الصدر الأعظم سعيد حليم

ومن وكيل القائد العام أنور باشا، وهذا نص ترجمتها:

إن التحدث في مثل ما بينتموه عن الحرب والعرب ليس من حقوقكم، وإن من بالشام من المجرمين سينالون الجزاء العادل، وإن ما بينتموه لا تكون نتيجته بحقكم مسرة؛ وعليه فسوف لا ترون نجلكم فيصل بك مرة أُخرى قبل ان تبعثوا بالمجاهدين الى الجبهة كما وعدتم وإن لم تنفذوا هذا فكما قلنا فالنتيجة بحقكم لا تكون خيرية.

وقد أتيت بهذه البرقية للوالد، بعد أن حللت رموزها، وهو في الخارجة بمكة ليلا وأنا بيدي حامل الشمعة فقدمتها اليه، قال اقرأها، قلت لا أقرأها، فتناولها ووضع المنظرة على عينيه، وبعد أن تلاها نظر الي وقال: أيهددني؟! ثم قال:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

ثم قال: اكتب الجواب للصدارة ووكالة القيادة العامة:

ليس لي ما اقوله سوى النصيحة الاخيرة في برقيتي وبها ضمان انحياز العرب الى صفوفكم بقلوبهم. اما ابني فيصل فلم ابعثه اليكم وانا اعتقد اني اراه مرة اخرى فافعلوا ما شئتم.

وبعد يومين وردت البرقية التي هذا نصها من الصدر الأعظم:

بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على اجوبتكم، فاذا بعثتم بالمجاهدين الى الشام فقد اشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم السامي الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين.

فأجابه:

إنني ممتن على تلطفكم بالجواب. اما المجاهدون فأصروا على عدم السفر إلا اذا حضر فيصل ليأخذهم، فان كانت الرغبة حقيقية فابعثوا به ليستصحبهم.

فجاء الرد على الفور:

سيتوجه الشريف فيصل بك الى المدينة ليستصحب المجاهدين ويعود بهم الى الشام، وانا لنرجو أن تسترجعوا نجلكم السامي الشريف علي بك من المدينة المنورة الى مكة المكرمة لعدم امتزاجه مع المحافظ.

فأجاب على الفور بأنه:

عند وصول الشريف فيصل بك سيترك الشريف علي بك المدينة المنورة.

ولما وصل الأخ فيصل الى المدينة، وكان فخر الدين باشا قائد القوى السفرية قد حضر اليها بقواته، وكانت القوى العربية مهيأة بالمدينة، تقرر استدعاء الشريف علي بك الى مكة، فودع فخر الدين باشا والمحافظ وخرج الى بئر الماشي — وهي على طريق مكة — وخرج معه أخوه فيصل لوداعه. ولما وصل الى بئر الماشي، كتب الى جمال باشا — وكان ذلك اليوم الثامن من شعبان —:

ان المطالب العربية المعتدلة قد رفضت من جانب الدولة العثمانية؛ وبما ان الجند الذي تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه ان يضحي لغير مسألة العرب والاسلام، فاذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالا فلا لزوم لبيان قطع اي علاقة بين الامة العربية والامة التركية، وانه بعد وصول هذا الكتاب باربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الامتين.

وبعد مضي ساعات كان الخط الحديدي بين الشام والمدينة يشلّع ويهاجم.

الثورة

وفي اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦، أُعلنت الثورة العربية في مكة والطائف وجدة وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز، وصدر البيان بذلك من لدن صاحب السيادة العظمى الشريف الحسين بن علي.

ابتدأت الأمة العربية تتحمل مسؤولياتها بنفسها وتسعى لانقاذ حريتها واستقلالها بسلاحها وجهاد بنيها. وكانت في ذلك الوقت قادرة على ذلك، فان بلاد الشام باجمعها وكذلك البلاد العراقية كانت مهذبة التهذيب الكافي عسكرياً وادارياً وعدلياً. وان رجالات العرب كانوا في ذلك الحين يمارسون المناصب والمأموريات على اختلاف انواعها ودرجاتها كالترك انفسهم، ما عدا الوزارة فان الاغلبية كانت تركية دائماً. وكان الجيش العثماني الخامس في مركزه بدمشق، وكان الجيش الرابع في مركزه ببغداد وقوامه العرب. فالعرب سلكوا هذا المسلك في هذين البلدين وقبلوا التوظف لا التطوع فيهما.

اما من حيث الثقافة فمن الممكن ان يقال ان الانكشاف في التعليم بسوريا ولبنان ربما كان يفوق اي درجة في تركيا العثمانية نفسها، وسببه ان المدارس العثمانية في بلاد الترك كانت ملكية وعسكرية لاخراج

موظفين، وكذلك مدرسة الحقوق والمدرسة الطبية، وفي الولايات لها فروع في درجة السلطاني؛ ولكن العرب كانوا يحصلون العلوم في مدارس اجنبية بسوريا ولبنان، وربما رحل بعضهم الى اوروبا او الى امريكا؛ لذا فنسبة التعليم في العرب بمدنهم وقراهم قد يكون بنسبة عشرة بالمائة زيادة على التحصيل التركي في مدن الأناضول وقراه، ومدن الروم ايلي وقراه ايضاً. هذه ملحوظة احببنا اثباتها الآن كي نرى الفرق بين ذلك الزمان واليوم. ولا مرية في انه كان حين ذاك تعادل اوجب ذلك التفاوت. فان التحصيل الرسمي على الطراز العثماني ــ اذا اضيف اليه التحصيل الذاتي في ما ذكرنا من جهات ــ ضمن للعرب حين ذاك أفضلية الحال بالنسبة للوقت الحاضر الذي ليس فيه من التعليم الا ما يروق سياسة الاستعمار. ومن هذا القبيل فقد ادخلت تعديلات جمة على مدارس التبشير الاميركية ومدارس الجزويت والمدارس العلمانية، فاصبح كل من درس وطلب العلم على هذا الشكل لا يدري عن تاريخه وقوميته اي شيء.

وان هذا لمن أهم ما يجب تمحيصه والنظر في عواقبه، ولا سيما وان الدول الاستعمارية تضع الشروط لنجاة البلاد من رباط الاستعمار، بان تعقد هذه البلاد معها معاهدات ثقافية واقتصادية، والثقافة والاقتصاد هما كل شيء، بهما تبقى القومية مستقلة او تنسخ في عوائدها ومعتقداتها والعياذ بالله. ومن هذا القبيل ما يقال الآن من ان عهداً سيعقد بين فرنسا وروسيا على هذا الأساس، حفظنا الله من عواقب الحرص وتفضيل مصلحة الذات على الواجب نحو الأمة في عقائدها ووطنها وكرامتها.

اما الحركات في الحجاز، فقد استولى العرب على الحاميات التركية بمكة المكرمة في اول يوم، وبقي الجيش العثماني محصوراً في ثكنة جرول وقلعة جياد، وكان مَنْ بهذه القلعة من الجنود العثمانيين يضربون مكة بمدافعهم. وقد أصابت قنبلة البيت الشريف من فوق الحجر الأسود

واشعلت النار في الستار المبارك وقد أطفئت في الحال. واصابت قنبلة أخرى احد عقود الأروقة، ومن غريب التصادف انها وقعت على اسم عثمان بن عفان فأزالته، وكانت هذه الاصابة من الأدلة على زوال دولة آل عثمان. وقد سقطت جدة في اليوم الثالث من الثورة، وقد سقطت قلعة جرول في اليوم التاسع وأُسر فيها الف ومائتا جندي وضابط. واما قلعة اجياد فقد هوجمت واخذت عنوة بعد جرأة قائدها اليوزباشي كامل افندي وضربه البيت الحرام. وفي جدة كان الأسطول البريطاني يساعد من البحر على ضرب الثكنات العسكرية بضربات تخويفية. وأما الطائف ففيه كانت الفرقة العثمانية النظامية التي يقودها الوالي والكومندان الفريق غالب باشا، وكان يقود القوات العربية المحاصِرة صاحبُ هذه المذكرات.

اننا نحب ان نتبسط هنا بعض الشيء. فانه لما تقرر ان يكون اليوم التاسع من شعبان هو يوم النهضة، فقد أُمرت بالسفر الى الطائف كي اقوم بأهم واجب في تلك الحركة وهو حصر فرقة عسكرية اقرب ما تكون من القوات العثمانية الى مكة المكرمة مركز الحركة ومقر الشرافة وعاصمة الاسلام. فوصلت الى الطائف في اول شعبان وليس معي سوى سبعين هجاناً، اذ أُرسلت كل القوات الهاشمية الى المدينة المنورة مع الأميرين علي وفيصل.

وقد قابلني الوالي مقابلة معتادة واخبرته انني سأخرج لتأديب قبيلة البقوم، وان الشريف لم يتعين بعد وقت طلوعه الى الطائف حسب المعتاد. وكان الأمير على الطائف يوم ذاك شرف بن راجح بن فواز ابن ناصر، يساعده الشريف حسين الجودي أحد شرفاء ذوي جود الله. وكنت أستند في حركة حصر الفرقة وأخذها، على العشائر المحلية: عتيبة بني سعد — منهم حليمة السعدية ظئر الرسول ﷺ — والرئيس على هذه القبيلة وعلى من ينتسب اليهم من الثبتة الشيخ تركي بن

هليل، وعلى الفخيذة الثانية من هذه العشيرة ــ عشيرة البطنين ــ ثم على هذيل الشفي أي السرات، ثم على ثقيف آل ساعد وآل منصور، ثم على عشيرة النمور، ثم على عشائر الروقة أهل الحرة، ثم مَنْ بقي ممن لم يلتحق بالقوات الهاشمية بالمدينة من عشيرة عتيبة من الكثمة والجوازي من الثبتة والعصرمة أهل ركبة والنفعة منهم أيضاً، ثم عشيرة وقدان وثمالة، ثم عشيرة البقوم وعشيرة ابن الحارث، وسبيع أهل الخرما وسبيع أهل رنية وأشرافهم.

وفي الاجتماع الذي وقع قبل الثورة بليال، وقد حضره كبار الأشراف والشيوخ بعد تمهيد قام به الشريف شرف، لم يتبعني سوى الشريف حمزة الفعر وآخر وهو شيخ آل بطنين من آل سعد، فانهما أظهرا أشد النفور والخوف من نتائج هذه الحركة. ولقد كدت أن آمر بالقبض عليهما لولا خشية شيوع ما ينبغي كتمانه.

وكان الوالي يسكن بقرواء خارج سور الطائف، وكان يشتكي من مرض الكلية، فزرته مرتين. وكان قائد الفرقة الميرالآي أحمد بك يزورني الليلة بعد الليلة. وكان أشد الرجال العسكريين البكباشي سليمان بك، فهو كثير الاختلاط بالناس وقديم بالحجاز، ولقد شعر بشيء مما سيقع. وقد قيل لي أن أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك هذا يقولان: نكاد نأخذ أسلحتنا بأيدينا حتى نرى الشريف عبدالله، فاذا رأيناه ذهب عنا كل شك.

وفي اليوم الثامن من شعبان، وقد أزمعت الخروج فيه بدعوى غزوة البقوم، استدعاني الوالي، وكان لدى الشريف شرف بن راجح والشيخ عبدالله سراج مفتي مكة المكرمة، فقالا: لا تذهب فإنا نخشى عليك أن يلقى عليك القبض فقلت: بلى سأذهب، ففي عدم الذهاب ما يخشى عقباه، ووعد الثورة لم يحن بعد. فركبت اليه ومعي أربعة: الشيخ

فاجر بن شليويح أحد فرسان الروقة، والشيخ هوصان بن عصاي وهو أيضاً من شيوخ تلك العشيرة وأحد الرجال الذين أثق بهم، وأحد خواصي وهو هوصان بن عفار المقاطي، وفرج حامل المظلة الملكية. وتوجهت الى دار الوالي بقرواء وتعمدت الدخول من الثكنة بالطائف مما أدهش الترك والعرب معاً، حيث قالوا: لو كانت الشوائع حقيقة لما مر بنا على هذا الشكل.

ولما اقبلت على دار الوالي، قلت لفرج: ابق عند الخيل، وقلت لهوصان بن عفار: كن على رأس الدرج، وقلت للشيخين فاجر وهوصان: قوما على باب الغرفة التي انا بداخلها، فان اراد الأتراك ان يلقوا القبض علينا، فعلي انا القضاء على الوالي في الغرفة وعليكم انتم القضاء على من يأتيكم من الدرج حتى نخرج. فقالا: اتكل على الله. فدخلت وجلست، وبعد ان رحب بي قال: الى اين تذهب؟ قلت: كما تعلم أُمرت بان أؤدب البقوم. فقال: ليس هذا بالوقت المناسب، فلو أخرتَ خروجك الى حين لكان ذلك أنسب؛ وفي البلاد شائعات لا بد انها لم تخف عليك، ان الناس يقولون ان ثورة ستقع، وهذا انت ترى أهل الطائف يرحلون بأمتعتهم واطفالهم. فقلت: وماذا عليك من رحيلهم؟ انني ان اخرت الغزو بعد شيوعه لأكد المخاوف هذا التأخير، وفي السفر تهدئة الخواطر وسيرجع الناس الى محلاتهم، أما سبب هذه الحوادث فقول الناس عن مصادر تركية انه سيقع تبديل في الشرافة وان الشريف حيدر بن جابر قادم الى المدينة؛ وقد تقوّل بهذا رجال منهم سليمان بك، فقال: لِمَ تركتُ مكة وطلعتُ الى الطائف؟ ليتني لم أفعل!.. فقلت: لا عليك.

ثم تناول مصحفاً شريفاً عنده، وقال لي: هل تعرف هذا؟ قلت: نعم كتاب الله، وهو مهدى الى والدي مني، وهو كوفي الخط، وقد أهداه الى دولتك، فقال: هل تشك في إسلامي؟ فقلت: معاذ الله أما

الظاهر فانك من خيار المسلمين ولا يعلم السرائر إلا الله. فوضع يده على الكتاب وقال: والله إني لمعكم ولست عليكم. فأصدقني الخبر عن هذه الشوائع. فقلت: شوائع الثورة؟ قال: نعم. فقلت: هي لا تعدو ثلاثة احتمالات: إما إنها مكذوبة، أو أنها عليكم وعلينا، أو أنها عليكم من الشرافة والناس، ولو كان هذا الأخير لما حضرت الآن بين يديك وقد تفعل بي ما تشاء. وعندئذ دخل أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك فارتخيا عليه وقالا ما لم اسمعه فانتهرهما فخرجا (وأخيراً علمت ــ بعد ان وقعوا جميعاً بأسري ــ انهما طلبا اليه أن يأمر بالقبض علي) فقمت مودعاً فودعني وقال: لا تقطع الاتصال بي فقلت: الست على اتصال بمكة بالتلفون؟ قال بلى. فقلت: في هذا الكفاية، وقلت: سآمر قائمقام الطائف بأن ينادي بالأمان للناس حتى يرجع كل احد الى بيته، وفي هذا من التكذيب ما يكفي. فقال: هذا حسن وسأفعل انا أيضاً.

فخرجت ووجدت احمد بك وسليمان بك في الصفة، ومعهما الأميرالآي حيدر بك متصرف عسير السابق، فلم يحتفلوا بي وقد خرجت ولم احتفل بهم. وبعد ان استوينا على ظهور خيلنا يممنا قصر شبرا، وبها العلم الهاشمي والقوات. ولقد وجدت الشريف حسين الجندي على وعد مني عند العكرمية، فقلت: اذهب الآن الى الوالي وقل انك تلقيت مني أمراً بالمناداة بالأمان، ثم عد وابعث من يقطع اسلاك التلغراف من مركز معشي الى الكر، وامنع كل من يسافر الى مكة منع قتل وإبادة. ثم تحركت بالقوة الى المركز الهاشمي للحركة، وهو عند سفح جبل سواقة على يسار الطريق للذاهب الى مكة عن ناحية العرفية.

وفي تلك الليلة تلقيت مذكرة من الوالي غالب باشا هذا نصها:

الى صاحب السعادة الشريف عبدالله بك ــ بعد توجهكم انقطعت الخطوط التلغرافية بين مكة والطائف، وان الموظفين

الذين أرسلوا لاصلاحه لم يعودوا، وقد شاعت الشوائع بان المعتدين على الخطوط التلغرافية قد سجنوهم؛ ولذلك اطلب اليكم الرجوع حالا الى الطائف، فان تأديب عشيرة البقوم ليست من الاهمية بشيء ازاء الحالة الراهنة.

فأجبته بالآتي :

(حضرة صاحب السعادة الوالي والكومندان بالطائف — لقد تلقيت مذكرتكم ليلا، ولم يبلغني خبر ما حصل على الخطوط التلغرافية. وان وكيل قائمقام الطائف تحت أمركم لتنفيذ رغائبكم. أما انا فسأكون بطرفكم بعد غد السبت ان شاء الله).

وفي ٩ شعبان كانت الثورة في البلاد الحجازية، ما عدا الطائف فان الهجوم قد وقع عليه في الحادي عشر من شعبان، بسبب بعض النواقص. وفي ليلة السبت الحادي عشر من شعبان، في نصف الليل، ابتدأ الهجوم من الجبهة الشمالية التي كنت ادير حركتها بذاتي.

وكان الأتراك قد حكموا سور البلدة، وحفروا خندقاً من بستان الرياض متجهاً من الشرق الى ناحية الغرب الى مكان يسمى معشي، ثم انحرف الى الجنوب الى هضبة أم السكارى وبها أحد مراكزهم القوية وبها مدفعان، ثم انحرف خندقهم مشرقاً مرة أخرى الى أن حاذى برج غلفة، ثم مال الى الشمال وخالط وادي وج، ثم انحرف مشرقاً الى الجنوب حتى اتصل بصفاة تسمى دقاق اللوز، ثم مال الى الغرب مرة أخرى واتصل بالخندق الأساسي المار الذكر؛ وقد وصل هذا الخندق بخنادق فرعية تربط نواحيه الأربع بالمركز في خطوط متعرجة تحجب السائر فيها.

أما الهجوم فقد وقع بعنف شديد؛ وفي الجبهة الشمالية بالقلب كانت تتقدم الحملة البواردية الخواص وهم الرماة، يتقدمهم راقي بن عفار

ثم مَنْ كان من الحملة من الثبتة الجوازي ومن الكثمة الغشاشمة والروانية ثم بنو سعد، عليهم جميعاً الشريف سلطان بن راجح: فعاد المهاجمون ببعض الأسرى والأسلاب.

وعند بزوغ الشمس ابتدأت المدفعية التركية كأشد ما يكون ترمي بحممها المهاجمين، ولم أدر لماذا لم يعزز القائد التركي المدفعية بهجوم من المشاة. هذا ولم يتمكن بنو سعد من الوصول الى أهدافهم، فاضطروا الى التراجع الى نواحي شبرا، ثم انصرفوا بشيء من عدم الطاعة الى بلادهم. وقد جاءني من قائدهم الشريف سلطان ما يفيد بذلك فأمرته بأن يتركهم. وانصرف همي الى انقاذ القسم من الرماة الخاصة الذين حجزوا في العكرمية وفي أسفل شرقوق ـــ وهو جبل بين مسرَّة وشبرا ـــ وفي تلك الاثناء كان الى جنبي الشيخ فاجر بن شليويح والشريف حمزة الفعر، واذا بالأتراك يحرقون قصور الامارة السبعة بالنار، فقلت لمن معي: لا ترهبوهم انهم انما أرادوا بهذا اخافتكم، ولو كانوا كما يقال لهاجمونا هجوماً معاكساً؛ وهذه البيوت تبنى إن شاء الله في أسرع ما يمكن.

وطال الاشتباك وقل العتاد الذي لم يكن في درجة الكفاية، ولم يؤذن لأحد بأن يرمي إلا هدفاً معيناً مرئياً. وفي وقت الظهيرة وبعد أن اشتد الظمأ على أفرادي الخاصة، ابتدأ الهجوم من الشريف فهد ابن شاكر من الناحية الغربية والجنوبية بعشائر النمور وهذيل وبني سفيان؛ ولقد كنا نسمع تكبيرهم وصياحهم. واتجه ضرب المدفعية الى تلك الناحية، فتمكن عندها رجالي الخاصة من التراجع سالمين. فأمرت بتحصين جبل شرقوق، وأقمت بقصر شبرا قوة كافية، وانسحبت بالقوى العمومية الى سواقه، وكان العتاد قد نفذ بأجمعه.

ثم بعثت بأوامر مستعجلة الى الشريف فهد بأن يكف قواته وان يميل الى طريق عقبة كرى، لئلا تخرج القوة من الطائف عامدة مكة.

وأصبح همي الأول حجز هذه القوة للتغلب عليها، فان ذلك لم يكن بالمتيسر في مدة وجيزة في قلعة حصينة كالطائف وبها فرقة نظامية. ففعل ما أردت. ولو خرج الوالي والقائد بقواته لكان وصل الى مكة بسلام لنفاذ العتاد الحربي كلياً.

وفي الوقت نفسه بعثت بكتب الى العشائر التي تراجعت، أخبرتهم فيها بأن هجوم عشائر هذيل وثقيف والنمور أنقذ الموقف وأنَّا كررنا على الأعداء وحصرناهم؛ وطلبت اليهم الرجوع بعد اسبوع لنوزع عليهم السلاح الجديد ونقيد أسماءهم في دفاتر العطاء، مع تعيين ما يخص الرؤساء ومَنْ يليهم من الأفراد. فجاءتني الأجوبة بلبيك لبيك.

ثم أوقدت النيران في تلك الليلة على كل جبل مشرف على الطائف؛ وكثر الصياح الحماسي، ودقت الطبول، واستمر رمي البنادق امهات الفتيل الى الصبح، مما أوجب الوهم الشديد في قلوب الأتراك عن اجتماعات عشائرية. وعلى رأس الأسبوع وردت الأسلحة الجديدة وهي بنادق للمشاة شبيهة ببنادق مصنع استير، يقال انها يابانية؛ وكانت بعيدة المرمى، شديدة الاصابة لا يخطىء بها مَنْ يرمي، إلا أنها ينفجر بعضها. وبعد أن وزعت هذه الأسلحة، ولحسن الحظ، هجم الأتراك على نواحي دقاق اللوز، وشهار، وحواية، لأخذ البيادر التي كانت بها حيث قرروا الدفاع. وصادف ان كانت هذيل وبنو سفيان عادوا من المعسكر بالأسلحة الجديدة، وكان خروج الأتراك انصب على عشيرة وقدان بدقاق اللوز وبقملة، فنشبت المعركة وردت هذه الهجمة الفاشلة بخسائر فادحة.

وفي تلك الليلة هاجمت بنو سفيان وهذيل هضبة أم السكارى ليلا، وقضت على حاميتها، ثم استولت على مدفعين هناك للاتراك؛ وكان البيات في درجة فظيعة حيث لم تطلق بندقة واحدة، بل كان الهجوم بالخناجر والحراب، ولم ينج من الأتراك أحد. ولما حدث هذا تراجع الأتراك من هضبة أم الشيح، ومن شرقرق الذي كانوا استولوا عليه

عنوة، الى جبل أبي صحفة وخنادقهم القديمة، وتقدمت القوات العربية الى مراكزها يوم بدء الهجوم.

وقد استولى الحرس الأمامي على رسول من القائد التركي بالطائف الى القائد التركي بمكة، ومعه رسائل موجهة بأوامر الى القواد والى قائد القوة الامدادية بالمدينة، يقول فيها أن الشريف الحسين قد أعلن العصيان، وأن قلعة الطائف والفرقة العثمانية تقاتل ببسالة ضد هجمات العرب الذين يقودهم الشريف عبدالله النجل الثاني للشريف، وأن مسؤولية هذه الحركة تقع على الشريف وأنجاله، ثم يقول: قاتلوا في مراكزكم ببسالة حتى ترد الامدادات من الشام والمدينة المنورة، قاتلوا كما يقاتل هؤلاء العصاة واذكروا أسلافكم من آل عثمان، ولا تهابوا صولة هؤلاء العرب الذين تقدموا بأكمامهم البيض وسداريهم الحمر مستخفين بالموت في سبيل أميرهم.. قاتلوهم في سبيل السلطان والملة، واذا رأيتم راياتهم بألوانهم الأربعة من خضراء وحمراء وسوداء وبيضاء كالحية المدفونة فاسحقوهم بأقدامكم ولا توفروا منهم أحداً.

وثبتت الحالة بين الحاصر والمنحصر متكافئة، الى أن جاءت بطاريات جديدة جبلية من مكة ثم جاءت المفرزة المصرية ومعها أربعة مدافع جبلية نصف سريعة، وكان عليهم الأميرالآي سيد بك علي، وكانوا في بادئ الأمر كثيري الاحتيار ثم ألفوا. وبعد ذلك وصلت الى القوة مدافع الهاوزر نصف بطارية، فحصل الرجحان في هذا الجانب. ولم أكن بالمسرف في الضرب حيث النتيجة معروفة والابقاء على النفوس من الجانبين ملتزم لدي.

استسلام القائد التركي الفريق غالب باشا

وفي العاشر من ذي القعدة تلقيت كتاباً من القائد الوالي هذا نصه:

الى الشريف عبدالله بك نجل الشريف حسين باشا: لكي نثبت للغرب مزايا الشرق، اقترح عليك ان تسمح للقوى المحصورة بالسفر الى المدينة المنورة بجميع اسلحتها وبمن معها من عائلات الضباط ومن يرغب السفر مهم من الجالية التركية، فاذا وافقتم على ذلك وهو المعلوم ننتظر الجواب كي نشعركم بوسائط النقل اللازمة وعدد الجمال.

فأجبته:

ان هذا ليس بيدي، وان الحالة الراهنة لا تكفل سلامة وصول هذه القوى المتراجعة الى المدينة، وان من خيركم ان تستسلموا جميعاً ثم ترحل الى المكان المناسب.

فلم يرد أي جواب.

ولما كانت قوات فخري باشا قد تمكنت من التضييق على الأميرين علي وفيصل فدفعت الأول الى رابغ ودفعت الثاني الى ينبع البحر، ولما كانت الأوامر ترد الي مشددة بلزوم اسقاط الطائف وحث نار المدفعية الثقيلة على مركز القيادة، فما لبث القائد الوالي أن بعث الي



المنقذ الأعظم

المغفور له جلالة الملك الحسين بن علي

(أخذت هذه الصورة لجلالته في قصر رغدان)

بهذا الكتاب، وقد ورد الي بعد هزيع من الليل:

الى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبدالله بن الحسين —
أنه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء، ولذلك ارجو قبول هيئة منا لتتذاكر معكم في معاملة التسليم والتسلم وفق حقوق الحرب الدولية، او تتكرموا بارسال هيئة منكم الينا.
الامضاء: كومندان القوة العثمانية المحصورة فريق غالب.

فأجبته بالقبول وأن يبعث هو الهيئة التي يريدها. فبعث القائد سليمان بك ومعه رئيس أركان الحرب التركي ناظم بك وعليهم الأميرالآي حيدر بك قائد ومتصرف عسير سابقاً، وحضروا الى قصر الشريف فتن بن محسن بالمليساء. وكانت الهيئة العربية يرأسها القائد سعيد المدفعي والرئيس فؤاد والملازم أحمد حلمي. وتقرر التسليم على الآتي:

١ — يخرج الوالي والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشي في هذه الليلة الى قصر شبرا.

٢ — الطوابير تُترك تحت قيادة الرؤساء اليوزباشية والملازمين الاولين والملازمين الثانين.

٣ — تتراجع هذه الطوابير في منتصف الليل الى الثكنة الكبرى وتترك على الأبواب بعض الغفراء، وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية، بقيادة الشرفاء فهد بن شاكر وسلطان بن راجح والشريف حسين الجودي، لتحتل الابواب وتؤمن السلام والامن العام.

٤ — مع الفجر يتقدم القائد سعيد بك ومعه مَنْ كان معه، ممن ذكرت أسماؤهم في مذاكرة التسليم، ليضعوا أيديهم على الاسلحة والمدافع الموجودة فتوضع في مخازنها وتمهر بالشمع الاحمر.

٥ — تتكفل القيادة العربية بالإعاشة والتموين.

٦ ــ تُصرف للهيئة المستسلمة معاشات ثلاثة أشهر.
٧ ــ تنتظر الاوامر بالتوجه حالا الى الجهة المقتضية.

وقد تم كل هذا بهدوء وسلام، بعد أن أرخصنا للكثير من العشائر ليعودوا بعد مدة.

وفي اليوم الثاني جرى رسمياً انزال العلم العثماني عن القلعة، ورُفع العلم العربي، بالتحية الرسمية لكلا العلمين. وكان منظراً مؤثراً، فإن العلم السابق كان العلم بالامس، والعلم اللاحق هو العلم اليوم؛ والامس أمسنا واليوم يومنا، ولكن الذنب على من سعى لترك الصبغة الاسلامية الشرقية والهروع الى الحظيرة الغربية الافرنجية. ومع الاسف فإن هذه الحركة الانفصالية لم تحل بيننا وبين الواقع فيما كنا نخشاه، فقد وقع ما هو اضر؛ أما الترك فعملوا ما شاءوا، ولكنهم أتراك في كل شيء، وأما نحن فقد أصبحنا أشكالا متعددة ونزعات متفاوتة لنا من كل قوم متبوع، وفي كل بيت الف لسان.

ونعود الى ذكر سقوط الطائف، فانا بعد اتمام معاملة التسليم والتسلم وفق الشروط الدولية، رحّلنا القائد والوالي والجنود الى مكة المكرمة، مرفهين غير منقوص لهم أي شيء، وقد صرفت لهم مرتبات ثلاثة أشهر.

أما أول ملاقاتي للوالي غالب باشا فإنها كانت غريبة، حيث انني ما أحببت لقاءه أول ليلة لصداع شديد ألم بي، فبقيت بالمليساء وبعثت سماحة الشيخ عبدالله سراج مفتي مكة المكرمة والشريف شرف بن راجح اليه. فلما انه لم يجدني ارتبك وظهرت عليه علامات القلق، فأرسل الي الشيخ عبدالله يرجوني القدوم، فأتيت ولما رآني استبشر وضحك، فجلسنا في البهو الكبير بقصر شبرا ومعه خمسة وسبعون ضابطاً، من رتبة قائد الى رتبة زعيم، إلا هو فرتبته كانت رتبة فريق.

وبعد صمت استمر ثلاث دقائق أو أكثر، قال لي: هذه فاجعة.. بعد أن كنا اخواناً أصبحنا أعداء! وقد شعرت أنه قد زال عني بعض شعور الاستحياء منه والتكريم له، فقلت: نعم لكي يعود السيد لسيادته ويتحرر من رق مَنْ أخرجهم من الظلمات الى النور، والشر بالشر والبادي أظلم. فاصفر لونه ثم قال: انني كنت واثقاً من أن الأمة العربية ستنفصل يوماً ما عنا، ولكن ما كنت أؤمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وبهذه السرعة. فقلت له: صدقت، لقد أسرعنا، ومن منفعتنا الاسراع؛ أما الشكل فلا دخل له ولو انكم أبقيتم سلطة الخلافة المطلقة لما تغيرنا عليكم، ولكن ارادتكم المشروطة هذه التي أحببتم بها السيطرة على السلطان وعلى الامة معاً هي السبب الاول في الاسراع. ولِمَ هذا البحث الان تفضلوا تناولوا شيئاً من الفاكهة فقد طال عليكم الحصر وحُرمتم الكثير منها. وأخذتهم الى غرفة الطعام حيث كانت أُعدَّت لهم تعتيمة فاخرة، فيها أنواع أطعمة الليل الشهية: العنب والدراق والكمثري والرمان، وتركتهم معتذراً بصداعي الى غرفتي.

وتوجه هو صباح الغد الى مكة، ولما وصل جدة بعث الي بسيفه لئلا يأخذه أي ضابط أجنبي، وكانت هذه منهم معاملة جد نبيلة.

ثم توجهت الى مكة بعد ان نظمت الاحوال في الطائف وبقي به الشريف حسين الجودي وكيلا عن الشريف شرف. ثم امر سيدنا المرحوم ان يتوكل امارة الطائف الشريف حمود بن زيد بن فواز. ووجدت بمكة السادة أهل الشام ولبنان: الشيخ كامل القصاب، والشيخ فؤاد الخطيب صاحب القصيدة المعروفة « حي الشريف وحي البيت والعلما »، والسيد محب الدين الخطيب، والسيد نسيب البكري واخوانه. اما نوري باشا السعيد وسائر الضباط فقد التحقوا بمعسكر رابغ الذي كان يقوده الأخ علي (جلالة الملك علي)، والبعض الآخر التحق

بمعسكر ينبع البحر الذي كان يقوده الأخ الأمير فيصل (جلالة الملك فيصل) ومعه الأخ زيد حفظه الله.

وكانت وضعية الجيش للثورة في غاية الحروجة والخطورة، حيث ان فخر الدين باشا قائد القوى السفرية التركية قد دَفع بالأميرين فيصل وزيد الى ينبع البحر، بعد ان هزم الصغير وهو زيد ببئر سعيد، وهزم الآخر وهو المرحوم الملك فيصل في وادي ينبع النخل ودفع بالأمير علي الى رابغ، وأرسل الشيخ حسين بن مبيريك شيخ رابغ الذي خان الثورة الى بلدة حجر، فاصبحت الطريق من بئر قيظي اسفل سطح الغاير الى خليص فعسفان فمكة المكرمة مفتوحة له.

وكان الأمير فيصل يشكو جداً من تأثير الطيارات الالمانية في العربان، وفي ذلك الوقت كان الشريف علي حيدر باشا بن جابر بن سيدنا الشريف عبد المطلب بن غالب بالمدينة المنورة منصوباً أميراً على مكة من طرف السلطان محمد رشاد، وقد ركب اليه واستأمن الكثير من شيوخ حرب وجهينة المجاورين للمدينة المنورة. وكان يقول الملك فيصل: ان لم نمد بطائرات تقابل ما مع الاتراك والا فلا يبقى من العربان احد في ناحيتنا وتحت ايدينا. وكان القلق ظاهراً في برقياته وتقاريره. اما الأمير علي فكان برابغ وكان معه الضباط العرب والجنود العرب الذين تمرنوا على الاصول العسكرية الجديدة وحاربوا واسروا ثم نقلوا الى المعسكرات الانكليزية وطلبوا الالتحاق بالثورة العربية. وجاء الكثير منهم فتكونت في رابغ قوة نظامية لا بأس بها، وبها الصنوف الثلاثة المهمة العسكرية: مشاة ومدفعية ورشاشات، كما كان فيها مهندسون وقسم استحكامات، لا ينقص ذلك الا الخيالة النظامية. وما لدى البلاد من القوات الراكبة العربية كانت كافية لهذه المهمة. اما عدد هذه المجموعة فبين الثلاثة الاف والخمسمائة والاربعة الاف،

غير القسم الذي بينبع فكانت القوتان كالشوكتين الى يمين اي قوة تريد النزول الى مكة المكرمة؛ وانه اذا صمم فخر الدين باشا على الإقدام على مكة المكرمة كان من واجبه افراز قسم مهم من قواته لحصر هاتين المدينتين والنزول بالاقسام الباقية الى مكة، وفي هذا من الصعاب ما لا يجهله أحد.

مع ستورس ولورنس في جدّة

ولقد أمرني جلالة الوالد بان اسافر حالا بما بقي من القوات التي كنت احصر بها الطائف ــ وكان قد حضر الى جدة المستر ستورس الكاتب الشرقي في دار الحماية بمصر والكابتن لورنس ــ لمقابلة جلالته والتشرف بتلقي أوامره. وحيث انه لم يكن هناك ما يقتضي تشريف جلالته الى جدة، امرني بان أذهب قبل السفر للاجتماع بهؤلاء الذوات وبتقديم الطلبات العسكرية التي هيأها رئيس اركان الحرب عزيز بك علي المصري. فاسترحمت من جلالته ان يقبل بنظرياتي في السفر أولا الى مصر، لتنظيم المخابرات والكتب الواردة من السير هنري ماكمهون الى شكل عهد قائم، ثم بعد عودتي ــ اذا وافق على سفري ــ يكون توجهي من الناحية الشرقية الى الحناكية، وهو موقع مهم شرقي المدينة المنورة بشمال، ثم العبور مما وراء الخط الحجازي الى وادي العيص، ونقل الثورة مما بين الحرمين الى ما بين المدينة والشام؛ فوافق رحمه الله.

ثم كتبت للمرحومين علي وفيصل بانه لا خوف من تقدم فخر الدين باشا الى مكة ما دام ان قواتهما سليمتان، فانه يخشى ان تقطع هاتان القوتان الطريق بينه وبين المدينة؛ وقلت: انني متوجه عن الطريق الشرقي وان هذه الخطة أنكى للعدو وأوفق للثورة حيث تضم اليها عناصر العشائر الشرقية كلها.

ثم توجهت الى جدة لمقابلة الذوات الانكليز المومى اليهم، وخيمت بين الكندرة والسبيل، فزاروني ومعهم قائم مقام جدة الشيخ عبدالله شيبي ورئيس البلدية الشيخ سليمان قابل، فأجري لهم الاكرام اللازم. ثم زارني في اليوم نفسه الكولونيل بريمون رئيس البعثة العسكرية الفرنسية ومعه الكولونيل قاضي وهو من مسلمي الجزائر، وقد وصل الى هذه الرتبة وهذا شيء عظيم لكونه من المسلمين وليس لهم أن يجتازوا هذه الرتبة. وفي الصباح التالي زرت البريطانيين بدار المعتمد البريطاني بجدة وكان الكولونيل ولسن (اللواء ولسن باشا) وكان معي عزيز علي بك المصري وكان الذي يترجم لهم ترجمان دار الاعتماد حسين روحي أفندي.

فلما جلسنا واستقربنا المكان قال ستورس: لقد حضرت أنا ورفيقي الكابتن لورنس لنقوم بأقصى ما يمكن من الخدمات فرحين فخورين، ولكن لسوء الحظ تلقينا هذه البرقية البارحة وكانت لنا منها صدمة شديدة، وقد ترجمت الى العربية وستقرأ على سموك الآن؛ فإذا تكرمت وأصغيت اليها علمت مقدار جزعنا لسببها. فقلت: تفضلوا أتلوها. وكانت برقية مطولة خلاصتها أن أخبار النهضة العربية لم تقابل في الهند إلا بالسخط، وأن وكلاء الألمان والأتراك اتخذوها وسيلة وزعموا أن الحلفاء احتلوا البلاد الاسلامية المقدسة. ولذلك ولأن الحكومة لا تستطيع ايجاد متاعب لها في الهند فهي قررت أن تسحب كل البعثات المرسلة من لدنها من المسلمين، وكذلك سترجع البعثات العسكرية الفرنسية، وستداوم الحكومة على تقديم المساعدات الأخرى من أسلحة وعتاد ونقود، وترى هي أيضاً أن نهوض العرب بأنفسهم وبدون مساعدة قوات أجنبية هو خير لمستقبلهم.

كانت هذه البرقية صدمة شديدة لي ولعزيز علي بك، فقد كنا في حاجة الى قوات من طيارات ومدفعية ورشاشات ومهندسين لا

يحسن القيام بها إلا مَنْ سبق له أن تمرن عليها، وهذا ليس بالموجود عندنا. فقلت: أرجوكم أن تتلوها مرة أخرى لأنني أحب أن أتفهمها بزيادة. وكانت فرصة للتفكير، وقررت قراري. ولما انتهى قلت: فهمت ما تقولون تماماً. وقمت مودعاً فبهتوا وودعوني بكل احترام والارتباك ظاهر عليهم.

فيممت دار الكولونيل بريمون، فاستقبلني من الباب. وهو رجل الى الطول أقرب، عريض الصدر طويل اللحية أشيبها. وبعد أن جلست قال لي: ما هذا؟! إن الأتراك قد وصلوا الى بير قاظي!... فقلت أنا: بل ما هذا؟! فان دار الاعتماد البريطاني والموفدين البريطانيين أخبروني الآن بقرارهم على أن يسحبوا بعثاتهم العسكرية بما فيهم أنتم، وأنهم سيساعدون النهضة فقط بالاسلحة والعتاد والنقد؛ وأنا في حاجة الى طائرات ومدفعية وغير هذا مما لا يتقنه الجنود العرب اليوم. فقال لم يبلغني ذلك وأن الأمر لخطير، فماذا أنتم فاعلون؟ قلت لا شيء غير الصلح، فان الأتراك عرضوا علينا قبولهم ما نطلبه بكفالة امبراطور المانيا، وانني سأعود الآن وستستقيل الحكومة التي أنا وزير خارجيتها وتأتي حكومة أخرى من الحزب الجانح للصلح فننتهي على خير وقد نلنا ما أردناه، وليس علينا من حلفائنا في هذا أي لوم لأنهم يعرفون ما طلبناه وما قبلوه. فتغير لونه. وبعد أن شربنا القهوة خرجت الى المخيم.

وبعد وصولي المخيم بنصف ساعة تقريباً جاءني قائد الجندرمة ومعه مذكرة من المعتمد البريطاني يقول فيها إنه هو والسير رونالد ستورس والكابتن لورنس يحبون أن يتناولوا الشاي في المخيم في الساعة الرابعة، فأجبته بالقبول. وقد حضروا في الوقت المناسب وقالوا لي: ماذا قلت سموك للكولونيل بريمون؟ فقلت: الذي سمعتموه منه، فاني بعد تبليغكم قرار حكومتكم لي، صممت على العودة لعرض الأمر على ولي الأمر وشرحه بتمامه، ثم الاستعفاء أنا والحكومة، لتأتي الحكومة من الحزب المائل للصلح مع تركيا فتقبل ما عرضه الأتراك علينا من قبول نريد للعرب

بكفالة الامبراطور الألماني ونتخلص من مشاق الحرب، ولا لوم علينا في هذا. فقالوا: ولم؟ قلت: للوصول للغاية بعد اعتذاركم. فقالوا: إنك لم تبق عندنا حتى نعرض عليك ما كتبناه للحكومة واننا ننتظر إيقافنا على ما تريدونه من مطالب، فقلت: بعد تصميمكم على سحب بعثاتكم تقولون إنكم كتبتم وماذا تعني كتابتكم؟ فألحوا علي إلحاحاً شديداً في تغيير رأيي، فقلت: لا أحيد عن رأيي قيد شعرة ولكن سأتأخر في الطريق اثنتي عشرة ساعة، فان سبقتني الموافقة على ما تتطلبه الحالة الراهنة من إبقاء البعثات وارسال الطيارات التي يطلبها الأمير فيصل فسأستمر على ما نحن عليه الآن، فرضوا وخرجوا بعد أن تناولوا الشاي.

وسافرت الى مكة عن طريق بريمان والفج، تاركا على يميني جبلي ظاف ومكسر، وقضيت الليلة بقرب منازل لحيان؛ وكانت ليلة جميلة ضيفتنا فيها العشيرة خير ضيافة. ثم استأنفنا السير صباحاً، وسلكنا طريقاً تنخرط بنا على الحميمة وبها أقلنا، ثم روحنا بعد الظهر فاصبحنا امام مكة المكرمة ودخلناها من طريق الحجون لا من طريق اجياد. وعند دخولنا البلد الأمين، واذا بجاد يقول (يا شاري العبد المليك، عبد يجمل من شراه) واذا به الشيخ فاجر بن شليويح، وجاء على وعد مني للسفر الى الجبهة.

فدخلت مكة وتشرفت بالمثول بين يدي المنقذ، فبادرني بقوله: لقد نجحت يا عبدالله في عملك، فقد وردتني برقية من المعتمد البريطاني يقول فيها « إن جميع مطالب الجبهات سوف تأتي بدون أي تأخير ». فعلمت أن السهم قد أصاب وأن القوم قد فضلوا دوام الثورة العربية على الصلح الذي زعمتُ أنه ممكن؛ ولم أعرض لجلالته أي شيء عن الموضوع، غير أني علمت بعد ذلك أن عزيز علي قد عرض عليه الأمر.

اعلان استقلال البلاد العربية
ومبايعة الحسين بن علي ملكا على العرب

ثم تذكرت انه لا بد من اعلان استقلال البلاد العربية بأجمعها والبيعة لجلالته ملكا على العرب، لأن الترك في ذلك الحين كانوا ينظرون الينا كعصاة خارجين، واعداؤهم ينظرون الينا كثوار لا اقل ولا اكثر؛ وفي هذا ما فيه من الخطر على مستقبل الأمة. فذاكرت زملائي الوزراء ـــ ما عدا الأميرين علي وفيصل فانهما كانا في الجبهة ـــ ذاكرت الشيخ عبدالله سراج قاضي القضاة ونائب رئيس الوزراء، والشيخ يوسف قطان وزير الامور النافعة، وحافظ محمد أمين افندي ناظر الاوقاف، وعزيز بك علي المصري رئيس أركان الجيش العربي، وعلماء مكة مفتيها ومَنْ حضر من رجالات الشام والعراق الذين منهم الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل البكري والشيخ فؤاد الخطيب ـــ وكان معاوناً للخارجية ـــ وآل الداعوق وحضرات الضباط العراقيين... فعرضت عليهم الأمر فوافقوني على ذلك وألحوا في سرعة التنفيذ.

فدخلت وعرضت الأمر على جلالته فرفض بشدة وقال: انا لا اعمل للملك ولا اقبل هذا الأمر الذي تعرضونه علي. فتقدمت ولثمت ركبته وقلت: هذه العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر

بلاد العرب وهم يرجون قبول عرضهم. فقال ليس عندي سوى ما قلته لك. فقلت: لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثورة الا على شرط قبول ما عرضناه، فاعمل ما تشاء مع سوانا. فقال: هل بلغت بكم الحال الى هذه الدرجة؟ فقلت نعم. فقال: قف، فوقفت، ثم أمر بحضورهم جميعاً. فلما جاءوا قال : اصحيح ما يقول هذا ؟ قالوا لا يجرؤ أحد على أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له. قال: هل عزمتم على ترك الدوام على الثورة ان لم اقبل انا ما عرضتموه؟ قالوا: نعم سننسحب كلنا. فقال: افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم؛ انا اقبل ما عرضتموه منفذاً لرغبتكم لا موافقاً عليها. قالوا: اذن وفقك الله، وستكون البيعة يوم الاثنين اول محرم سنة ١٣٣٥ في المسجد الحرام، فقال: على بركة الله.

فكانت البيعة كما ذكرت وهي بيعة عامة، وقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار الى ان أذّن المؤذن الظهر، اربع ساعات تامة. وبعد ان عاد الى القصر الملكي ودخل الحجرة الخاصة، تقدمت مهنئاً فقلت: هذه البيعة العلنية، اما البيعة السرية فكانت والأتراك في البلاد، واخذتها من احد عشر الف رجل بمكة، كلهم بايعني على ان اختار لهم ملكا هاشمياً يسير بهم على ما أمر الله ورسوله، وكانت بإذن جلالتك. فقال: تذكرت تذكرت، فقلت: وانا الآن ذكرت أبا مسلم الخراساني، ولكن أرجو الله ان لا تكون عاقبتك عاقبته. فقال: خسئ الأعجمي. ثم ابرقت بصفتي وزيراً للخارجية لكل وزراء الخارجية من دول الحلفاء والدول المحايدة، واستمر العمل ذلك اليوم من بعد الظهر الى ما بعد نصف الليل. وكان يعمل معي الشيخ فؤاد الخطيب عمل المخلص المتفاني ولا نكران لذلك.

وفي اليوم الثاني طلب الي المعتمد البريطاني الكولونيل ولسن والمعتمد الفرنسي الكولونيل بريمون المكالمة، فظننت انهما سيهنئاني على ما

وقع؛ واذا بهما على عكس ذلك يقولان: لِم فعلتم هذا الأمر قبل الرجوع الى رأي حلفائكم؟ فقلت: عجيب ما تقولانه، اننا نقاتل بسيوفنا في سبيل الله واعلاء كلمته وارجاع حقنا القومي الى نصابه؛ فمن ساعدنا وايدنا فهو صديقنا، ومن نكص عنا وأحب أن يفت في عزائمنا فهو لا يريد بنا الخير؛ ونحن لا نسفك الدماء إلا في حقها وحلها، فإذا رأيتم اننا على خطأ فأنتم تضمرون لنا غير ما تعلنون. وانني لأنتظر رد حكوماتكم، لا ردودكم الشخصية، وانا أعتقد أن الترك وحلفاءهم اليوم سيقرون ما فعلناه ويقبلون الصلح وهذا أمر نحبه.. فقالوا: تشك سموك في اخلاصنا؟ قلت: لا، ولكن نحن أعلم بما ينبغي لنا أن نفعله من أجل أنفسنا.

وفي اليوم الثاني جاءني الرد من المستر ستورمر وزير خارجية روسيا القيصرية، وقد اعترف باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملكاً على الأمة العربية، مقدماً تحيات جلالة القيصر نيقولا الثاني الى جلالته وتحياته هو الي والى الحكومة. فبلغت هذه البرقية الى دول الحلفاء قراءة. فقال لي الكولونيل ولسن: أتعد هذا اعترافاً منه يا سمو الأمير؟ فقلت: وكيف يكون الاعتراف إذن؟ فقال: تكرم إذن بقبول تهاني الشخصية على أن أقدم التهاني الرسمية بعد تلقي الاعتراف من حكومتي.

وبعد هذا أخذت في ترتيب السفر، وقُلدت قيادة الجيش الشرقي العربي مرة أخرى ، وعماد هذا الجيش فئتان من الهجانة المدربين والشوكة الهاشمية، وفئة الخيالة معها بطارية جبلية ثم عشائر عتيبة وعشائر مطير وعشائر حرب وعشائر هتيم. ثم عند الوصول الى بلاد جهينة وبعد اتمام التجهيزات توجهنا في عشرين من شهر صفر الخير، ونزلنا وادي الليمون، وكانت قوات الأميرين في رابغ وينبع تحت ضغط شديد من فخر الدين باشا. وكان الشيخ حسين بن مبيريك شيخ رابغ قد

التحق بالقوى التركية وقام ببعض عشائره في حجر ـــ موضع بأرض وعرة شرقي رابغ وعلى طريق خلص فعسفان ـــ وبهذا كانت الطريق مفتوحة لقوات فخر الدين باشا بدون أي معارض.

فأسرعنا المسير، ولما وصلنا الى البركة ـــ منزل للحاج في الطريق الشرقي ـــ تلقيت أمراً من القائد العام الأمير علي بن الحسين (جلالة الملك علي) يخبرني به أن الأمير فيصل في مضايقة شديدة بينبع، وانه هو بذاته ينتظر كل آن هجوم فخري باشا عليه أو مروره على طريق خلص الى مكة؛ ولهذا يشير آمراً اياي بالرجوع الى مكة ومنها يأمرني أن أغذ السير الى عسفان لتشكيل جبهة جديدة تدافع عن مكة؛ ويقول ان لم أفعل هذا فربما قطعت عليَّ خط الرجعة، فيضمحل الجيش بدون أي خدمة.

ولما كنت أعلم جيداً أن في تنفيذ هذا الأمر انفراط أمر العشائر، عزمت على الآتي: فبعثت الشريف فوزان الحارث بألف وخمسمئة هجان مردوفة، وأمرته بأن لا يصبح إلا وهو قد احتل حجر واستأصل حسين بن مبيريك. وبعث بجوابي لجلالة الملك علي الذي يحمله الى رابغ ويخبره بأن لا حجر ولا ابن مبيريك بيد الترك وينتظره هناك. وبعثت الشريف عبدالله بن ثواب الحارثي بمثل تلك القوة الى المدينة المنورة وأمرته بأن يشن الغارة على مخافر الترك بجبل وعيرة وجبل أُحد، وأن يوقد نيراناً كثيرة بالجبال والمرتفعات ويكثر الصياح، وأن يأسر كل محتطب أو ذا حاجة أو تاجر من تجار نجد ممن يخرج من المدينة أو يدخل اليها، وأن يطلق سراح الراجعين الى المدينة بعد أن يتحقق عن هوياتهم، وأن يزودهم بكتب الى العشائر بغربي المدينة ممن التحق بالأتراك والشريف حيدر ويهددهم بالصياح إذا هم لم يتراجعوا الى الأميرين بينبع ورابغ ويقول إنه في مقدمة الجيش الشرقي وقد نفَّذ ما عليه، كأن حجر قد احتلت في الوقت المعين.

وتوجهت أنا بالقوة الأصلية الى ناحية الحناكية ـــ موقع معروف شمال المدينة المنورة بشرق ـــ فأقمت بها ثلاثة أيام والتحقت بي هنالك كل عشائر هتيم وحرب. وكانت القوى عشرين الف راكب، فتوجهتُ بها نحو الغرب لأعبر السكة الحجازية ما بين محطتي ابا النعم وهدية. وفي طريقنا بالحرة كدت أقع أسيراً بيد الأتراك لولا عناية الله؛ وهو انني تقدمت ومعي هجانان لشدة الحر يومئذ وللتخلص من وعورة الحرة، واذا بقاع صحصح فيه دوحة عظيمة الى جنبه غدير أفيح، فانخت وأمرت بشيء من القهوة في انتظار قدوم العيون ـــ عيون القوة ـــ فكان كل من رآني هناك ينيخ، وأخيراً ولتأخر القوة وحملتها قررتُ أن تكون هذه الدوحة منزلة الظهيرة. وكان عندي حينذاك الشريف شاكر بن زيد وخالد بن لؤي والشيخ ناهس الذويبي شيخ مشائخ حرب.

وبينما انا جالس معهم دخل رئيس عشيرة ولد، محمد رجا بن خلوي، وأشار إليَّ بأنه يريد محادثتي فقمت اليه، فأشار الى تل لا يبعد عنا بأكثر من خمسمئة متر وقال: هل ترى هذا التل؟ قلت: أراه. قال: إن به قوة تركية. قلت: كيف؟ قال: اسمع من هذا الغلام.. وإذا بغلام يفع تتَّقد عيناه يقول لي: يا سيدي عان الترك عانهم انظر الى الترك انظر اليهم!.. قلت: كيف؟ قال: « انني وأخي زمالان للشيخ رجا بن خلوي، ذهبنا في مقدمة القوم نحتش حشيشاً فالقى الترك القبض عليَّ انا وأخي، وقال كبيرهم لنا من أنتما ومن هؤلاء القوم؟ فقلت انا مبادراً هؤلاء هتيم وشيخهم سمران بن سمرة ونحن منهم قد بلغه أن الشريف عبدالله نزل الحناكية فرحل عن طريقه لاجئاً الى خيبر. فقال: لا تكذب، فقلت: ولِمَ الكذب أطلقني إن أردت واحتبس أخي وأنا آتيك بسمران بن سمرة؛ فاحتبس أخي وأطلقني. ولكن عان يا سيدي الترك عانهم »!. فقلت: هل رأيت كثرتهم؟ قال: هم كثير ولكن نحن أكثر، ابعث بي أدل القوم.

فانتحيت ناحية وقسمت الخيل الى ثلاثة أقسام: القسم الأوسط مع قائدهم الشيخ هوصان بن عفار، والأيمنين على أخيه الشيخ راقي بن عفار، والأيسرين على الشيخ عبدالله بن مسفر؛ وامرتهم أن يحيطوا بهذه القوة وأن يوغلوا الى ما وراءها حتى يقفوا على حقيقة الحال: هل لهؤلاء من مدد أو قوة كاملة؟!..

فتوجهت الخيل، ثم بعثتُ بمشاة العشائر من اليمين بقيادة الشريف خالد بن منصور، وبعشائر هذيل بقيادة الشريف فائز الحارث، وبعثت بعشائر ثقيف وابن الحارث وهذيل الشام بقيادة الشريف شاكر بن زيد من الميسرة فتبعوا الخيل؛ ولم تمض الا دقائق حتى كان الاشتباك الشديد، واذا برشاشاتهم تلعلع ومتفجراتهم ترعد فينعكس صوتها بين حلي الحرة وهضابها، فلم يقف انسان بمحله بل حملوا حملة صادقة فأبادوا القوة التركية باجمعها، وأتوا بقائدها الأميرالآي اشرف بك وأتوا بالمدافع وبالرشاشات وبغنائم لا تحصى وبهدايا الى الأمير ابن رشيد والى الأمير ابن سعود والى إمام اليمن، ومن جملة الغنائم ثمانية وثلاثون الف جنيه ذهباً عثمانياً ومن الأطعمة المجففة وسائر البسكوتات فأغنانا أياماً عن الزاد ولقد كنا في حاجة شديدة حتى الى الملح.

فسرنا، ولم نُقِم، لنعبر السكة قبل ان تأتي قوة تركية تمنع العبور ونحن في مفازة قتالة. ثم احتلت قواتنا ما بين هدية وأبا النعم، الخط الى آبار ابا الحلو غربي السكة، واستمر العبور اربع ساعات ونصف على ثمانية خطوط. ثم اقتلعت اعمدة البرق وانتزعت قضبان السكة. وقد كتب اشرف بك مصيره في تقرير غُلّفَ ووضع على قضبان البرق. وكتبت انا كتاباً الى فخر الدين باشا اقول له بأنا اسفنا على ما وقع على أشرف بك وحملته وعجبنا من بعثكم هذه القوة بهذه الأموال في بلاد ثائرة، وقلت ان الثورة قد انتقلت الى ما بين الشام والمدينة.

وعليه فقد تراجع حالا هو من ينبع النخل ومن وادي الصفراء ومن

بئر سعيد الى بير درويش؛ وهذا جناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير فيصل رجع من بير قاظي وسطح الغاير ومن برام وعبود الى غدير مجز ومجزان الى آبار علي، وهذا جناحه الأيسر الذي كان يعمل ضد الأمير علي تراجع أيضاً.

وتقدمتُ فنزلت بوادي العيص بربيعان، وكررت على الخط الحديدي اهاجمه ليل نهار، فتحررت قوة الملك فيصل واتجهت عن طريق الساحل الى الوجه، وقد كان بيد الأتراك. وكان قائمقام القضاء في الوجه صديقنا العزيز عبد السلام بك كمال احد افراد دار كمال المعروفين بالقدس، وكان عثماني المذهب شديد التمسك بالترك، وهي مزية يشكر عليها لاعتقاده بانها واجبة عليه. وكان معه — كقائد للمقاطعة — الاميرالآي احمد بك على القوة النظامية العثمانية، وكانت مركبة من مدفعية ساحلية وبطارية جبل وطابور افراده الف ومئتا جندي غير الجندرمة. وقد كان بالوجه هجانة من عقيل اهل نجد مركبة من ثمانمئة هجان.

ولدى نزولي بوادي العيص كتبت إلى هؤلاء العرب أنصحهم بالانضمام الى الثورة العربية قبل أن ينالهم التنكيل، فوردت أجوبتهم بالموافقة. وبعد أن استلموا معاشاتهم تركوا الأسلحة حيث هي وخرجوا ثم التحقوا بالثورة كأفراد وان هذه المزية أيضاً يشكرون عليها.

ولقد تقدم الملك فيصل من الساحل فاستولى على (أملج). ثم ضرب الأسطول البريطاني الوجه. وعند وصول أوائل قوى الملك فيصل، تراجع القائم مقام والأميرالآي بقواتهما الى العلا، ودخل جيش الملك فيصل الوجه بدون مقاومة تذكر. ثم كتبت الى عشائر عنزة وعلى رأسها الشيخ فرحان الأيدي والشيخ شهاب الفقير. أما ابن رفادة، شيخ الوجه وأحد رؤساء بلي، فقد فر والتحق بأحمد جمال باشا في الشمال.

وكانت الكتب المرسلة الى شيوخ عنزة بهذا النص:

من عبدالله بن الحسين بن علي الى الشيخ فرحان الايدي

والى الشيخ شهاب الفقير ـــ أما بعد فقد بلغكم عبورنا خط السكة الحجازية بعد ان ظفرنا بأشرف بك في الجنبلة بالحرة ونزلنا بالمربع بوادي العيص. وكتابنا هذا كتاب دعوة لكم للالتحاق بالثورة العربية الحقة في مهلة لا تزداد على العشرة الايام، تقدموا البت قبل مضيها مقدمين الطاعة مع البرهان بأن تهاجموا خط السكة وتأتوا باسرى وغنائم. فان لم تفعلوا ومضت المدة فلا لوم علينا ان نحن استعنا بالله عليكم وصبحناكم. وقد افلح من اتقى.

فجاء خلال المدة الشيخ فرحان الأيدي سامعاً مطيعاً، بعد أن هجم على محطة من محطات سكة الحديد تسمى (البغلة) وظفر بمن فيها، وجاء معه مدفعان جبليان اغتنمهما منهم، فوُظف قائداً في أراضي عنزة من الجهينة الى حدود الفقير. وأما شهاب الفقير فكان غائباً عند وصول كتابنا، ولكن حضر أخوه الشيخ متعب الفقير بالنيابة عنه سامعاً مطيعاً، وقد وعد بأن الحركات ستبتدىء في جبهة الفقرة أيضاً عند وصول الشيخ شهاب من الشام. فلم أقبل منه ذلك وقلت: الوعد المدة ولا على شهاب بأس ما دام أنه لدى الأتراك، وانتم لا لوم عليكم بعد التهديد. وبينما هو يتجهز للرجوع واذا بخبر ورود شهاب الى عشيرته يأتي وأنه قد سمع وأطاع وباشر في الحركات.

وهكذا ابتدأ الجيش الشرقي يعمل وقد لفت اليه الأنظار، وكان لأسر أشرف بك خبر ابتهاج عظيم في مكة، وفي المعسكرات العربية برابغ وينبع ولدى المحافل البريطانية؛ لشهرة أشرف هذا وعصابته ولكونه هو الذي صبح فرقة البرنس موريس البلغاري أثناء حرب البلقان وأوقع فيها وشنتتها.

ثم أننا قطعنا الخط الحديدي بين محطة أبا النعم وهدية، وهيأنا القوة الكافية للكمون بطرف بئر عروة بالمدينة المنورة في أيام الجمعة،

لاختطاف الأمير الشريف حيدر الذي يتنزه هناك بعد ظهر كل جمعة. وقد وصلت تلك القوة بالفعل الى مكمنها، ولكن الشريف كان قد أُخرج من المدينة الى لبنان خوفاً من وقوعه في الأسر إذا حوصرت المدينة. وكان رحمه الله يخدم القضية العربية بأن يقول لكل شيخ جاءه: اذهبوا وسأقابلكم بمكة متى وصلتم. وقد أسرَّ لمن يثق به منهم بأن أعينوا أمراءكم فان حصل أي فشل فإنني سأجتهد للتخفيف عنكم. رحمه الله.

وهكذا فإن الحركة العربية قد صادفت نجاحاً عند اختياري سلوك الطريق الشرقية، وقد تتامت أسباب حصار المدينة بعد ذلك رويداً رويداً. وقد تحركت القوى الأصلية الهاشمية من رابغ يقودها جلالة الملك علي وأمراؤها من النظاميين: نوري باشا السعيد وعلي جودت بك الأيوبي وحامد باشا الوادي وابراهيم بك الراوي؛ وأما العشائر فحرب وبنو سعد وسليم وهذيل والأشراف، وقد قصدوا قوى الترك الأصلية ببئر درويش وبمجز ومجزان. وكان سمو الأمير زيد يقود الجناح الأيمن. واستمر القتال بين القوتين ثلاثة أيام ظفر فيها الجيش العربي الهاشمي ببئر درويش وبمجز ومجزان، وتراجع فخري باشا الى الجفر والى آبار علي. وقد قال في تقريره لجنوده « إنكم تقاتلون الآن قوة منظمة هي كفء لكم وليست المجادلة الآن بحرب عصابات أو شقاوة ».

وظل الحال على هذا المنوال، فقد قصر فخري باشا خط الدفاع وخندق واستحكم. وكانت بالمدينة القوى السفرية تدافع الى حد تبوك بفرقة ونصف، وكان الجيش الشرقي الذي أقوده بالعيص يدأب على قطع مواصلات القوى السفرية قطعاً مستمراً بتدمير خط سكة الحديد الحجازية. ثم تقدم الملك فيصل من الوجه الى جيدة — موقع يقابل العلا بأرض بلي — وجعل المركز العام له مدينة الوجه الساحلية. وكانت هجمات الجيش الشمالي الذي يقوده الملك فيصل تستمر الى ذات حاج.

لورنس!...

ثم بعد نزولي العيص بأسبوع، وصلت قوة من الجيش الشمالي مركبة من سبعة وعشرين هجاناً ومعها الكبتن لورنس، أرسله الملك فيصل بقصد أن يدير حركات التخريبات الفنية على السكة الحديدية. ولم أكن بالفرح المسرور بقدومه حيث علمي بتأثيره المعاكس في العشائر المتعصبة. ولقد قال لي ابن لؤي الوهابي العقيدة: انكم تقاتلون الترك بسبب ان الالمان استحوذوا على الترك، وهذا مَنْ يكون؟ اذا كانوا هم ــ يعني الألمان ــ اصحاب الاتراك فهؤلاء اصحابكم، فعلام القتال إذن؟!..

وقال لي ناهس الذويبي: من هذا الأحمر القادم وماذا يريد؟! فاشعرتهم كلهم بانه جاء لتهديم الخط وانه مهندس وانه يمثل انكلترا حليفتنا وصديقتنا وان الأمر ليس كما تظنون، بل اننا وهؤلاء اتفقنا على عدو لهم وعدو لنا؛ اما اعداؤهم فالألمان واما اعداؤنا فهم الأتراك حين ذاك. وقلت: اتظنون ان هؤلاء يدفعون اسلحتهم وذخائرهم واموالهم اليكم بدون ان يروا ما نوقعه في اعدائنا؟! لا يقول هذا الا جاهل.

ومع ان هذا القول كان له التأثير، غير ان التبرم من وجوده كان جلياً ظاهراً. ولقد حاول هو الاتصال بالعشائر ولكن لم يستطع للحرس

الذي اقيم عليه، خشية ان يدس له الترك بيننا مَنْ يعتدي عليه بقصد إفساد ذات البين. ولقد سلمت العشائر الجنوبية من الكثير مما لحق بعشائر الشمال، يوم ان اطلقت له الحرية في جيش الملك فيصل فاصبح، بما بذل من مال وما قال من أقوال، ملك العرب غير المتوج، وانه صاحب الثورة، وانه لولاه لما نال العرب اي شيء!...

وفي الحق انه كان المزهو بنفسه الغريب الطباع. ولقد دس الي من يغريني بملك الحجاز، بحجة ان الوالد المرحوم عنود في فكره متمسك برأيه، فقلت لرسوله — وهو الآن حي يرزق — قل لصاحبك هذا ان أبي سيدي وملكي وبعده الأخ الأكبر وبعده نجله، وسأكتفي أنا بلقبي الى آخر أيامي؛ وأما هو فقد خدمني وخدم العرب اكبر خدمة بقوله ان والدك عنود متمسك برأيه، إذ يظهر انهم يطلبون مَنْ لا رأي له من الناس كي يعمل لورنس ما يشاء.

وقد رأينا ما آلت اليه الشام.. ففيه ما يدل على ان فكرة إزالة الناهض المرحوم والمنقذ المظلوم كانت قديمة، وان المحاولة البريطانية في تمكين ابن سعود — الذي كانت بريطانيا متعهدة بان لا تدعه ولا سواه من الأمراء العرب الذين لهم صلات بحكومة الهند ان يقفوا ضد الثورة العربية حتى تتم، وانه لا ينبغي لصاحب الثورة ان يضمهم او يلحقهم الى الحركة العربية لأنهم تبع لحكومة الهند — غاية في الاتقان؛ فاعلنت بريطانيا حيادها عندما صال ابن سعود بوحوش الوهابية على الحجاز المقدس، والزمت العراق وشرق الاردن بذلك الحياد الزاماً اكراهياً. فأما شرق الأردن فقد بذل كل ما في وسعه لنجدة ام القرى ومركز الثورة العربية ومهبط الوحي، واما العراق فقد ضن بما عليه. وفي هذا الشيء اليسير من اعمال لورنس ضد البيت الهاشمي.

ولم يكن هذا الموضع من المذكرات محلاً لذكر هذه النبذة، ولكن

حيث كان لقدوم لورنس الى العيص هذه البادرة، جعلنا هنا محلاً للاستهلال بما نعرفه عنه.

ولقد وجهنا قوة للتخريب وطرد الأتراك من محطة أبي النعم وجداعة والوقر وهدية، وكان هو من جملة الذين ساروا مع القوة لوضع المتفجرات التخريبية، فعاد وهو غير شاكر ما رأى، وأخذ يذم القوة ويقول بانه كان في الامكان عمل الشيء المؤثر، ولكن استعجلوا الرجعة. وفي ذلك اليوم نسفت قاطرة وخرِّب قطار باجمعه ودُمر حوالي احد عشر كيلو متراً من الخط الحديدي. إن هذا العمل لم يرق لورنس، لأن الأمر لم يسر كما كان يريد. ولقد سافر الشريف حيدر من المدينة الى لبنان بعيد هذه الضربة باسبوع، وقبل أن نظفر به، كما رتب وقلنا سابقاً، أثناء نزهته ببئر عروة. أما لورنس فقد نفرت في جسده دمامل وخراجات أزعجته، فاستأذن وعاد. ولقد كنت معه مُكرِماً لطيفاً معترفاً بثمين مساعداته غير راض عن تدخلاته فيما لا يعنيه.

بعض من عرفت من الانكليز اذ ذاك

استمرت الحالة بعد ذلك، من الضغط على الخط الحديدي الحجازي بلا انقطاع، فشلّت حركات النقل سنة ١٩١٦ و١٩١٧ وبدأت القيادة التركية تخرج المدنيين الى الشام؛ وأول ما أخرجت الشريف حيدر ابن جابر الذي عينه السلطان أميراً على مكة عند اعلان الثورة العربية. وكان مركز الأمير فيصل ـــ كما مر ـــ بالوجه، ومركز الحركة في موقع جيداء وما جاورها. وكانوا حاولوا من ناحيتهم أيضاً الضغط على الخط الحديدي من العلا الى حيث يستطيعون نحو الشام.

ثم لما انبعثت الحركة في الجيش الشرقي الذي أقوده، أُلحقت بنا مفرزت تخريب فنية يقودها ضابط بريطاني برتبة ميجر ـــ ثم رقي فصار كولونيلاً ـــ واسمه « دافنبورت » وهو رجل دمث خلوق لا يهمه سوى عمله؛ طويل بالنسبة للعرب لا للانكليز، عريض المنكب أحمر اللون كستنائي الشعر أزرق العينين، وكان قد أسبل لحيته بسبب الحرب. وممن كان في معيته من الانكليز الكابتن « غارلند » وهو من محبي العرب مخلص شديد الاخلاص، وكان من الساعين للعمل مع المخلصين من العرب للعرب، وليس هو من الذين يسعون لايجاد أحد ممن يسعى لمنفعته الذاتية فيخدم عن غش غير أمته، وقد ينسى أن مَنْ غش نفسه لا ينصح للآخرين. ثم كان من الرجال الانكليز

الذين عرفتهم بطيبة النفس والاخلاص الكابتن « غولدي » وهو رجل نحيف طويل معروق الوجه أخضر العينين بشوش هشوش. ثم عرفت أيضاً من الانكليز عام ١٩١٦ و١٩١٧ الكولونيل « نيوكمب » — وهو ما يزال حياً يرزق — وهو ممن يتظاهر بمحبة العرب في كل محل، ومن كثرة أحبابه ظل في عمله.

وممن عرفت منهم الميجر جويس أو الكولونيل جويس أو جويس بك، وهو من أخلص الناس للانكليز والقضية العربية، وقد خدم اكثر من لورنس خدمة حقيقية قاسى فيها أنواع الشدائد، من حرارة مواسم الحجاز في الذهاب والاياب في العمل. هذا ما يمكنني أن أقوله عن أصدقائنا الانكليز حين ذاك.

الخط الحديدي

والسبب الأكبر في دوام محافظة الأتراك على الخط، هو عدم وجود قوات مدربة نظامية معنا، وقدرة الأتراك على الدفاع. أما التجهيزات فلم يكن يقدم للجيش الشرقي أي شيء سوى سلاح المحارب الراجل، وأما المدافع وما الى ذلك مما تستعمل ضد القلاع والاستحكامات فلم يظفر الجيش الشرقي العربي منها بشيء. وكان لدى جيش الملك علي مدفعية محترمة من مدافع الصحراء ومدافع الهاوتزر ما تفوق به على الأتراك. وأما العناية بالتجهيزات فكانت مصروفة للجيش الشمالي، الذي كان يقوده الملك فيصل؛ ولقد كانت معه سيارات مدرعة ومدافع كثيرة جبلية وصحراوية ومدافع حصار، وكان كل الجنود المتطوعين من العرب والضباط يرسلون الى ذلك الجيش، كجعفر باشا ونوري باشا وأمثالهما. واما الجيش الشرقي فقوامه الملتحقون به من جنود عرب وضباط برتب صغيرة، يفرون من الجيش التركي اليه.

وكان من رأيي الاستيلاء على الخط ثم الاستيلاء على المدينة المنورة بالجيوش العربية الثلاثة: الجنوبي والشرقي والجيش الشمالي الذي يقوده فيصل. ولكن لسوء حظ العرب انتشر الضغط على الأتراك على طول الخط الحديدي، ثم تقدم جيش الملك فيصل واحتل العقبة ومنها أخذ يضيق على معان. فلو أسقطت المدينة المنورة في عام ١٩١٧ لكانت

الجيوش العربية الثلاثة تتفرغ بمجموعها لفتح سوريا وللاشتراك في محاربات العراق، ولكن مال الآخرون الى هذه الخطة. ولما هزم جيش اللورد اللنبي الأتراك في الناصرة، تقدمت مفارز من الجيش العربي الشمالي الى الأزرق وأذرعات، فدخل الشام. وعلى الشام رفعت الرايات العربية بواسطة الأيوبي باشا وموافقة أحمد جمال باشا القائد التركي المعروف، وبإرادة سلطانية تعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية. وكانت القوى العثمانية المدافعة عن معان لا تزال بها لم تمس بسوء، أشبه ما تكون بالجيوش الألمانية في فرنسا عند غزو الحلفاء القارة الأوروبية في الحرب الأخيرة.

فخري باشا

هذا ما كان هناك ذلك الحين. ولكن فخر الدين باشا بقي في المدينة يدافع بإصرار، فلم يبق لزوم لأن يكون الجيش الشرقي بوادي العيص وبلاد جهينة. وبعد المخابرة مع جلالة الملك علي تحركت بالجيش الشرقي الى الجفر — وهو موقع شمال المدينة المنورة بغرب يبعد قدر عشرين كيلومتراً عنها — وبعد التضييق عليه ابتدأت الحركات الدالة على عدم الطاقة في المحصورين.

وقد ورد كتاب من السير وينجت — المندوب السامي بمصر بذلك الحين — الى فخري باشا، يخبره فيه:

> ان الاتراك قد هزموا، وان الشام قد احتلت، وان مسؤولية الدماء من بعد الان ستقع عليك شخصياً ان لم تسلم.

فأجابه فخري باشا بالتركية بما نصه:

> الى جناب الجنرال ريجلاند وينجت بمصر: أنا عثماني، أنا محمدي، وأنا ابن بالي بك، وأنا جندي، وأرخ.

ثم فر بعض الضباط، منهم الكولونيل محيي الدين بك رئيس أركان حرب. ثم بعث فخري باشا بعد ذلك بكتاب الى سمو الأمير علي (جلالة الملك علي) يقول له فيه إنه بعد هذا الجدال الطويل لم

يبق أي سبب للدفاع وأنه قد أرسل الميرالآي علي نجيب بك والميرالآي صبري بك والأركان حرب اليوزباشي كمال بك لأجل التذاكر في كيفية تخليه عن المدينة وكيفية اجلاء الجنود الذين يمتد خطهم من تبوك الى المدينة على سكة الحجاز. فبعث جلالة الملك علي اليّ إشارة تلفونية يطلبني من الجفر، فحضرت حالا. وكان علي نجيب بك هذا قائد الآي من فرقة الحجاز بمكة المكرمة، وخرج بالآي هذا مع الوالي والكومندان وهيب بك المعروف، للقتال من أجل فتح مصر مع جمال باشا.

ولما ترجلت عن فرسي عند باب خيمة القيادة، خيمة جلالة الملك علي، تلقاني وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقلت: أعلم أنك من أهل الاسلام. ثم دخلنا الى حضرة المرحوم وطلب نجيب بك سرعة المذاكرة، فعينني جلالته رئيساً للجانب الغربي وعين نوري بك الكويري قائد الفرقة الجنوبية للجيش الجنوبي والأمير الآي السيد حلمي بك قائد الفرقة النظامية للجيش الشرقي، ومعهما القائد الشوربجي بك.

فابتدأت المذاكرة وطلب علي نجيب بك السماح للقوات التركية بأن تخرج بأسلحتها الى ينبع البحر والى الوجه؛ وبالطبع رُفض طلبه وتقرر:

أولاً ــ تسليم فخري باشا نفسه.

ثانياً ــ تسليم كل الآي في الجبهات حيث هو وأخذهم من محلاتهم الى الساحل بقوافل محروسة من الجيش العربي.

ثالثاً ــ كذلك القوات التي بالمدينة المنورة تسلم كل قوة في مركزها وتخرج.

رابعاً ــ أما القوات التي في العلا وتبوك فتستسلم هناك وتؤخذ بقوافل

إلى الوجه إلى ظبا، وأن الأمتعة الخاصة بالضباط تكون تحت تصرفهم إذا أرادوا بيعها أو أخذها معهم.

خامساً ـــ أن يجري تسليم الأسلحة العسكرية الخفيفة والثقيلة بموجب الدفاتر والسجلات المحفوظة.

سادساً ـــ أن يجري التسليم فوراً.

وبعد تنظيم هذه المواد، جرى التوقيع منا ومنهم، وعادوا الى المدينة المنورة.

وفي الغد من يوم المذاكرة، امر جلالة الملك علي ـــ سمو الأمير علي يومئذ ـــ نوري بك الكويري، والشريف أحمد بن منصور أمير حرب، بان يذهبا لاستلام فخري باشا حسب الشروط فذهبا وكنا في انتظاره معهما الى المساء، فلم يأتيا.وبعد غروب الشمس بنحو نصف ساعة، دعاني جلالة الملك علي الى خيمته قائلا لقد عاد أحمد بن منصور ونوري الكويري وحدهما، اما فخري فعلى قولهما ـــ رواية عن علي نجيب بك ـــ انه لما علم بالشرط الأول دخل الحجرة النبوية وهدد قائلا: ان أردتم اخراجي عنوة فسأشعل النار في كل العتاد الذي في المسجد ـــ وكان الأتراك قد وضعوا المفرقعات النارية في المسجد خشية الطيارات ـــ وانه في الحالة هذه لا يمكن اخذه عنوة، وانهم على استعداد لتنفيذ سائر الشروط.

وكان جلالته في ارتباك، فقلت: لنتركه في محله، فقال: انه لا يؤمن وانه ما زال هناك فانًا لا نأمنه. وفي الحقيقة كانت الحالة مربكة، وتجلى علينا الصمت الى وقت العشاء؛ فلما دعينا الى العشاء وانتصف الأكل واذا بنا نسمع دمدمة، كأن شيئاً قد ثار او انهدم، فقام رحمه الله واقفاً وقال: لقد أشعل الخبيث النار في المسجد! اركب الآن

الى جليجلة وافهم الحقيقة، واعمل على أخذه مهما كان الأمر. فقلت: افعل. وطلبت احضار الخيل.

فلما اتممنا العشاء، ركبت الى جليجلة، وبها مركز الالآي الأول التركي، فسرنا ثلاث ساعات؛ وكان معي الشريف شرف بن راجح عبدالله المضايفي والمرحوم الشيخ هوصان بن عفار أمير الخيالة بالجيش الشرقي وأمير اللواء السيد حلمي قائد الفرقة النظامية للجيش الشرقي، في سبعة عشر خيالا. وتقع جليجلة في ارض جبلية.

ولم يرعني الا الضوء على باب محل المستحكم، واذا الغفير يقول: من هذا؟ (كيمدرو)؟ فدفعت فرسي واندفع من معي نحوه، فارتبك فأخذناه، وقلنا: اين مركز الألآي؟ فقال: هو هذا وبه الاميرالآي (قائد الالآي) اسماعيل شكري بك. فخرج واذا هو، فقلت: انا الأمير عبدالله. فاندهش... فقلت: لا عليك ان لزمت السكينة.. اين محل الهاتف؟ أرنيه وأحضر علي نجيب بك. فقال: تفضل. فدخلت فأحضر علي نجيب بك على التلفون، فقال: من المتكلم؟ قلت: الأمير عبدالله بن الحسين، قال: كيف ومن أين تكلمني؟ قلت من جليجلة طبعاً. قال: والالآي؟ قلت الألآي وقع بيدي. فقال: سبحان الله! فقلت: هذا بفضل الله، ولكن اين فخري باشا؟ وكان اليوم موعد تسليمه حسب الشروط؟ قال: انه كما اخبركم الشريف أحمد بن منصور ونوري الكويري بك، دخل الحجرة وهدد بأن ينسفها ان نحن حاولنا أخذه عنوة. قلت: لا اعتقد ذلك. فقال: أتريد ان تقع جناية في الحجرة؟ قلت: لا بالطبع ولكن اريد تنفيذ الشروط، أليست لديكم حرمة لتواقيعكم؟ فقال: أتريد أن يقتل من يدخل عليه في ذلك المحل؟ قلت: الذنب عليه وقد قتل عمر بن الخطاب بين المنبر والقبر. فقال: أتريد أن ينسف المسجد؟ فقلت: قد احترق المسجد النبوي في التاريخ مرتين، والنبي ﷺ في الرفيق الأعلى، وان وقع شيء من هذا فسيكون لنا حجة عليكم أنتم

الأتراك. والآن انت تكلم خصمك، فان لم تنفذ الشروط فسيكون الموقف جد حرج، حيث تقرر استئصال كل من بالمدينة منكم. فقال: أمهلني نصف ساعة.

وبعد انقضائها عاد يقول لي في الهاتف: بعد المذاكرة تقرر اخراج فخري باشا بأية صورة كانت، صباحاً في الساعة الحادية عشرة على حساب الساعة الغروبية. فانتظرنا الى الصباح. وفي الساعة المحددة خاطبني بالهاتف أيضاً وهو يقول: بعون الله ومدد روحانية رسول الله وبعزم رفاقي الكرام، أُخرج فخري باشا من الحجرة بدون حادث، وسيق اليكم مع الاميرالاي صبري بك في سيارة محروسة، وسيصل اليكم بعد ساعة وربع.

وبعد ساعة وربع، وصل الى جليجلة وكنت في مركز القيادة، فقابله حلمي باشا ومعه الشريف شرف من حيث السيارة وأخذاه الي. فقال له صبري بك ــ بعد ان قدمه لي ــ هذا الأمير عبدالله. فحياني رافعاً يده الى صدره تحية الدراويش، فحييته بمثلها، وأخذته الى الغرفة فجلس جلسة المقيت الغضيب، فبادرته قائلاً: اننا قد علمناك شجاعاً في الحرب وأثناء الحصر، وانه ليسرنا أن نراك صبوراً في هذه المصيبة مصيبة الأسر. ففرك يده بيده وقال: لا أعارض وان تشكلت حكومة عربية. قلت: لقد عارضت وانتهت المعارضة، والآن فان سمو ولي العهد المعظم الأمير علي في انتظارنا، فإذا سمحت نركب اليه بعد أن تتناول الشاي وترتاح قليلا. ثم خرجت من عنده وتركت القائد ابراهيم الراوي معه، فقال له: هل كنت معنا؟ أجابه بأن كنت معكم الى أن أعلن صاحب الجلالة استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمتي. ثم رجعت وإذا به قد أتم تناول الشاي، وهو كالنمر الهائج ينظر ما حوله فلا يرى مخرجاً. فقلت: لنركب. فقام معي، فنزلنا وإذا بسيارته هناك، فقلت: اركب ــ وعمدت الى فرسي ــ فقال: بل تركب معي.

فركبت معه، ثم اكتنفت الخيل السيارة، وتحركت بنا نحو المدينة المنورة. فلما اجتزنا جليجلة وإذا باستحكامات، فقلت له: هل هذه الخطوط الأمامية لكم؟ فقال: مضى عليَّ زمن ولقد نسيت. فاستحمقت نفسي واستثقلت سؤالي وهو صامت، فقلت له مازحاً: لقد أتحفتم أخوي علياً وفيصلاً بناظورين عندما قدمتم المدينة المنورة، فأين حصتي؟ فضرب يداً بيد ثم مد يده الى معطفه وراءه وتناول ناظوره فقدمه إلي، فخجلت جداً وقبلت الناظور على شرط أن يأخذ هو ساعتي التي معي كتذكار؛ فشكر ذلك مني، فدفعت اليه الساعة وكانت ثمينة ظريفة. أما كونها ثمينة فلأنها من جلالة الملك علي أنعم عليَّ بها، وأما ظرافتها فلكونها رقيقة مذهبة وغطاؤها مغلف بالميناء الأزرق، وفي طرفها الأعلى لون وردي كأشعة الشمس عند الغروب، مكتوب على أحد وجهيها بخط النسخ الجميل وبذهب مطعم (لا اله إلا انت سبحانك اني كنت من الظالمين) وعلى الطرف الآخر (لي خمسة أطفي بها حر الجحيم الحاطمة: المصطفى والمرتضى وابناهما وفاطمة) فسر غاية السرور. وهو على ما علمت أخيراً بكتاشي الطريقة، والبكتاشيون شيعيون.

ثم تبسط معي، وسرى عنه ما كان عليه من غم. ثم انفجرت احدى اطارات السيارة فوقفنا لتعميرها، وإذ ببدويين يمران ومعهما بعض ما اشترياه من السوق ببئر درويش؛ فقال أحدهما للآخر: من هؤلاء؟ فقال الثاني: هذا عبدالله بن سيدنا، والآخر لعله فخري باشا. ثم تقدما مسرعين نحونا، وبعد أن حيياني قالا عن فم واحد: هذا فخري باشا؟ فقلت: انه هو. فالتفتَ اليه أحدهما وقال: أأنت فخري باشا؟ قال: نعم. قال: امدد يدك اصافحك، فأنت الشجاع الباسل الذي صدنا عن المدينة المنورة شهوراً عديدة. فمد يده اليهما وصافحهما، ثم قال لي: ان هذه لأكبر مكافأة لي من رجلين لا يؤملان مني أي صلة أو جاه، فإذا هي الحقيقة وبها الشرف لي ـــ وامتلأت عيناه بالدمع ـــ فقلت:

انهما من العرب، والعرب أمة شريفة تقدر الناس حق القدر.

وتم اصلاح السيارة، فتابعنا المسير، وإذا بقوة عربية نظامية من راكبي البغال عددها مئتان وخمسون بغالا، يقودها القائد شكري بك الشوربجي، مصطفة للتحية؛ وقد جاءت للاستقبال من بئر درويش بأمر من سمو الأمير علي الذي أخذ خبر قدومنا من الشيخ عبدالله بن مسفر المضايفي، وقد بعثته حين وصل فخري باشا يخبر سموه بأن المشار اليه قد أصبح في يدي. فالتفت وقال: هذه القوة عربية؟ قلت: نعم. فوازن نفسه وزرر معطفه ثم قابل التحية بتحية عسكرية وقال « هرشي اولمش بتمش » أي (كل شيء حصل وانتهى). وبدا عليه السرور مما رأى، وفي هذه نكاية، فانه كان يظن أن العرب لا يحسنون تنظيم أنفسهم.

واستمرت بنا الطريق، ووصلنا الى المضرب الهاشمي في بئر درويش في الساعة الخامسة، قبل الظهر بساعة ـــ وكانت الساعات حين ذاك عربية ـــ فترجلنا وأممنا القبة الكريمة، وكانت جموع الناس مجتمعة لترى فخري باشا، فدخل بعد أن صافحني قائلا: انني سعيد لقبولي في ضيافتكم. واتجه نحو جلالة الملك علي وكان قد عرفه قبلا. أما لقاؤهما فكان مزيجاً من العتب والعداء والشيء الظاهر من البرود. فانسحبتُ من الباب الى خيمتي المعدة لي ببئر درويش، وقبل أن يتم لي غسل وجهي وإذا بي أُطلب للمثول بين يدي سمو الأمير (جلالة الملك علي) فلما حضرت قال: سعادة الباشا لا يسره فراقك. فقلت: انكم قد اجتمعتما ولقد خرجت وانا هنا قريب.

وجاءت القهوة، وكان في المضرب كبار الأمراء العسكريين والشرفاء ورؤساء البعث العسكرية المحالفة، ثم جاء المضايفي وقال: ان خيام الضيف معدة. فنهض فخري باشا وهو يقول: لعلها بجوار الأمير عبدالله؟ فقيل له: نعم. فخرج وخرجت معه، وقلت: هل يأمر الباشا بأن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان يألفهم؟ فقال: اترك هؤلاء الخائنين،

لا أريد منهم أحداً. فافترقنا، هو الى خيمته وانا الى محلي، ثم طلبني جلالة الأخ فجئت فقبل رأسي وقال: ان هذه خدمة لا تنسى لك.. فقبلت يده.

وبعد الاستراحة جاء وقت الغداء، ودعي فخري باشا فأكل هنيئاً مريئاً كأن لم يحدث عليه شيء، وخصص له مرافق من الضباط العرب الذين يتقنون اللغة التركية. ورغب في السفر عاجلا، فسافر في اليوم الثاني الى ينبع بسيارته وأُخذ بطرادة خاصة الى المعتقل بمصر.

أما أنا فعدت الى معسكري بالجفر، وشرعت معاملات التسليم تتم وفق الشروط. ثم استدعاني سمو الأمير علي (جلالة الملك علي) وأمرني بالشخوص الى المدينة المنورة لأتولى مسائل التسليم وحفظ الأمن الذي اختل هناك. فجئت الى بئر درويش، وبعد مبيت ليلة سافرت منها الى المدينة ومعي العدد الكافي من الجيش الشرقي لاحتلال الأماكن المقتضية وحفظ الأمن. فدخلت المدينة المنورة صباحاً وأممت المسجد النبوي، فكان الشعور الروحي في درجة أعجز عن وصفها. ثم نزلت في مركز القيادة العثمانية، وكان الحرس من الأتراك، وكنت أجلس معهم على السفرة في الفطور والغداء والعشاء. وأصبحت قائداً مسؤولاً عن الجهتين المسلمة والمستسلمة، وكأنه لم يحدث بيننا وبينهم أي شي. فجرى التسليم وفق الترتيب في يومه وساعته ودقيقته، وكان ترحيل أفواج القوى السفرية العثمانية من الداخل الى الساحل يجري في الأوقات المعينة بالدقة التامة، ولقد سافرت براحة وشكران.

وانني لأذكر أنني حاولت استبقاء العساكر العرب في الخدمة العسكرية بالحجاز، ولكن الشوق في العودة الى أوطانهم تغلب عليهم، ولما قلت لهم: لا سبيل لكم الى الذهاب لأوطانكم فوراً الا بالانضمام الى الجيش العربي الهاشمي، وان أنتم لم تفعلوا هذا فستنقلون الى المعتقلات،

ومتى تتيسر لكم العودة منها عدتم وهذا مجهول التاريخ. فنكص كل عربي عن السفر، وطلبوا الرجوع الى أوطانهم فأعيدوا مكرمين عن طريق السكة الى معان فالشام.

ولم يقع من الحوادث المخلة بالأمن اي شيء مهم، غير ان بعض اللصوص تمادوا في كسر الأبواب من بيوت نقل أهلها بواسطة الادارة العثمانية وأخذ منها بعض أمتعتها، فالقي القبض عليهم وهم متلبسون بجريمتهم، فحوكموا عاجلا وكان قصاصهم الموت، فانتهت كل مفسدة. ثم نظم أمر الادارة وعادت المياه الى مجاريها، وعين سمو الأمير علي بن الحسين (جلالة الملك علي) أميراً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم الشريف النبوي وقائداً عاماً لها.

الوهابية والوهابيون ـــ معارك ومقدرات

وأُمرت انا بالرجوع الى الطائف بالجيش الشرقي الذي تحت أمرتي، بقصد تأديب الشريف خالد بن لؤي بوادي الخرما؛ وهذا كان قد اعتنق المذهب الوهابي وطرد قاضي الخرما الشرعي وقتل الأبرياء كما قتل الشريف بعيجان ـــ وهو أخوه من أمه وأبيه ـــ لأنه لم يطعه على فساده، ثم أخذ يغير على مَنْ لم يدخل في هذا المذهب من العشائر التابعة للمملكة الهاشمية الحجازية. وكان الملك المرحوم قد وجه الشريف حمود بن زيد بقوة تأديبية الى الخرما، فلم يستطع عمل شيء، فغلب، ثم بعث مرة أخرى فغلب وجرح؛ فأمددته وأنا بوادي العيص بقوة كافية تحت قيادة المرحوم الشريف شاكر بن زيد، فذهب بها وبعد تلكؤ بمرّان توجه الى الخرما ونزل بشرقيها في الوادي نفسه، فهوجم وهو في منزله وغُلب ايضاً كما غلب الشريف حمود قبله. فجهز المرحوم قوة اخرى، وبعث بها معه ومع الشريف الأمير عبدالله باشا بن محمد بن عبدالله بن عون، فبقيت هذه القوة بحضن، وهو الجبل المعروف الذي ورد فيه الحديث (من رأى حضناً فقد انجد).

وأُمرت بان اتجهز حالاً وان اقصد الخرما رأساً من المدينة المنورة، فحاولت منع هذا الأمر والدخول فيه لأسباب جمة، اولها سأم الناس من الحرب ضد الأتراك واستغناء الجنود المستأجرة مالياً، فقد أثروا

وامتلأت جيوبهم ولم تعد لديهم رغبة في حرب او جلاد. فاستأذنت بأني أحب القدوم الى عشيرة ــ وهي ماء شمال الطائف وبها آبار عذبة على طرف الحرة في حد سهل من جبل ــ لأبعث بالاثقال وما لزوم له من اسلحة ثقيلة الى الطائف واتشرف بلثم اليد الملكية، فوافق رحمه الله على ذلك. ولما وصلنا الى عشيرة وجدناه بها فأقمنا ثلاث ليال حاولت بهن صرف جلالته عن متابعة هذه الخطة وأن يسمح بجلب الأميرين عبدالله وشاكر كي يفي بالغرض المقصود.

وقد جاء في خدمة جلالته حسين روحي افندي، كاتم سر المعتمد البريطاني بجدة، وقال لي:

ان بريطانيا نصحت بعدم متابعة الحرب ضد الوهابيين، وانها ترى مقابلة الدعاية بمثلها، وانها تعلم ان بيد الوهابيين قوى نشيطة متعصبة ينبغي اخماد نارها بالحكمة، وإن ما وقع على الشريف حمود في المرتين السابقتين وعلى الشريف شاكر في المرة الاخيرة يثبت هذا الظن، وان جلالة الملك له من المسائل في البلاد العربية كالشام والعراق ما ينبغي ان ينصرف لها دون غيرها.

ولقد كنت أعرف مغزى تبليغاته. ولا أنسى ما كان قد قاله لي الصدر الأعظم ابراهيم حقي باشا من أن أرجو والدي ــ وهو يوم إذن شريف مكة ــ أن يترك المسألة الوهابية وأن لا يساعد سعود بن عبد العزيز بن سعود العرافة على ابن عمه عبد العزيز بن سعود، لأن الحكومة البريطانية احتجت لدى الباب العالي في هذا الشأن، وقال: يجب أن لا ننسى مسألة ابن صباح وحماية انكلترا له فالدولة العثمانية غير متفرغة الآن لمسألة تحدثها بجنوب البصرة وشرقي الحجاز.

وبعد اقامة لم تطل في المدينة المنورة، توجهت الى الحجاز كما مر، وقبل ذلك كتبتُ كتابا الى أمير نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن

آل سعود (جلالة الملك عبد العزيز) أخبره فيه بما تمَّ من نصر في المدينة المنورة وبانقضاء حكم الأتراك على البلاد، محيياً اياه مخبراً له بانني أُمرت بالسفر حالا الى الحجاز لتأديب الشريف خالد بن لؤي الذي خرج عن الطاعة، وانه ليس من قصد سوى هذا، وانني من الساعين لايجاد الصداقة والولاء بين والدي وبينه؛ وفي هذا من الدلالة على حسن نيتي الشيء الكثير. وربما انني لم اكن قد تعديت حد اللياقة في جملة من جمل كتابي في صدد التزامه هو للحركة الوهابية وتشجيع الأعراب كي يعتنقوا هذا المذهب، وخصومة الوالد المرحوم لهذه الدعوة الضالة وسعيه لاخمادها فعلا؛ فقلت انني ساع لايجاد المودة الاكيدة بينكما، وان ليس للعرب من فائدة في التنافر والتناحر، فاحدكم يسوق ليكونوا معه بتمراته والآخر بدريهماته، وسيحاسبكم الله على ذلك.

فهذا ما كان. ولما وصلنا الى عشيرة بالجيش، وجدت المرحوم هناك وكان قد سرَّ بما رأى من قوة ومعدات؛ وكنت عرضت على جلالته قبل وصولي بكتاب بأني أرى لزوم تأخير هذه الحركة زيادة للتبصر وتمحيص الأمر، فأجابني رحمه الله بجواب عرفت منه عزمه وهو قوله:

> يجب عليك ان تتوجه الى الخرما للقضاء على هذه الحركة الفسادية، وان معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم.

ولو علم جلالته حقيقة ما أعرف لكان من الرأي على غير هذا؛ فان قتال العرب ليس كقتال الترك، لأن الأتراك أهل ثقل في الحركات وابطاء، ولا وسائل نقلية لهم، فكنا نهاجمهم متى شئنا وننجو منهم متى خفنا، لسعة حركاتنا ولكوننا في بلادنا؛ ثم كما قلنا آنفاً فان الجند الاجير قد ملأ جيوبه من الأموال واستغنى فهو لا يريد الحرب،

والجند الوهابي حريص على الجنة حسب عقيدته انه إذا قتل دخلها. فأملت انني أمنعه رحمه الله. ولما اختليت به وعرضت عليه فكري، غضب غضباً شديداً وقال: هذا رأي أم عصيان؟ فقلت: اعوذ بالله من المعصية والعصيان، ولكنها النصيحة، فانني عالم بروحية الفريقين. فقال: إذن إن لم تفعل ما آمرك به فأنا متخل عن الملك. فاستعذت بالله وقلت: انني فداء لكم ولرغبتكم وانني ذاهب حسب ارادتكم، وكأني انظر الى مصارع القوم بعيني. وأضفت قائلا: سأصدع بالأمر واسأل الله لجندكم الظفر ولنفسي الشهادة.

فعاد رحمه الله الى مكة وتوجهت بالقوة التي معي الى البديع ـــ ماء عذب بحضن جبل البقوم ـــ وبعثت الى الأميرين عبدالله بن محمد وشاكر بن زيد بان يتركا محلهما وينزلا بالبديع.

وبعد يوم ويوم نزلت البديع، وهو في منتصف الجبل يمينه القسم الجنوبي من حضن ويساره القسم الشمالي منه. وأحببت لقاء العدو به لأنه مركز منيع لا يؤتى الا من وجه واحد، وانني متى تحصنت به وبثثت السرايا وقطعت النخيل وأخذت المعاويد ـــ وهي دواب للسقايا ـــ اضطررت الأعداء الى الجلاء او التسليم؛ وانه اذا اجتمع الوهابيون وقصدوني به، فان الدفاع يكون به أهون وانا متحصن وعلى الماء، ومهاجمونا يمنعهم من البقاء الظمأ.

فأقمت، وانا أبعث اتحقق عن حالة العدو، واذا بأمر سام يرد ويأمرني فيه بالقدوم حالا؛ وفيه انه اذا لم ننفذ ما أُمرنا به فستكون التبعة علينا وانه لا ترسل ذخيرة للعسكر بعد وصول الأمر بثمانية أيام. فعلمت الرغبة الأكيدة وخفت عاقبة مخالفة جلالته، حيث طاعته واجبة معنى ومادة؛ فقررت تنفيذ ما أمر. وبعد التشاور مع من اعتقد اخلاصه من الرؤساء رجحت الاستيلاء على مدينة تربة وحصنها المعروف برمادان،

وهو الذي ضُربت فيه القوة المصرية في حركة الوهابيين الأولين وأُتي على آخرها، وقد كانت هي أيضاً تحت تأثير الحركة الوهابية.

فتحركت بالجيش صباحاً وأمسيت بالقرب منها، وفي اليوم الثاني ضربت وافتتحت، وبها تلقيت كتاباً من الأمير عبد العزيز آل سعود ومآله يعاكس كتابه قبل اسبوع، وهو يقول:

بلغني انك جئت تجر الاطواب والعساكر (هذه لغته في كتابه) تريدنا بنجد وحنا (يعني نحن) ما عندنا بنجد الا الرمث نتظلل به حنا وعولاتنا (يعني نحن وعائلاتنا) فانت اعلم ان اهل نجد كافة جاءوك يمشون مرتهم تسبق رجالهم (يعني المرأة منهم تسبق الرجل) من أقصاهم في الشمال وأدناهم في الجنوب، وانا خرجت ونزلت الصخة (عد بنجد) مثل الفراع. وعليه فانت انكف لديرتك (يعني انكفئ راجعاً الى الحجاز وانا بالحجاز) فان فعلت فأنا امنع الأخوان وان لم تفعل فبصرك بنفسك.

فأجبته حالا:

انني تلقيت كتابك، ولم استغرب ما رأيت من تفاوت بين كتابك الاول والثاني؛ فالتهديدات في الكتاب الاخير لا تتناسب مع ايمان الصداقة والمحبة في كتابك الأول. واما ما ذكرت من ناس جاءوا يقصدونني المرأة تسبق الرجل، فمن هم هؤلاء؟ فان كانوا عتيبة فنحن وهم من عهد محمد رسول الله ﷺ الى اليوم وعهد ظئره حليمة السعدية، من ذلك العهد وهم جيراننا ورعايانا؛ فان صدقت فيما قلت واصابونا فلا فضل لك في ذلك فالغالب هم، وان قدرنا الله عليهم واصبناهم فوالله لا تجد عليهم ولا تحزن ولا ينقصونك. واما طلبك مني الرجوع فهذا لا يليق بان يُكتب الي به وانا لا يقعقع لي بالشنان.

فخابر ان شئت ولي الامر بمكة، وانا مستمر في عملي متوكل على الله.

كان كتابي في هذا المعنى، وبعثته اليه مع رسوله. ثم مضت ايام واذا بجموع الوهابية تصل الى الخرما وتجتازها الينا، وقد اغارت خيلهم على سرحنا وتقابل الخيلان وقدر الله فطردوا. وبعد ليال ثلاث جاءوا بمجموعهم يجرون الحجر والشوك، وهم عشائر مطير الدويش ومن معه، وعشائر حرب اهل نجد، وعشائر عتيبة وعلى رأسها سلطان بن بجاد الملقب بسلطان الدين، وعشائر الدواسر، وعشائر قحطان، وكافة سبيع اهل نجد والسهول، وسبيع اهل الوديان.. يزاحمون الخمسة والعشرين الفاً. وكانت القوى التي معي، من حيث قوة النار، لا بأس بها، وأما العدد فكان الجند النظامي خمسمائة والجند من اهل الحجاز والارهاط المكتوبة ثمانمائة وخمسين. فصبحونا بالخرما وكانت الملحمة حيث استشهد من الاشراف ثلاثة وخمسون في صفنا، ولم ينج من النظاميين الا ثلاثة ضباط هم الاميرالآي صبري بك والقائد ابراهيم الراوي والقائد حامد الوادي؛ والذي سلم من القوة العربية الحجازية مائة وخمسون رجلا. أما هم فلم يبلغوا منا ما ارادوا الا بعد ان حُصدوا حصداً. وعلى ما قيل لي ان عدة من دخل العدة من نسائهم في الأرطاوية ــ قرية ــ هن سبعمائة وخمسون امرأة، هذه في قرية واحدة. وقد بلغني ان راية أهل الرين لم يرجع منها سوى ثلاثة أنفس. وكان قتلاهم فوق السبعة الاف، والحول والقوة بالله. وكانت نجاتي .منهم معجزة من المعجزات.

أما العقيدة الوهابية فهي عقيدة أعرابية محضة، بحيث وجد محمد بن عبد الوهاب صاحب المذهب ان الاعراب هم التربة الخصبة لهذا الزرع. وعند خروجه مرّ بكثير من المدن لينشر دعواه فلم يفلح، فذهب الى نجد وهنالك وجد الضالة المفقودة، فرمى الناس بالشرك واتهم المسلمين

بذلك. والشرك هو مذهب من يجعل مع الله آلهة أخرى، كمن يعبد الشمس والقمر والكواكب مع الله، مثال قوم ابراهيم عليه السلام ـــ وان الآيات في القرآن الكريم توضح ذلك ـــ ومثل دين العرب قبل الاسلام اذ كانوا يعبدون الأصنام ويقولون انها آلهة تشفع لهم، كاللات والعزى ومنات وما أشبه ذلك.

فمحمد بن عبد الوهاب رمى أهل الملة المحمدية بهذا السهم، وقال انهم ـــ أي المسلمون ـــ يقولون: يا رسول الله، ويقولون: يا رفاعي، ويقولون: يا عبد القادر الجيلاني؛ وهذا دعاء غير الله. أما قوله عن المسلمين انهم يقولون يا رسول الله فقد صدق في ذلك؛ فالمسلمون يقولون يا رسول الله وينعتونه بصفة الرسالة؛ ولا رسول إلا من مرسِل ليبلغ عن المرسِل ما أمر بتبليغه.. فهل رأى محمد بن عبد الوهاب ان الرسول ﷺ أمرهم بغير التوحيد؟ من أين له ذلك وهو ﷺ مبيد الشرك ومكسر الأصنام، والمسلمون معه؟ ألم ير ابن عبد الوهاب، أن في كتاب الله آية لا يمكن لمن يقرأها أن يظن بالمسلمين ما ظنه ابن عبد الوهاب وهو قوله تعالى ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذا انتم مسلمون** ﴾ هذا قول الله وهو بين أيدينا، فكيف بعد هذا إذا قلنا يا رسول الله نشرك، والقرآن نهانا عن الشرك وأمرنا أن نقتل المشركين؟!.

ومن المحزن انتقاصهم حق الرسالة وحطهم من قدر النبوة، وتشبيهه ﷺ بأفراد الناس متناسيا ما جاء في التوحيد من صفات الرسالة والجائز لها والمستحيل عليها، وفي حقه نزلت هذه الآية ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون** ﴾ فقد ميز الله عبده ورسوله عن البشر في دعائه ايضاً بغير

ما يدعو الناس بعضهم بعضاً، وجعل دعاء الرسول كدعاء الناس بعضهم بعضاً عنده محبطة للعمل. وهذه الآية الكريمة ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب مهين والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً** ﴾ ففي هذه الآية نرى أن الله قرن عذاب من يؤذي الرسول بعذاب من يتطاول عليه جلَّ وعلا وجعل عذاب المؤمنين افتراء وبهتاناً.

فالمسلمون يعلمون حق الرسالة فلا يتجاوزونها ولا يتجاهلونها، والمسلمون يبرأون من الشرك والمشركين، ويبرأون من رمي أهل الملة بالشرك أو الكفر. وعلى محمد بن عبد الوهاب ـــ ومَنْ كان معه ومَنْ تابعه على مذهبه الى يوم القيامة ـــ وزر كل دم سفك وكل دم يسفك تحت هذه الدعايات التي لا يراد بها إلا سياسة الدنيا والوصول الى الأغراض النفسانية.

فهم هؤلاء اليوم الى ما كانوا عليه من شرب الدخان، كما انهم ليشربون الخمور، وقد أباحوا لغير المسلمين دخول الحرمين الشريفين. وهم يكرمون أهل الملل الأخرى اكرام التابع للمتبوع ويحتقرون الاسلام والمسلمين. وقد صدوا الناس عن المسجد الحرام، فلا يحج إلا من دفع المكس وأدى الخراج لهم.

وقد ضربت القضية العربية في مركز نهضتها بأيديهم، فمزقت أيدي سبا وذهبت وحدتها، فهي اليوم فوضى متقطعة مشتتة. وماذا عسى أن تفعل جامعة الأمم العربية بعد التفرقة وتأكيدها، إلا أن يبقى كل شيء غير موحد وبأيد عاجزة عن سياسة الأمم وادارة الممالك، فتبقى على عجزها في خطر أثناء الليل وأثناء النهار بلا حول ولا قوة.

ولو علمتُ وعلم من معي أن نتيجة الثورة العربية والنهضة القومية هي هذه، لتبرأنا منها وممن قال بها. فالبلاد المقدسة يحكمها اليوم

بيت نشأ على النهب والسلب والغزوات والغارات وسفك الدماء، يحوط به أناس من الشام ومصر والعراق ممن ليسوا في العير ولا في النفير، كيوسف ياسين ـــ وهو نصيري معروف ـــ وفؤاد حمزة ـــ وهو درزي غير خفي ـــ وحافظ وهبه ـــ وهو تاجر كان يبيع بالكويت ـــ هؤلاء الساسة السادة، وبنهضتنا حصلوا على ما حصلوا عليه، ولا حول ولا قوة الا بالله. والله يعلم أنا لم نرد إلا خير الأمة العربية فيما عملنا واجتهدنا.

أما ما فعله هؤلاء في بلاد الله الحرام، فهو السيطرة والتحقير لأهل الحجاز وابتزاز الأموال والمكوس من الحجاج والمجاورين، للتبذير والانفاق في كل محرم لا يحل. وفوق هذا فان امتيازات النفط التي مُنحت بغير تفكير، جعلت الباب الشرقي للبلاد العربية مفتوحاً على مصراعيه، وأنه كرأس جسر فيه من الأخطار على الأخلاق والدين ما يتجاوز أي خطر عسكري. وكل هذا وقع بدون رأي أرباب الحل والعقد، وبدون رأي أي مجلس تشريعي أو أي مجلس عمومي، ولا لوم إلا على العرب.

بعد تربة والخرما

ولقد عدت بعد الهزيمة التي وقعت، وبعد القتل المريع الذي أردى الألوف وأنا أرى ما سينجم من استفحال أمر هؤلاء على بلادنا، كما وقع. ولقد نصحت لوالدي في أن يترك أمر شرقي الحجاز الى فرصة مناسبة، ريثما يستعد بجند نظامي قادر على كسر شوكة أهل البدع وايقافهم عند حدهم؛ فلم أفلح في نصائحي، وكان مما أراده الله.

كانت الفترة بين واقعة تربة وبين قدومي الى شرقي الأردن، فترة اضطراب وقلق على الوطن ومصيره، وعلى النهضة وأتعابنا فيها، وعلى الوالد نفسه. فلقد وجدته بعد رجوعي الى المركز — أي بعد واقعة تربة وفتح المدينة — على غير علمي بجلالته، وكان مرضه الذي توفاه الله به ابتدأه من ذلك الحين؛ فكان كثير الصلف، كثير النسيان، كثير التردد، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه.. وللمسألة خطورتها.

مثلا كان يظن جلالته أن في توقيف بيع مواد الاعاشة على القبائل أو تحديدها الزاجر لهم عن دخولهم في مذهب الوهابيين، فكان يمنعهم عن أخذ ما يريدون مع أن للبدو مواسم يبيعون فيها أغنامهم وابلهم ويبتاعون لوازمهم السنوية حال بيع ما عندهم، ويعودون بهذه اللوازم على ابلهم، فإذا لم يأخذ الرجل منهم ما يلزمه دفعة واحدة، اضطر

الى أن يأتي مراراً، وفي هذا التعب العظيم عليه وعلى وسائط النقل التي هي الجمال، على بعد المسافات. وكان إذا جاءه أي خبر من أي ناحية وصادف هذا الخبر ظنونه، أخذ بها وعمل بموجبها؛ ولهذا حف به الكثير من أرباب الفساد، فصارت لهم كلمة، والغاية كان لله مراده.

فحججت كسير القلب، وقد أنعم علي بقبضة من سيف مرصع كان لوالده المرحوم، وأحب أن يمنحني هذا السيف بعد الظفر في تربة، ولم تمنعه الهزيمة عن تنفيذ هذه الرغبة. ولقد طلبت إجراء التحقيقات اللازمة في الهزيمة وأسبابها فلم يوافق.

وبعد انتهاء الحج، أمرني بأن أتوجه بالقوات التي جاءت من المدينة المنورة بمعية الأخ الملك علي، الى الخرما، وأنا لا أثق بهذه القوة بعد أن رأيت ما حل بالجيش الشرقي الذي نشأ على يدي، وبعد علمي بأن انكلترا سوف لا تصد ابن سعود مرة أُخرى لو قصد الحجاز. فاعتذرت فغضب، رحمة الله عليه، وأسمعني ما لم آلف منه من كلمات تقريعية شديدة ــ بحضرة الملك علي ــ فتحملت وسكت.

ثم عزم الملك علي على تبديل الهواء بالطائف، وخرج معه مجموع ما جاء به من المدينة المنورة من قوات، واستأذن لي بالخروج معه فأذن رحمه الله فتوجهت. ولما وصلنا الى ذات عرق تشرفنا بأمر ملكي انا والمرحوم الأخ علي، واذا بمنطوق هذا الأمر لزوم توجه احدنا وهو علي بخاصته الى الطائف، ولزوم توجهي بالقوات الى الخرما. فكتبت معتذراً ومصراً بان لا افعل، وانني انصح بترك أي تقدم على نجد قبل الاستعداد الذي يضمن النتيجة، وبعد بناء قوات احتياطية لامداد القوات المحاربة عند الاقتضاء. وأضفت على هذا قولي: انني اذهب كجندي بقيادة أي شخص كان، اذ أصر ولي الأمر على ألا أعود

حياً، ولكن لا أتحمل مسؤولية القيادة ثم أُغلب وأُهزم، فأجر على الحجاز وحوش نجد الكاسرة، وليس في الحجاز اي قوة احتياطية.

فغضب رحمه الله غضباً شديداً.

وبعد مدة طُلب الملك علي الى مكة، وبقيت بالطائف، فأمرت بتشييد سور الطائف وتشييد بروجه وبناء القلعة المعروفة؛ وتم كل ذلك على نفقتي، واصبح الطائف حصناً حصيناً لا يمكن للقوات البدوية التغلب عليه، ولم ينقصه الا الحامية والارزاق الكافية لها ولأهل الطائف فيما اذا حوصر.

اللنبي... كاترو...

وبعد ان اتممت هذا البناء، كانت زيارة اللورد اللنبي لجلالته بجدة، فطُلبت بهذه المناسبة ووصلت الى مكة المكرمة، وعلامات عدم الرضا تلوح على محيا جلالته نحوي. فسافرنا الى جدة، وكانت زيارة اللورد، وكانت المباحثات غير المنتجة سوى ازدياد عدم التفاهم، وكان الموضوع الشام وفلسطين والعراق. ثم كان ان طلب الملك فيصل بعض البطاريات احتياطاً لديه للاستعداد ضد فرنسا، فأرسلت اربع بطاريات صحراء مدافع ميدان واربعة مدافع من تلك التي يسميها الأتراك « ذات القدرة » وهي مدافع نمسوية سريعة الطلقات تجمع بين عمل مدفعية الجبل ومدفعية الصحراء.

وزارني ذات ليلة في ساعة متأخرة من الليل الكومندان (كاترو) — الجنرال كاترو اليوم — وكان يمثل جمهورية فرنسا بجدة، فسألني عن سبب ارسال هذه البطاريات الى الشام — ولم يكن لدي اي خبر عنها — فقلت لا علم لي بذلك. فقال: قد وقع الأمر فعلا. فقلت: وماذا عليكم؟ إن الجيش الانكليزي على وشك الانسحاب، وانا سنواجه تركيا على انفراد، وربما كانت هذه لهذه الناحية. فاقتنع بان لا علم لي أنا بذلك وقال: يجب عليكم ان تستندوا بالشام على فرنسا وان لا تظنوا ان هنالك غير فرنسا. فقلت: نحن لا نحب ان نكلف فرنسا

فيما يتعلق بوطننا، وانا لم ندع للاستقلال لنقع من يد دولة بيد دولة. ورأيت في وجهه علامات العداء فقال: ان لفرنسا من الحقوق القديمة ما لا ينبغي تناسيه. فقلت: ربما كانت هذه الدعوة رائجة ايام تركيا، اما اليوم فالبلاد للعرب وهم اهلها، ومن الممكن اقامة الوداد على التساوي بيننا وبينكم.. والآن نحن بليل وسأقابلك غداً في الساعة العاشرة، بعد أن أسأل عما ذكرت من أمر المدافع المطلوبة من الشام.

ولما أصبحت قابلت جلالة الملك علي، وهو الأمير بالمدينة المنورة والقائد العام بها، فعرضت عليه الأمر، فقال وقع ذلك، فقلت: ولمَ لا تخبروني عنه؟ فقال: هذه مسائل داخلية صرفة، والجيش الشمالي يحتاج الى مواد مكننة، وما المقصود من هذا الا الاستعداد للطوارئ؛ ويمكنك ان تؤمنه عند المقابلة بان الحكومة الهاشمية لا تؤمل في اي جزء من اجزائها الا الوفاء من الدول الصديقة، واذا جد منه شيء فلا تجب اجابة صريحة ولكن أُرجئ الامر لرأي مجلس الوزراء. ثم عرضت الأمر بعد ساعة على جلالة المرحوم فقال: وكيف علم؟ فقلت: بعثات عسكرية وضباط ارتباط في كل يوم يتلصصون الى الدوائر، ولهم عيون أيضاً في محطة السكة الحديدية بالمدينة المنورة. فقال جلالته: هذا صحيح، فافعل كما أشار اليك أخوك.

فرآني كاترو في اليوم الثاني، وكان كلامي معه في دائرة التعليمات التي أخذتها من جلالة الملك علي، فاظهر اقتناعه وخرج. وكاترو هذا رجل ذكي، على شيء كثير من الأدب والثقافة، وهو ذو مكر شديد. وبعد رحيل اللنبي ــ بدون ما فائدة ــ الى مصر، أُمرت بان أعيد له الزيارة فزرته بمصر، وكانت حين ذاك أُعلنت الملكية بسوريا، بالرغم من النصائح التي أسداها الوالد المرحوم في تأخير هذا الأمر الخطير الى ما بعد عقد الصلح وتنازل تركيا عن حقها في هذه الأقطار لأهلها العرب.

وكنت أحمل أمراً بتعييني رئيس الوفد العربي في مجلس الصلح. فقال لي اللورد اللنبي: ان رئيس الوفد هو الأمير فيصل. فقلت له: هو الآن ملك سوريا. فأجابني: ان الحلفاء لم يعترفوا بهذا. فقلت له: ان الذي ولّاه على هذه الرئاسة في مجلس الصلح قد اعتبر الأمر الواقع وعَين رئيساً آخر هو انا. فقال: هذا الأمر لا يقبله الحلفاء. فقلت: وما للحلفاء وتعيين موظف في وظيفته. فقال: هو ما سمعت.

وكان الموقف من أسوأ ما رأيت. فعرضت الأمر الى مكة برقياً، ثم بعدها رجعت الى الحجاز. وقد حدث هناك ما أوجب استقالتي من وزارة الخارجية.

القدوم الى شرقي الأردن

ثم حدثت حوادث الشام وخرق فرنسا حرمة الحق والعهد وهجومها على سوريا والكارثة التي حلت بخروج الملك فيصل منها، ثم ما حدث على الوزراء السوريين الموالين لفرنسا في درعا وطلب أهل الاخلاص من أنصار القضية العربية في سوريا ارسال من ينوب عن الملك فيصل من الشخصيات الملكية في البيت الهاشمي.

وقد كنت حين ذاك لا أشتغل بوظيفة، فاستأذنت والدي وطلبت اليه أن يحملني تبعات هذه الحركة شخصياً، وأن لا تكون الوظيفة كمأمورية حجازية. فأذن لي وتوجهت من مكة المكرمة الى المدينة المنورة، ومنها بالخط الحديدي الى معان فوصلناها بمشقة شديدة ــ لخراب الخط ــ بعد شهر. وكان الوصول بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ الموافق ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠.

وقوبلت بحماس من أهل معان وباديتها. ووجدت هناك الأميرالآي غالب بك الشعلان (غالب باشا الشعلان) وكان هذا يقود فرقة الهجانة العثمانية في المدينة المنورة، ولطالما اصطدمت قواته بالمفارز العربية الهاشمية؛ ثم ترك المدينة الى تركيا وعاد وثبت اخلاصه، وترقى الى ان صار في رتبة أمير لواء في الجيش العربي رحمه الله. ووجدت

هناك الرئيس عبد القادر الجندي (عبد القادر باشا الجندي الآن) والرئيس محمد علي بك العجلوني، والمرحوم خلف بك التل، واحمد التل وغيرهم.

وفي ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ أصدرت المنشور الآتي:

الى كافة اخواننا السوريين

سلام

لا أجد في نفسي أدنى ريب أو أقل شبهة، في أن أبناء الوطن السوري سيتلقون بياناتنا التالية بقلوب ملؤها التصديق والاخلاص. فليعلم أبناء سوريا أن ما أصابهم من الضياع المحزن، من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم في أول سعيهم لتشكيل حكومتهم التي وضعت اساسها على سياسة الولاء والصداقة لكل الأمم على الاطلاق، قد أثر على حواس كل عربي على وجه الأرض. وفي الوقت نفسه نعلم علماً يقيناً أن أبناء سوريا الكرام هم من جملة المفاخر العربية وركن من أركان الجامعة القحطانية والعدنانية، لا يرضون بالذل ولا ينقادون الى من جاء لاهانتهم في عقر دارهم، وانهم لا يعذرون أبناء جنسهم إذا منعوا عنهم يد المعاونة والمدد في مثل هذه الآونة الخطيرة.

كل عربي يعلم انكم يا أبناء سوريا تستنصرون وتستثيرون حميته، ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر. ومن حيث قد توالت علينا الدعوات وصمت آذاننا الصرخات، فها أنا قد أتيت مع أول من لباكم نشارككم في شرف دفاعكم، لطرد المعتدين عن أوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية.

ليعلم من أراد اهانتكم وابتزاز أموالكم واهانة علمكم واستصغار كبرائكم، أن العرب كالجسم الواحد إذا شكا طرف منه اشتكى كل

الجسم. وان الله سبحانه وتعالى لم يترك الأمة سدى بدادِ متفرقة مفتونة بالباطل مغرورة بالكذب وواهن القول.

ليعلم أبناء سوريا أن هؤلاء المعتدين قد عدوكم من جملة منْ أدخلوه تحت عار استعمارهم ووضعوهم في مصاف الزنوج والبرابرة، وظنوا انكم لستم من ذوي الغيرات وأصحاب الحميات. كيف ترضون بان تكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية؟!.. ان رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى، وستأتيكم غضبى، وان غايتنا الوحيدة هي، كما يعلم الله، نصرتكم واجلاء المعتدين عنكم.

وها انا ذا أقول، ولا حرج، بأنني قد قبلت تجديد بيعة مليككم فيصل الأول عن الاكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدي؛ وانني سأعود ان أبقاني الله حياً الى وطني يوم نزوح عدوكم من بلادكم، وعلى هذا اليمينُ بالشرف. وأمركم حينئذ لكم وبلادكم بين يديكم، متعكم الله فيها بالعز السؤدد والرفاهية والمجد.

أتينا لبذل المهج دونكم، لا لتخريب البلاد كما يفترى علينا. وكفانا دليلاً صدق بلائنا في الله والجنسية والوطن، وتعريض النفس للأخطار والمحن؛ وما وضعه عليكم ذلك المستعمر من الضمانات المثقلة اثر اعتدائه عليكم لدليل لا يحتاج الى دليل.

أتاكم ذلك المستعمر ليسلبكم النعم الثلاث (الاعيان والحرية والدكتورية).

أتاكم ليسترقكم فتكونوا غير أحرار.
أتاكم ذلك المستعمر ليأخذ منكم أسلحتكم فتكونوا غير ذكور.
أتاكم ليخيفكم بقوته وينسيكم ان الله بالمرصاد فتكونوا غير مؤمنين.

لذا ندعوكم للحياة والاجتماع والذب عن الوطن، وعدم الاصغاء لكل دسيسة تفل عزمكم وتبدد حميتكم.

وأستعين الله لي ولكم فيما نحن بصدده.

ثم كتبت للنواحي بأنني نائب ملك سوريا، ودعوت أعضاء المؤتمر السوري، للحضور الى معان؛ وكذلك كل ضباط الجيش السوري ومجندوه طلبتهم للحضور الى معان للقيام بالواجب. وتلقيت أجوبة من مشايخ البدو في الشمال غير مشجعة، وكذلك وردتني أجوبة من بعض كبار الضباط العرب يشترطون نقل حقوقهم التقاعدية على الحكومة الهاشمية بالحجاز فيما إذا أخفقت الحركات ضد فرنسا في سوريا، وقالوا إنه إذا قبلت الحكومة الهاشمية هذا يحضرون وإنه إذا لم تقبل الحكومة في الحجاز هذا الرجاء فإن عذرهم قد وضح.

ثم التحق بي الى معان من الذوات المعروفين: عوني بك عبد الهادي، وكامل بك البديري، وذوات غيرهم يفدون ويرجعون. ولقد طلب مني المرحوم كامل بك البديري ثمانين الف جنيه ليؤسس أقلام استخبارات ودعاية، وكذلك طلب نبيه العظمة مائة وعشرين الف جنيه للغرض نفسه؛ وبالطبع فإنني كنت لا أملك شيئاً مما يطلبون، وكان مركزي المالي في غاية الصعوبة.

أما عامة الشعب في سوريا فكانوا على حماس تام. ولقد لاح لي من هذا كله أن الحركة إن لم تكن مؤيدة بالمال، فإنها لا تقوم لها قائمة؛ وكان الظن مني أن الوطنية الحقة ستسوق الناس الى دفع ما يملكون لحفظ أوطانهم وعزتهم القومية.

وكان موقفي بعيداً عن التفاؤل الحسن، ولكن كان الأمر على خلاف ذلك في شرقي الأردن، فقد هرع الناس الي يدعونني الى عمان فكنت

أجيبهم بأنني فاعل إن شاء الله. وكان البرد في ذلك العام في غاية الشدة فأصبت باليرقان.

أما المخابرة بيننا وبين الحجاز، فكانت تجري بواسطة المخابرات اللاسلكية. وأنه ذات ليلة عندما كانت محطة لاسلكي معان تطلب جدة، إذا بها تأخذ جواباً على الموجة نفسها من ديار بكر، فحيَّت هذه تلك وتعارفتا وجعلتا الساعة العاشرة مساء موعداً للتحية بينهما. فأخبرني بذلك غالب بك الشعلان، وفي الليلة التالية تلقيت من صديق لي يسمى عبدالله بك، وكان نائباً عثمانياً عن ديار بكر يعرفني وأنا نائب عن مكة، فحياني ببرقية خاصة. وكان الناس هناك يظنون أن ديار بكر ستلحق بالعراق، وكنت المسمى لملك العراق والمبايع له حين ذاك، فشكرته. وقال لي غالب بك الشعلان إنه يعرف مصطفى كمال باشا شخصياً يوم كانا جميعاً ضابطين في طابور عثماني بيافا، وإنه يستأذن في تحيته وابلاغه سلامي، وتكليفه بأن تتعاون الحركة العربية مع الحركة التركية لنجاة الجهتين، فأذنت له ففعل؛ وقد تلقى الجواب من مصطفى كمال باشا بالشكر والامتنان وأن التعليمات اللازمة قد أعطيت الى كازم قره بكر باشا المتوجه الى الجنوب مع مجرى الفرات، وأن رموزاً جفرية للمخابرات سترسل بصورة خاصة.

وبعد هذا بليال علمت أن الأخ فيصل ــ رحمه الله ــ طُلب الى لندن، وقد كان حين ذاك في كوما بايطاليا. ثم تلقيت برقية من الوالد المرحوم يخبرني بان حكومة فلسطين تشكو من امتناع الأهلين في شرق الاردن من دفع الضرائب، ويأمرني بان لا اربك الحكومات المحلية فيما لها وعليها.

ثم تلقيت برقية من الأخ فيصل من لندن يقول لي فيها انه قد قابل جلالة الملك جورج الخامس وانه ذكرني له وقال انه يعرف الكثير عني، وقال ان الملك وعد ــ وبالطبع كان الوعد حسب الاصول

بموجب رضا الحكومة البريطانية حكومة جلالته ــ بان القضية العربية ستوضع على بساط البحث مجددة، وانه لا ينبغي العمل على ما يهيج الفرنسيين لذلك. وبعد هذا الشرح رجاني الأخ بلزوم الاعتدال وانه سيوافيني بما يجد.

وقد حضر أخيراً صبحي بك الخضرا ومعه رجال من حزب الاستقلال عملوا على تثبيط الهمم وان لا تكون حركات ضد الافرنج، فلم تكن له هناك قوة على ذلك. وأجبت الأخ بانني عامل بما يقتضيه الظرف، غير مقيد بأي وعد، وانه اذا وفق في عمله وعاد ظافراً فسوف لا يجد من الأوطان الا الرضا والشكران. وقد تم الاستعداد بعد ذلك لدخول شرق الاردن.

ومن ظريف ما وقع وانا بمعان، ذلك الكتاب الذي تلقيته من مظهر بك رسلان متصرف السلط ــ مظهر باشا رسلان رئيس الوزراء بشرق الاردن مرة، ووزير التموين اخيراً بسوريا وهو من أعيان حمص ــ يقول لي فيه:

انه بلغ الحكومة الوطنية عزمكم على زيارة شرق الاردن، فان كانت هذه الزيارة لمجرد السياحة فان البلاد ستقابلكم بالترحيب، وان كانت لاغراض سياسية فالحكومة ستتخذ كل الاسباب المانعة لزيارتكم.

فأجبته:

أنني سأزور شرقي الاردن زيارة احتلالية، وأنا عُينت من الحكومة العربية الملكية بسوريا، وانني انوب الان عن جلالة الملك فيصل ويجب ان تعلم ذلك، وانه لمن واجبك تلقي الاوامر من معان والا فسيعين غيرك محلك.

فركب القطار وزارني بمعان واعتذر، وصار أخيراً من أصدق رجالنا في شرقي الأردن.

ثم انه وقع ان عُلقت نشرات بعمان والكرك جاء فيها:

انه بلغ الحكومة البريطانية ورود شرذمة من الحجاز لقتال فرنسا بسوريا، وان الحكومة البريطانية راضية عن هذه الحركة. فالحكومة البريطانية تحتقر كل شخص يلتحق بهذه الشرذمة وتحذر الناس من الالتحاق بها.

وفي يوم الاثنين، في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٣٩، غادرت معان في القطار الى عمان، وقبل تحرك القطار من محطة معان، ألقيت على مودعي الكلمة التالية:

انني الآن مودعكم، وأود أن لا أرى بينكم من يعتزي الى اقليمه الجغرافي، بل أحب أن أرى كلاً منكم ينتسب الى تلك الجزيرة التي نشأنا فيها وخرجنا منها؛ والبلاد العربية كافة هي بلاد كل عربي.

ومن أعجب الحوادث في تلك الأثناء، مقابلة الشيخ يوسف ياسين سكرتير جلالة الملك عبد العزيز لنا في الزيزاء ــ محطة في الطريق من معان الى عمان ــ وقوله لنا:

أرجوكم أن تعودوا الى معان، فان المعتدين البريطان في شرقي الأردن قد انسحبوا الى فلسطين، وأخلوا الطريق لفرنسا كي تخرجكم ان دخلتم.

وكانت يده ترتجف وهو متعلق بشباك عربة القطار، فقلت له: لا بأس عليك ولا خوف علينا. ثم دفعت يده من ملتزمها فانحط الى الأرض.

وفي صباح الأربعاء ٢٢ جمادى الثانية ١٣٣٩ الموافق ٢ آذار ١٩٢١ ــ بعد أن أمضينا ليلة بالزيزاء ــ تحرك بنا القطار الى عمان فوصلناها قبيل ظهر اليوم نفسه.

وقد وصل الي بعمان كل شيوخ الطفيلة والكرك وشيوخ البادية؛ فمن الحويطات حمد بن جازي ومن معه، ومن شيوخ الشمال مثقال باشا الفايز وكافة الصخور وكافة أهل الشمال.

وفي اليوم التالي من الوصول الى عمان — أي يوم الخميس — ألقيت خطاباً جاء فيه:
سروركم بنا وترحيبكم لنا واجتماعكم علينا أمر لا يستغرب. انتم لنا ونحن لكم. وانني لم اغفل كلمة مما جاء به خطباؤكم. ووطنيتكم امر لا يخفى على الكون كله. وضالتكم المنشودة هي عبارة عن حقكم الذي تطلبونه. ويمكنني ان اقول بأن الله لا يترككم هكذا، واني اقول لكم بانه اذا جاء الوقت لاستعمال ما تستعمله الأمم من القوة، عند ذلك تثبتون بانكم وجدتم ضعفاء، ولكن لا تموتوا بلا شرف.

فلا اريد منكم الا السمع والطاعة. وما جاء بي الا حميتي وما تحمله والدي من العبء الثقيل. ولو كان لي سبعون نفساً بذلتها في سبيل الأمة، لما عددت نفسي اني فعلت شيئاً.

كونوا على ثقة بأننا نبذل الأنفس والأموال لأجل الوطن...

وقد قابلني في مقدمة الناس مستر كركبرايد ببزته العسكرية، وكان يومئذ يمثل بريطانيا بعمان، فحياني — وهو كركبرايد الصغير، الأخ الاصغر لصديقي المعتمد الحاضر — فكان يوماً مشهوداً.

وبعد الدخول جرى احتلال المنطقة الاردنية بكاملها. وكانت تصدر الاوامر من عمان. وكان الناس في فترة لا يزور احد أحداً، فالبلقاء للبلقاء وعجلون ولواؤها لعجلون وأهله، والكرك والطفيلة كذلك. فجمعنا كل هذه الأقطار ووحدناها وزال الخلاف بينها.

ثم تلقيت برقية من جلالة الوالد يقول فيها:

ان وزير المستعمرات البريطانية المستر تشرشل موجود بالقدس، وربما طلب زيارة وادي موسى او رغب في ان يدعوك الى القدس ليراك، فاذا كان احد الشقين من رغباته فأتم ذلك بكل اكرام ورعاية.

الى القدس لمقابلة مستر تشرشل

ثم تلقيت مذكرة من السر هربرت صمويل، المندوب السامي البريطاني بالقدس، يدعوني فيها لزيارة القدس ومقابلة وزير المستعمرات، فأجبت الدعوة وتعين اليوم.

ولما وصلت الى السلط، وجدت هناك الكولونيل لورنس ومعه أحد قواد قوة الطيران البريطانية، لمقابلتي والذهاب معي الى القدس. وتعشيا معي بحفل كبير في بيت الوجيه يوسف السكر. وبالليل أخبرني بملخص ما يريد قوله وزير المستعمرات لي من عدم إمكان رجوع الملك فيصل الى سوريا، الى غير ذلك مما سأثبته في المتن بعد هذا.

وتوجهنا في اليوم التالي الى القدس، وتغدينا بالطريق عند المدفع التركي المقذوف في نهير شعيب. وكان معي في سيارتي لورنس، وكانت سيارة عسكرية بريطانية يقودها جاويش بريطاني. وكان معي في الركب كل رجالات سوريا وفلسطين. ورأيت بالنزل في أريحا جل أعيان فلسطين وعلى رأسهم موسى كاظم باشا الحسيني رحمه الله، من علماء وأعيان ومحامين ورؤساء روحيين. فكانت خطب حماسية واجوبة مناسبة.

ثم استأنفنا السير في قطار طويل من السيارات.

ولما أقبلنا على العيزرية، صادفتنا دراجة آلية، فدارت وقال سائقها لقائد السيارة ــ وقد حيا لورنس ــ يجب ان لا تقف عن المستقبلين بالعيزرية. واعلمني بذلك لورنس، فقلت له: ليس من اللباقة ان لا نقف. فقال: لا استطيع الأمر على سيرجنت.. فمرت بنا السيارة مسرعة وكنت واقفاً فيها أحيي الجموع، فامتعض الناس وحق لهم أن يمتعضوا، ولكن ما كان في الامكان إلا ما حصل أو أن يقذف الانسان بنفسه؛ واعتقدت أن القوم حينما يعرفون حقيقة الحال سيعذرونني.

فوصلنا الى دار الحكومة ــ وكانت بالعمارة الألمانية التي في جبل الطور ــ وهناك ثلة عسكرية معها علمها وموسيقاها فحيتني وفتشتها. وكان بالباب السر هربرت صمويل المندوب السامي فقابلني هاشاً وبمعيتي غالب بك الشعلان، فدخلنا الى البهو ووجدنا أن الشاي قد أحضرت موائده وعائلة المندوب هنالك. وبعد التعارف وتناول المرطبات دللت على حجرتي في الجناح الخاص فوجدت هناك حقائبي وهناك أيضاً محمد بك العسبلي المرافق الخاص.

أما السر هربرت صمويل فلا بد لي هنا من ذكر دماثة أخلاقه وجم أدبه وكماله، فهو سياسي محترم كامل. ولقد كان له ذلك الموقف الذي لا أنساه له، وهو موقفه عندما بلغني أن المطلوب من الوالد المرحوم ترك العقبة والسفر الى قبرص يوم كارثة الوهابيين، بذلك اللسان الرقيق والتأثر باد عليه ــ وكان معه الكولونيل كوكس المعتمد السابق ــ وكانت الدموع ملء عينيه فقال: أرجوك أن تخبرني بكل ما يجيش به صدرك فإنني مقدر الموقف. فقلت: لا بأس عليك وانني شاكر لك عواطفك، وهذه الدنيا كثيرة المحن وسنصبر ونحتسب. ثم انه عند انقضاء مدته ورجوعه الى انكلترا قصد السفر الى قبرص لزيارة الوالد المرحوم الذي عرفه بعمان يوم أن زار شرقي الأردن. وهذه أمور يجب عليّ أن أذكرها له بكل امتنان، والمنة لله.

ثم لما حان وقت العشاء، اجتمع الكل في البهو الكبير، وفيه المستر ونستون تشرشل؛ فحصل التعارف وجلسنا على المائدة، فكان هو الثاني عن يمين المندوب السامي وكنت الأول عن يسار الليدي صمويل. وفي أثناء الطعام قال لي وزير المستعمرات مستر تشرشل: ماذا وقع « في الشجرة »؟ لقد عصفت عناك عاصفة عصابة فاعتدت وقتلت، ولقد تلقيت من الحكومة برقيات تشير الى هذا الحادث الذي يعزى وقوعه الى تأثيرك؛ ولكن لي منكبان ضخمان يحتملان عنك احتجاج الحكومة. فقلت: أشكر فخامتك — أقول ذلك وأنا أبتسم — على انه لم يبلغني خبر هذا الحادث إلا من فخامتك الآن، وانني لم أتعهد لأحد بأي تعهد في معناه منع الناس عن الدفاع عن أوطانهم. والتفت اليّ غالب بك الشعلان فسألته، فقام عن مقعده وضرب رجلا برجل



صاحب المذكرات والى يمينه الليدي صمويل، والى يساره السير هربرت صمويل فالمستر تشرشل وعقيلته فالسير وندهام ديدس (في دار الحكومة بالقدس سنة ١٩٢١)

فحياني تحية عسكرية وقال: لعلها حركة لصوص غير مقصودة، أما الهيئات الوطنية فهي في انتظار أوامرك فيما ستفعل. وبالطبع تُرجمت هذه العبارات على مَنْ بالمائدة، وكان الوزير قد تعجب من غالب بك.

ثم انتهى العشاء وأديرت السجاير والسيجار على مَنْ يدخن. وكنت حين ذاك أتنشق، فأخرجت علبة سعوطي، وهي علبة ذهبية منمقة بالميناء الأخضر وعلى سطحها أشعة شمس غاربة في شفق أحمر غاية في الظرف، فطلب اليّ العلبة فقدمتها له وبها نشوق افرنجي يسمى بالتركية (رنده)، فتناول منه ضمة فعطس وضحك. ثم قمنا عن المائدة على وعد الاجتماع به صباح الغد في الساعة التاسعة والنصف.

كانت المقابلة كما ذكر وفي الساعة المعينة، واحتوى المجلس من الانكليز وزير المستعمرات مستر ونستون تشرشل، والمندوب السامي السر هربرت صمويل، والسكرتير العام لفلسطين سر وندهام ديدس، والكولونيل لورنس، وكنت بقيد الجلسة. وكان من الجانب العربي أنا وعوني بك عبد الهادي. ففتح الحديث وزير المستعمرات بذكر المقاصد الطيبة التي جمعت بريطانيا والعرب في الحرب وبالآمال المنوطة بتلك الروح وبذكر التعاون الذي حصل في الحرب، ثم ذكر جهود بريطانيا في الحيلولة بين حدوث ما حدث بين فرنسا والعرب، ثم قال: لذلك ولأن انكلترا محايدة في القضية بين العرب والفرنسيين — وهم حلفاؤها — فإنها تنصح — وهو يبلغ هذه النصيحة الي — بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سوريا وسفره الى العراق ليرشح نفسه لملك العراق. وأن الحكومة الانكليزية تعلم أن فرنسا لا تشتغل بوجه من الوجوه مع الملك فيصل أو الأمير زيد، وأنها لا تريد أن ترى على عرش العراق إلاَّ الشخص الذي تعتمد عليه؛ وأن طلاب عرش العراق كثيرون منهم ابن النقيب، ومنهم ابن سعود، وخزعل خان، وأنه يجب علي أن أساعد على هذا الغرض وأؤثر على والدي أن يقبل



صاحب المذكرات والى يمينه الكولونيل لورنس، والى يساره ماريشال الجو سالموند فالسير وندهام ديدس (في دار الحكومة بالقدس سنة ١٩٢١)

به، وأن أؤثر على العراق أن يرضوا بالأمير فيصل وأن أبقى أنا هنا في شرق الأردن على تفاهم معهم، فأسير بالناس سيرة تبتعد عن تحدي الفرنسيين؛ وأنه إذا تم هذا فإنه يؤمل أن تعيد فرنسا النظر في الأمر، وبالنتيجة فإنه يعتقد الاستطاعة بعد ستة أشهر في أن يهنينا برجوع الشام الى أيدينا.

وأما فيما يخص فا طين، فنوه بالوعد المنصوب المنسوب الى بلفور، وقال أنه لا يستطيع البحث في هذا الشأن لأن الأمر سيترك للمندوب السامي. فقلت: إن كنتم ترغبون ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق لأنكم تعتمدونه، فأنا يسرني تكييف ملك العراق وأن أخي كفء لذلك، وسأحض والدي على أن يسير على هذا المنهج. وأما أهل العراق فلا أستطيع أن أكتب اليهم ما يؤيد مرغوبهم لأنني لم أكاتب أحداً منهم الى الآن. فأصر، وثبتّ أنا على رأيي.

ثم قال: انكم إن لم تفعلوا هذا ستضيعون كل شيء، وإنه في إمكان ابن سعود أن يصل الى مكة في ثلاثة أيام، وإن انكلترا عملت ما تستطيع، فقلت له: أما فيما يخص بابن سعود وفيما ذكرتموه من إمكان دخوله مكة في ثلاثة أيام فذلك ممكن ومن الممكن أن لا يتمكن... واذا أرادت العرب استبدال بيت ببيت فذلك من حق العرب. ولكن ما هو مركز ابن سعود اليوم في نظر بريطانيا؟ هل هو ملك أو سلطان أو شيخ عشيرة أو ماذا؟! فنهض عن كرسيه الى الشباك، ووضع يده اليسرى على خاصرته، ثم التفت الى لورنس وقال له: قل للأمير إن هذا السؤال لا أستطيع الرد عليه الى أن أسأل الوزارة.

ثم قلت له: أما فيما ينبغي ان اعمله هنا فانني اوافق على وجاهة الرأي، ولكن لا استطيع قبوله حتى أعرضه على زعماء البلاد وأحزابهم، وهم هنا معي ومن غاب فله من يمثله، وأجيبكم غداً في مثل هذه الساعة. وأما أهل فلسطين فهم يرفضون وعد بلفور ويصرون على عروبة

فلسطين، وكذلك هي، ولا نستطيع ان نرضى بفناء اهل فلسطين من أجل يهود العالم، وانهم ليسوا كالنبات او الشجر كلما قلم نبت، ولهذا شأن يطول. فقال: لقد اتعبناك، واننا لننتظر جوابك في الغد.

وقد اجتمعت بالذوات الذين معي والذين ذكرت اسماءهم في مقدمة هذا البحث فوافقوا اجماعا. وفي الوقت المعين من اليوم الثاني، أبلغت الخبر وتقرر ان يزور المندوب السامي عمان لوضع الاساس للاتفاق على تشكيل الادارة في جميع نواحيها: الجيش والمال والمعارف والعدلية وسائر الفروع.

اول حكومة في شرق الاردن
مجلس المشاورين

وفي أوائل شهر نيسان ۱۹۲۱ أُلفت أول حكومة في شرق الأردن سمي رئيسها « الكاتب الاداري » وهو يرأس مجلس المشاورين المؤلف ممن يلي:

الكاتب الاداري ورئيس مجلس المشاورين ووكيل مشاور الداخلية	رشيد بك طليع
نائب العشائر	الأمير شاكر بن زيد
قاضي القضاة	الشيخ محمد الخضر الشنقيطي
مشاور العدلية والصحة والمعارف	مظهر بك رسلان
مشاور الأمن والانضباط	علي خلقي بك
مشاور المالية	حسن بك الحكيم
معاون نائب العشائر	السيد أحمد مريود

وبتاريخ ۱۷ نيسان حضر لزيارتنا في عمان السر هربرت صمويل المندوب السامي لفلسطين، يصحبه المستر ديدس السكرتير الاداري المدني، والكولونيل لورنس، واللورد ادوارد هاي؛ وفي اليوم التالي القى المندوب السامي خطاباً جاء فيه:

كان من دواعي شرفي أنني حظيت بمقابلة صاحب السمو الأمير عبدالله بدار الحكومة في القدس، بمناسبة زيارته لفلسطين، كما حظيت بمقابلة المستر ونستون تشرشل أحد أعضاء الوزارة الانجليزية.

إن الحكومة البريطانية ترحب بالفرصة السانحة للتعاون في شرقي الأردن مع سمو الأمير عبدالله، الذي لها في حسن نيته وصداقته كل ثقة؛ وهي تقدر قيمة الصداقة وحسن النية التي تجلت في خلال هذه الحرب الضروس التي دارت رحاها في كل هذه المدة الطويلة؛ وتعلم الحكومة البريطانية كما تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في ذاك الكفاح وترغب في أن توطد في زمن السلم دعائم التحالف الذي بني في خلال هذه الحرب.

فأجبته قائلا:

إنني أشكر فخامتكم على خطتكم القومية، وأقول بالاجابة عن نفسي وبالنيابة عن الحاضرين أن الأمة العربية ستبرهن على أنها قادرة على تحقيق الآمال التي وضعت فيها وأنها جديرة بكل ما تساعدهم فيه حليفتهم الكبرى.

وفي منتصف شهر أيار ١٩٢١ وقع حادث الكورة. وبتاريخ ٥ تموز ١٩٢١ جرى تبدل في مجلس المشاورين، على أثر استقالة رشيد بك طليع واعادة تأليفه المجلس، وكان هذا التبدل عبارة عن جعل مظهر بك رسلان مشاوراً للمالية بدلا من حسن بك الحكيم وتعيين رشدي بك الصفدي مشاوراً للامن والانضباط بدلا من علي خلقي بك وادخال غالب بك الشعلان في المجلس بعنوان « مشاور القيادة العامة ».

مجلس المستشارين

وفي منتصف شهر آب سنة ١٩٢١ استقال رشيد بك طليع وحل محله مظهر بك رسلان وألفت الحكومة على الوجه الآتي، وقد أبدل عنوان المجلس فصار يسمى مجلس المستشارين، ودعي الرئيس برئيس المستشارين:

رئيس المستشارين والمستشار المالي	مظهر بك رسلان
نائب العشائر	الأمير شاكر بن زيد
مستشار الأمور الشرعية	الشيخ محمد الخضر الشنقيطي
مستشار الأمن والانضباط	رشدي بك الصفدي
مستشار القيادة العامة	غالب بك الشعلان
معاون نائب العشائر	السيد أحمد مريود

وخلال شهر تشرين الثاني أُلغيت مستشارية الأمور الشرعية، وأضاف رئيس المستشارين الى نفسه لقب المستشار الملكي وعين شكري بك شعشاشة وكيلاً للمستشار المالي.

وفي بداية شهر شباط ١٩٢٢ حضر من دمشق أحمد حلمي بك وعين مستشاراً للمالية.

وفي أوائل شهر آذار ١٩٢٢ وصل رضا الركابي وألف حكومته الأولى بتاريخ ١٢ آذار ١٩٢٢ و١٤ رجب ١٣٤٠ بعنوان رئيس المستشارين وعين الرئيس السابق مظهر بك رسلان مستشاراً ملكياً، وبقي كل من نائب العشائر والمستشار المالي في منصبه.

وفي أوائل شهر أيار ١٩٢٢ وصل ابراهيم بك هاشم وعين مستشاراً للعدلية، ثم جاء الشيخ سعيد أفندي الكرمي خلال شهر آب ١٩٢٢ وعين قاضياً للقضاة.

الى لندن

وفي يوم الثلاثاء المصادف ٣ تشرين الأول ١٩٢٢ و١٢ صفر ١٣٤١ سافرت وبمعيتي الركابي باشا الى أوربا؛ وقد عدت تاركاً الرئيس هناك، فوصلت عمان في أوائل كانون الثاني ١٩٢٣ — ١٤ جمادى الأولى ١٣٤١ وفي اليوم التالي ألقيتُ على الوفود البيان التالي:

ليس من عادتي كتابة خطاباتي ثم تلاوتها، ولكن في سوء تصرف الرواة وتحريف بعضهم للقول وأهمية الموضوع ما يحملني على ما ترون؛ ولذلك اتلو عليكم ما سيأتي:

لا شك في انكم تتطلعون الى ما ستسمعونه عن رحلتي المعلومة، وانتم محقون في ذلك وعليه أقول: اعلموا ان هذه الرحلة كانت لصالحكم وانها والحمدلله فيها كل ما هو مطابق لمصالحكم ورغائبكم، خصوصاً امر استقلال منطقتكم فانه الجزء المهم من سلسلة التشبثات التي ستطلعون على تفاصيلها ان شاء الله تعالى، بعد قدوم دولة رئيس المستشارين المتخلف لانهاء هذه الأغراض.

وعلاوة على هذا اقول لكم انني رجعت وكلي رجاء في الوصول بمشيئة الله الى النتيجة الحسنة فيما رمت اليه النهضة العربية المستندة الى الآمال القومية، وانني كما قلت للجموع في موقفي هذا عند قدومي

الى هذه المنطقة كما تتذكرون، من انه لو كانت لي سبعون نفساً فقدتها كلها في سبيل القومية والوطن لما رأيتني قمت بالواجب.

ولكن لخدمة الوطن وجوهاً ولكل وجه سبب، وأفضل تلك الوجوه الآن وفي كل آن، أسلمها عاقبة وأقلها ضرراً. ومع انني عالم بثقل لوازم الوطن ومقتضياته ومتاعب الوصول الى غاياته، اقول ان كل هذه الصعاب ستذلل ان شاء الله بالحكمة القومية والتعقل العبقري اللذين ورثتموهما عن ابائكم مع الاتكال على الله تعالى في كل الاحوال.

ويحسن بي القول هنا أيضاً أنني قد عدت من هذه الرحلة وأنا مشاهد آثار المودة البريطانية التي سنجني باستمرارها حقائق المنافع المرموقة، كما وانني عظيم الرجاء في أن الحكومة الجمهورية الفرنسية الفخيمة الموجودة الآن على الوجه المعلوم بالقسم الشمالي من وطننا المحبوب، لا تحمل حقداً على قوميتنا وقضيتنا، واننا بمشيئة الله سنصل قريباً الى اسعاد الوطن كله بتعضيد دولتي التحالف الكبيرتين وانكشاف الآمال الشريفة القومية على الوجه المطلوب.

هذا وقبل أن أختم قولي أريد أن أثني على رجال حكومتنا الذين قاموا في غيابنا بما أودع اليهم من الأمور حق القيام، كما وانني أشكر للاهلين جميعاً حميتهم الوطنية وائتمارهم بأوامر الحكومة وانصرافهم الى أعمالهم التي تعود عليهم وعلى وطنهم بالخير والسلام.

وهنا أعلن بلسان الصرامة تأكيد عزمي السابق من جعل هذه البلاد بلاد دعة وأمان، ترتاح لحسن إدارتها أقطار محبيها، خالية من وجود شكاوى قاطنيها ومجاوريها. وأتعشم أنني أصبت بهذه الصورة ما يرتأيه محبو الوطن وطالبو الخير له. والله الموفق لما فيه النجاح والمصوب لما فيه السداد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حادثان هامان

أما الركابي باشا فقد عاد من أوربا فوصل بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٩٢٣ ولكنه استقال في غاية الشهر المذكور.

ويجدر بنا أن نذكر حادثين هامين حصلا في زمن الركابي: أولهما تأديب الكورة في صيف سنة ١٩٢٢ ورضوخ كليب الشريدة وجماعته، وثانيهما اعتداء الوهابيين على قبائل بني صخر في اليوم الثالث عشر من شهر آب ١٩٢٢، وقد دام القتال من فجر ذلك اليوم الى ضحى اليوم الثاني، وكان عدد المغيرين نحو الف وخمسمئة قتل منهم لا أقل من ثلاث مئة رجل.

الحكومة الرسلانية الثانية

وفي ١ شباط ١٩٢٢ ألّف مظهر باشا رسلان الحكومة للمرة الثانية على الوجه الآتي:

رئيس المستشارين	مظهر باشا رسلان
نائب العشائر	الأمير شاكر بن زيد
قاضي القضاة	الشيخ سعيد افندي الكرمي
المستشار المالي	احمد حلمي بك
المستشار القضائي	ابراهيم بك هاشم

اعلان استقلال شرق الأردن

وفي ٩ شوال ١٣٤١ الموافق ١٥ ايار ١٩٢٣ أُعلن استقلال شرق الأردن في حفلة رسمية حضرها رجال الحكومة ووفود من فلسطين، وقد وصل لهذه الغاية من القدس المندوب السامي السر هربرت صمويل يصحبه الجنرال كلايتون. وقد ألقيتُ الخطاب التالي:

أيها الشعب الكريم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. وبعد فان الله سبحانه وتعالى قد بعث محمداً والعرب منكمشون في جاهليتهم المظلمة وماضون في حروبهم الداخلية والطوائل والاحقاد مستحكمة في أفئدتهم، فوحد كلمتهم وألف بين قلوبهم وجمع بين اهوائهم وقادهم الى ما فيه طريق رشادهم وأخرجهم من الضلال الى الهدى وملكهم الدنيا وهم آبون كارهون، ورب قوم يقادون بالسلاسل الى الجنة. وتركهم على خير ما ترك نبي أُمّته فجزاه الله عن العرب خيراً وﷺ. ثم خلف من بعده الخلف الصالح وهم الخلفاء الراشدون، فاتبعوا سنته وفتحوا الفتوح وأسسوا دعائم الدولة العربية وشادوا لهم من المدنية صرحاً. فبه ﷺ وبهم رضي الله عنهم، كان للعرب ما كان من المفاخر المادية والمعنوية حتى أصبحوا مصابيح الوجود ونباريس الكائنات. وكلكم تعلمون ماضي دولكم من أمويين وعباسيين وأندلسيين وفاطميين، كل

ذلك كان بالاقتداء بتعاليمه ﷺ وبالاعتصام بالوحدة في الرأي والعمل وبالائتمار باوامر من كانت بيده مقاليد الأمور وبنى عليه الأمل.

ثم شاءت الأقدار الصمدانية للحكمة الأزلية أن يقلب الدهر للعرب ظهر مجنه، ويصحبهم بكوارثه ومحنه، فأصابهم ما أصاب غيرهم من الأمم وضرب التخاذل بينهم بجرانه، وعمت التفرقة وانتشرت الفوضى وتسلطت الأعاجم على أهم أمورهم ومراكز ادارتهم وشؤونهم، فوقع على الدولة العباسية ما وقع وأضاع العرب ما اكتسبوه بالأنفس والنفائس، وظلوا بعدها كما تعلمون الى أن أذن الله بالحرب العامة في أثناء انتباه الأفكار العربية وسعيها لاعادة مجدها السابق وعزها الغابر، فوقعت النهضة العربية المباركة على يد من اختاره الله سبحانه وتعالى قواماً لها وقائداً لأمورها، فنادى الى الحق فايقظ الهاجد في عماه ونبّه الغافل في كراه، وخاض غمار الحرب العامة في أشد أوقاتها خطراً متكلا على الله وعلى قومه، والنصر من عند الله، فكلل جميع أعماله بالنجاح لائتمار العرب أثناء الحرب بأمر واحد واتباعهم مركزاً واحداً.

ثم اني لا أرى هنا حاجة لذكر ما عقب الهدنة من الاستعجال المشمومة منه رائحة الانقسام، والذي أدى لمصابنا في أهم أجزاء وطننا وأحبه، والذي أخر النتيجة المطلوبة، مما يجب أن يكون محلا للانتباه والحذر من الآن فصاعداً، ويوجب الاستمساك بوحدة الرأي والعمل؛ كل ذلك كان من الأقدار الآلهية، حرسنا الله مما فيه غضبه ووفقنا لما فيه رضاه.

وانني في هذا الموقف بعد الشكر لله سبحانه وتعالى، أخبركم بما تم على يد صاحب الجلالة الهاشمية وصاحب الحشمة الامبراطورية البريطانية من العهد الضامن إن شاء الله لكل الرغائب، واشترك معكم بكل سرور في هذه الحفلة بما كان قد تم في أثناء وجودي في لندن من اعتراف الحكومة الفخيمة البريطانية باستقلال هذا القسم من

المملكة العربية. ولا شك بأن ذلك أيضاً من نتائج السياسة الحكيمة التي اتبعت هنا ومعاضدة الحكومة البريطانية العظمى.

ويسرني جداً أن أعلن شكري لحضرات المستشارين والذوات الذين ساعدوني على السير في هذه الخطة الحكيمة، وللشعب المتمسك بحبال وطنيته الصادقة وأمانيه الحقة وسيره الحكيم والطاعة لأولي الأمر والثقة بأعمالهم المعقولة التي تكللت بالنجاح. وانني لا أشك في أنه سيثابر على سيره بعد الآن كما سار بالأمس، وأننا نبشره بأن حكومتنا ستشرع في اعداد القانون الأساسي للمنطقة وتعديل قانون الانتخابات بما يوافق روح البلاد وطبقتها وبيئتها.

وبهذه المناسبة لا يمكننا ان نغفل عن الشكر للحكومة البريطانية العظمى، حليفة العرب وعضدهم القوي في السياسة العربية منذ النهضة العربية المباركة حتى الآن. ولا ريب ان العرب اثبتوا في جميع الظروف والأحوال حسن ولائهم وصداقتهم لحليفتهم العظمى، كما انه لا يسعهم الا ان يكونوا مدينين لها بالشكر الجزيل لاعترافها لهم باستقلال البلاد العربية كافة وتعضيد العرب على تأليف وحدتهم وفاء بعهودها. واني لآمل ان يكون موقف الدولة الفرنسية الفخيمة تجاه قضيتنا العربية المقدسة وتجاه القسم الشمالي الباقي من وطننا المحبوب آخذاً بها الى عهد جديد كاف للدلالة على احترام أبناء الثورة الفرنسية لحرية الأقوام واستقلالها.

وان المساعدات التي قام بها شخصياً كل من فخامة المندوب السامي المحترم وسعادة كبير المعتمدين المستر فلبي الموقر نحو هذه المنطقة، لجديرة بالاطراء. واننا ننوه هنا بذكر الهيئات الوطنية والشيوخ والوجوه كافة والرجال العاملين الذين عضدونا في السير الى هذه الخطوة المحمودة، وآزرونا في السعي خلال عامين في هذه المنطقة، موآزرة اعترف البعيد والقريب بصلاح نتائجها وشهد آثارها الجميع.

واني لآمل ان يكون هذا اليوم يوماً سعيداً للأمة تتخذه عيداً تظهر فيه سرورها وحبورها. ومنه تعالى نستمد العون ونسأله ان يطيل بقاء وتوفيق جلالة أمير المؤمنين مولانا الحسين بن علي بن محمد بن عون. والله ولي التوفيق.

وبعد ذلك القى فخامة المندوب السامي الخطاب التالي:

اني أرغب بالنيابة عن جلالة الملك جورج الخامس وحكومته، ان اقدم اصدق التهاني لسمو الأمير عبدالله وأهالي شرق الاردن، وبالحقيقة الى جميع العرب بمناسبة هذا العيد السعيد.

اننا ندخل اليوم في طور عظيم الأهمية في تاريخ الأمم الكبير. فبعد ان كان للعرب عصر مجيد اشتهر بالادارة والآداب والفنون والعلوم تقهقروا تحت اضطهاد دولة دخيلة غير راقية، ولكن الحرب الكبرى منحتهم فرصة لتحرير انفسهم؛ فقد اشتركت جيوش بريطانيا العظمى تساعدها الجيوش العربية بقيادة انجال شريف مكة المكرمة مع القوات العثمانية في حرب طال أمدها، وتكللت الثورة العربية ضد تركيا بالتعاون مع حملة الحلفاء بنجاح تام. وقد مهدت السبل الآن لنهضة عربية يتوقف انتشارها وأهميتها على العرب انفسهم.

ان فصل هذه البلاد عن المملكة العثمانية وضع على عاتق بريطانيا العظمى مسؤولية تجاه عصبة الأمم، الجمعية الجليلة القدر التي تمثل رأي القسم الاكبر من العالم المتمدن، وستنجز الوعود التي أعطيت لجلالة الملك حسين في اثناء الحرب ووفقاً لهذه الخطط اعترف بشريف مكة ملكا مستقلا. وقد نصب جلالة الملك فيصل ملكا على العراق واعطي سلطات فعلية. وقد عقدت معاهدة مع الملك حسين حديثاً وستعلن نصوصها قريباً، وهي تدل على ان النهضة العربية قد دخلت في طور جديد.

وها نحن نحتفل الآن بالاتفاق الذي عقد مع سمو الأمير في اثناء زيارته لجلالة الملك جورج والحكومة البريطانية، ولا يخفى عليكم ان الاتفاق ينص على اعتراف حكومة جلالة الملك بوجود حكومة مستقلة في شرق الاردن برئاسة صاحب السمو الأمير عبدالله بن الحسين، شرطاً ان توافق جمعية الأمم على ذلك، وان تكون حكومة شرق الاردن دستورية تمكن حكومة جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية فيما يتعلق بتلك البلاد، وذلك بواسطة اتفاق يعقد بين الحكومتين.

ولم تنقض سنتان على استلام الأمير ادارة شرق الأردن، حتى خرجت من طور التشويش واختلال النظام الى طور سلام وتقدم متزايد. فاستفاد من هذا التحسين جميع الاهالي على اختلاف طبقاتهم سواء في المدن والقرى او بين الفلاحين والبدو. والأمل وطيد بان التقدم سيثمر بدرجة متزايدة. والفضل في ذلك يعود ايضاً الى المستشارين الذين اختارهم سمو الأمير، وأخص بالذكر منهم مظهر باشا رسلان الذي ارغب ان أقدم له التهاني الخالصة لنيله هذه الرتبة الجديدة.

ان الحكومة البريطانية تفتخر انها استطاعت الاشتراك في ذلك التقدم باذلة لحكومة الأمير مساعدة فعلية معنوية. وقد تمتعت هذه الحكومة بمساعدة مالية أيضاً مما سهل ايجاد قوة سيارة منظمة ووحدات اركان الأمن العام في هذه البلاد. وقد وضعت طيارات وسيارات مصفحة تحت تصرفها اذا دعت الحاجة اليها، وقدم لها مستشارون سياسيون وعسكريون عند الاقتضاء. وسعت حكومة جلالة الملك في الوقت نفسه ان لا تتدخل في الاخلال في ادارة الامير، وقد اصبح استقلال ادارة الأمير أمراً حقيقياً.

واسمحوا لي ان اذكر في هذا المقام عظيم تقديري لأسباب شخصية للصداقة التي استحكمت حلقاتها بيني وبين سمو الأمير؛ ويسرني اني

تمكنت بالفعل من تعضيد التطورات التي جرت مؤخراً، سواء كان فيما يتعلق باستقلال شرق الاردن او التقدم الناشئ عن المعاهدة مع الحجاز.

واني آمل من صميم الفؤاد أن الحزم السياسي وروح التساهل وحسن تدبير الأمور الادارية التي امتازت بها حكومة الأمير ستدوم طويلا بعناية الله تعالى، لتعكس ضياء جديداً على سموه وتؤدي الى دوام خير ونجاح الأهالي الذين تحت سلطته.



سمو الأمير عبدالله وحوله لفيف من كبراء عمان سنة ١٩٢٣، يرى منهم الى يسار سموه المرحومان حسن خالد باشا أبو الهدى وعلي رضا باشا الركابي من رؤساء الوزارة في شرق الأردن.

مجلس الوكلاء

وبتاريخ ١١ حزيران أصدرنا الارادة السنية بتبديل لقب رئيس المستشارين بلقب رئيس مجلس الوكلاء، ولقب قاضي القضاة بوكيل الأمور الشرعية، والمستشار المالي بوكيل الأمور المالية، والمستشار القضائي بوكيل الأمور العدلية.

مجلس النظار

وعلى أثر حادث العدوان استقالت حكومة مظهر باشا وعهد بتأليف الحكومة الى حسن خالد باشا أبو الهدى بتاريخ ٢٤ محرم الحرام ١٣٤٢ الموافق ٥ أيلول ١٩٢٣ فألفها كما يلي وسمي مجلس الوكلاء (مجلس النظار).

رئيس النظار	حسن خالد باشا
نائب العشائر	الأمير شاكر بن زيد
قاضي القضاة	الشيخ سعيد أفندي الكرمي
ناظر المالية	أحمد حلمي باشا
ناظر العدلية	ابراهيم بك هاشم
ناظر المعارف	علي خلقي بك

اول برنامج وزاري

وقد كانت الظروف آنئذ تستدعي وضع برنامج حسب إشارة أبديناها، فاتخذ مجلس النظار قراراً بإذاعة البرنامج التالي:

١ ــ تأييد العلائق الودية والروابط الاقتصادية الحسنة بين حكومة شرق الأردن وانكلترا وفرنسا.

٢ ــ تعزيز الأمن العام والضرب على كل يد عابثة بالسكينة وفقاً لموجبات المصلحة وما يقضي به العدل.

٣ ــ رعاية الحال الاقتصادية وتخفيض الرواتب والنفقات جهد الاستطاعة والاستغناء عن الوظائف الزائدة.

٤ ــ إصلاح طرق توزيع الضرائب وجبايتها بصورة تكفل مصلحتي الخزينة والأهلين معاً.

٥ ــ ترجيح تعيين الاكفاء من أبناء المنطقة على غيرهم في الوظائف.

٦ ــ السعي وراء نشر المعارف وتسهيل المواصلات بتزييد المدارس وانشاء الطرق وتعميرها الى غير ذلك من أمور الاصلاح.

المنقذ الأعظم في عمان ومبايعة جلالته بالخلافة

في يوم الجمعة ١١ جمادى الثانية ١٣٤٢ الموافق ١٨ كانون الثاني ١٩٢٤ شرف جلالة المنقذ الأعظم مدينة عمان.

وبتاريخ ٥ شعبان ١٣٤٢ الموافق ١١ آذار ١٩٢٤ بويع جلالته بالخلافة وأصدر المنشور التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم
الحسين بن علي

الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله أفضل الصلاة والتسليم وعلى آله وصحبه وكافة أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما بعد فإني أسأله الرأفة والرحمة بعباده والتوفيق، وأن يجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، فإنه هو الرحيم المنان الكريم. ثم أنه لما كانت الإمامة الكبرى والخلافة العظمى نظام عقد الأمة وسند

قوام الملة، وكان أمر صيرورتها وكيفيتها وما جرى فيها مدوناً ومنقولاً عمن تلقينا عنهم ديننا القويم، وكان كل ما جرى من بعد عهدهم السعيد في كيفية حقوقها وصلاحيتها وسائر معاملاتها إلى يومنا هذا موضحاً في تواريخ العالم الاسلامي وسيره المثيرة، فإقدام حكومة أنقرة على ذلك المقام المكرم كيفما كان شكله، جعل أولي الرأي والحل والعقد من علماء الدين المبين في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورها من البلدان والأنصار يفاجئوننا ويلزموننا بيعتهم بالإمامة الكبرى والخلافة العظمى، حرصاً على إقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين أبسطه لعدم جواز بقاء المسلمين اكثر من ثلاثة أيام بلا إمام كما يفهم صراحة من توصية الفاروق الأكرم رضي الله عنه لأهل شورى البيعة بعده كيفما كانت صيغة تلك الإمامة وأشكالها الى الآن.

وعليه ولما كانت المملكة الهاشمية والقطعة المباركة الحجازية مهد الاسلام ومحل ظهوره ومطلع نوره، وكانت مصونة بعنايته تعالى من كل شائبة في حالتيها السابقة والحاضرة، ولا سيما العمل فيها بأحكام كتاب الله وسنة رسوله بجميع خصوصياته وعمومياته وانطباق حكم البيعة المشروعة من المبايع والمبايع له انطباقاً لا يتصور حصوله في اي مملكة اخرى في الوقت الحاضر، كان حقاً علينا اجابة ذلك الطلب الديني المشروع بعد الاتكال على الله سبحانه واستمداد روحانية نبيه ﷺ.

لذلك قبلنا البيعة متوكلين عليه عز وجل، مستمدين منه الغوث والعون والتوفيق لما يحبه ويرضاه، واننا نرجوه سبحانه وتعالى ان يكون هذا الامر الذي قضى في حكمته الأزلية وقدرته الصمدانية وأظهر حكمة قوله تعالى ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ مضاعفاً الهاماتنا باتباعنا مسلك السلف الصالح.

نعم انّا لم نعترض البحث في شؤون ذلك المقام الجليل ابان نهضتنا،

لا بل الى قبيل جرأة انقرة على الكرامة كيفما كانت وضعيته، وذلك حذراً من توسع شقة الاختلاف لئلا يتخذه أعداء الاسلام وسيلة للتعريض بمكانته، ولا نكلف سوانا بما لا يراه عملا بقوله تعالى ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته فربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا** ﴾ ومع هذا فهو المسؤول ان يجعل هذه البيعة مدار ألفة للمسلمين تضم قاصيهم ودانيهم وتسوقهم الى حسن التآلف مع مجاوريهم من أبناء دينهم وسكان بلدانهم من أهل الكتب السماوية وسائر مواطنيهم بما القته اليهم الشريعة الاسلامية وتطبيق ما فرض في امر ﴿ **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** ﴾ وكل ما أوجبه عليهم من المنكر، مؤملين منهم حسن القيام بكل ما هو في معنى هذا مما أوجبه الله عليهم فرداً فرداً وجماعة جماعة، وبالأخص العلماء والاعلام في اقطار الإسلام كافة.

وانه لما كانت العائلة العثمانية ممن سبقت لها خدمات لا تنكر ومفاخر لا تستحقر للاسلام والمسلمين، ولما كان الحكم الأخير عليهم مما تتفتت له الأكباد وتتفطر منه المهج، رأينا من واجب أخوة الاسلام أن تهيِّئ لها ما يساعدها بما يقوم بأودها ويدفع عنها الغائلة في امر معاشها.

فمن أحب الاشتراك في هذه المثوبة العظمى من سائر أرباب الشهامة، فعليه أن يشعر رئاسة وكلائنا بمكة المكرمة بما يريده؛ والله جل شأنه وتعالت قدرة سلطانه يعلم أن غايتي الوحيدة هي خدمة الإسلام وأقوامي ابناء الجزيرة خصوصاً والمسلمين عموماً، فهو المسؤول وحده لا شريك له وان يجعل لنا واياهم منه ولياً ويجعل لنا من لدنه نصيراً، وهو المستعان وهو ولي التوفيق ولا حول ولا قوة الا به، والصلاة والسلام على خير خلقه وآله وصحبه اجمعين.

الحكومة الركابية الثانية

وغادر جلالته شرق الأردن عائداً الى مكة يوم الخميس في ١٤ شعبان ١٣٤٢ الموافق ٢٠ آذار ١٩٢٤.

وفي أوائل شهر نيسان ١٩٢٤ وصل المعتمد البريطاني الكولونيل كوكس وباشر عمله.

وبتاريخ ٣ أيار ١٩٢٤ الموافق ٢٩ رمضان ١٣٤٢ ألف الركابي وزارته الثانية كما يلي:

رئيس النظار	رضا باشا الركابي
نائب العشائر	الأمير شاكر بن زيد
ناظر المالية	حسن خالد باشا ابو الهدى
قاضي القضاة	الشيخ سعيد افندي الكرمي
ناظر العدلية	ابراهيم بك هاشم

وقد ذكر في برنامج وزارته انه سيتبع الصدق والاخلاص في القول والعمل، والعزم والحزم في الأمور، وتوزيع العدل بين أفراد الشعب، والمراعاة التامة للقواعد الاقتصادية والكفاآت في الوظائف والموظفين والنفقات، وقمع بذور الفساد وما يُسيء السمعة بكل شدة وعدم التحزب والتحيز، والتعاضد والتكاتف في جميع أمور الاصلاح وصيانة المنطقة من الأحوال المخلة بالأمن والسعي وراء انعقاد المجلس النيابي تدريباً للامة على الحكم الدستوري.

تطورات...

غادرنا البلاد قاصدين الحجاز يوم الجمعة بتاريخ ٢٤ ذي القعدة ١٣٤٢ الموافق ٢٧ حزيران ١٩٢٤، وعدنا يوم ١٩ محرم ١٣٤٢ الموافق ١٩ آب ١٩٢٤ وبينما كنا في الطريق ـــ يوم الخميس في ١٤ آب ١٩٢٤ ـــ اعتدى الوهابيون مرة أخرى على شرق الأردن، فطُردوا وتَركوا خمسمائة قتيل وعدداً عديداً من الجرحى.

وكانت قد حصلت في غيابي حوادث تخل بالأمن في جهة سوريا، مما أدى لأن توجه الحكومة البريطانية انذاراً طلبت فيه بسط المراقبة المالية دون قيد وشرط واخراج المتهمين بالتحريض في حوادث الحدود والغاء نيابة العشائر، الى غير ذلك من شروط أخرى. وفي اليوم التالي لوصولي البلاد ألقيتُ على أركان الحكومة ورجالات البلاد الخطاب الآتي:

بمناسبة رجوعنا من الحج واظهار الأمة عواطف اخلاصها، أولا أشكر الأمة على عواطف حبها واخلاصها، ثانياً احمد الله الذي منَّ عليَّ برؤيتكم مرة ثانية.

لقد وقع إبان سفرنا حادثان في هذه المنطقة: الأول حادث الوهابيين الذي دُفع بالتنكيل الشديد بهمة الأهلين والقبائل وقوة الحق؛ واننا لا

ننسى في هذا الشأن مساعدة المصفحات والطيارات البريطانية. والثاني حادث العصابات في جنوبي سوريا الذي أدى الى دخول قسم من الدرك البريطاني الى هذه المنطقة.

انكم تعلمون اننا قدمنا الى هذه الديار ونحن لا نألو جهداً في خدمتها وتحسين شؤونها، وغرضنا الوحيد من كل ما نسعى اليه هو الوصول الى الغاية التي نتطلبها كلنا وهي تحرير بلادنا جميعها تحريراً تاماً بالحكمة والنظام.

ومما لا ريب فيه ان الأمم لا تصل الى غاياتها إلا بالعقل، والعقل يكون بالنظام، والنظام هو الذي يوصل الى الغاية المنشودة. أما الذين ينصاعون الى الفوضى ولا يدخلون البيوت من أبوابها، فيسلكون غير طريق الحق والنظام، هؤلاء ليسوا إلا خطراً على بلادهم مهما حاولوا تبرير أعمالهم.

نعم نحن خرجنا من الحرب العامة لنكون أصحاب بلادنا، ولكن من هو الذي يقول اننا على أهبة في وسائلنا وأوضاعنا لمقاومة الأمم؟!.. إن المقاومة التي تجلب الشر ليست سوى جريمة، والشجاعة الحقيقية هي في معرفة الانسان نفسه وسلوكه مسلك الحق والحكمة وأن يسعى قبل كل شيء في إعداد نفسه ليكون رجلا أو أمة.

أنا لا أخون الله والأمانة التي أودعت الي، بل أجهر بالحق ليسمع الجميع. ان كل من يعبث بالأمن في سوريا وفلسطين من دعاة الفتنة نعتبره خارجاً علينا، إذا ما سولت له نفسه استخدام هذه المنطقة الآمنة في مناحي هواه، لأننا لا نريد أن تجني هذه البلاد ذلا بسوء تصرفات أولئك العابثين. وأني لأقول لكم اسمعوا وأطيعوا فإن الطاعة لا بد منها في محافظة الكيان.

لقد سألت بعد وصولي عن سبب ورود سرية الخيالة البريطانية والأربع مصفحات الى عمان، فأخبرت بأنها جلبت بسبب حادث الوهابيين تعزيزاً لقوة الطيران. وبناء على ايضاحاتنا الكافية كتب سعادة المعتمد البريطاني الى مرجعه بعدم لزوم بقائها. أما القوة الثانية التي دخلت إربد فسوف لا يعود لها لزوم أيضاً حينما يتضح الأمر بانقطاع الأسباب الموجبة لقدومها.

إنكم لتعلمون أن الأمم التي انتدبت لمساعدة العرب هما انكلترا وفرنسا، ونحن لا نستطيع التعاون مع هذه الأمم إلا بالاخلاص والدربة والحكمة، حتى إذا وثقتم بأنفسكم وسلكتم مسالك الأمم وتمسكتم بالمبادئ المشروعة وصلتم الى كامل حقوقكم ونلتم ما تصبو اليه نفوسكم.

أنا لست بالجبان، واذا وقعت مصيبة لا بد لي من الموت؛ غير أنني في الأربعين وباستطاعتي أن أخدم أمتي، فلا أريد أن أضحي بنفسي من غير روية بل لا أريد أن أؤلب على العرب دولتين عظيمتين. وحسبي أن أقول لكم أن اليقظة العامة والتيار الذي أوصل الأمم الى حقوقها سيوصلكم الى حقوقكم، والأمم كلها سائرة في طريق التقدم.

إن الذين يشجعون رجال العصابات أو يقبلون حمايتهم في هذه المنطقة إنما يخونون أنفسهم وبلادهم. نحن لا نريد أن نكون خطراً على غيرنا. الدنيا بيت واحد، والأمم المتمدنة قد توحدت مصالحها حتى أصبحت كعائلة واحدة، إذا اختل النظام هنا اختل هناك.

نحن نريد الحياة من طريقها المشروع، وأنا لا مصلحة خاصة لي في هذا الجزء المحبوب من أجزاء الوطن العربي؛ والقضية بصفتها قضية محلية هي قضيتكم والوطن وأمتكم.

نعم أنا رجل للحجاز وسوريا وفلسطين واليمن ونجد وكل بلد عربي، وسأبقى عربياً أعيش للامة العربية كلها؛ وأشهد الله أنني لأتألم لكل كارثة تقع على العرب. لذلك فإني لأود أن لا تحمل نصائحي على غير اليقين بأن الحقيقة يجب أن تقال وأن تسطع كالشمس ليراها الجميع.

أنا شخصياً أريد أن أسعى لازالة كل ما يجول برأس الحكومة الفرنسية الفخيمة نحو هذه المنطقة من الريب، وسنبرهن للجميع على أننا أمة تريد أن تعيش بشرف وبحق الحياة ليس إلا.

إنني والحمد لله أقول أنني لم أرَ حتى الآن من بدو هذه البلاد وحضرها إلا كل ما يسر، ولي معكم مجالس أخرى سأتحدث بها اليكم بأشياء تتعلق بمصالح الوطن.

وبعد فإن جلالة مولانا أمير المؤمنين يقرئكم السلام. وقد قضى الحج في هذا العام بالصحة التامة والحمد لله. واخواننا الحجاج من سائر الأقطار الاسلامية قد أقبلوا على البيعة بكل ثقة. وجلالة الملك المعظم ما زال عاملا على توثيق علائق الود مع حلفائه. فنسأل الله دوام التوفيق وأن يجنبنا العثرات ويمدنا بروح من عنده.

تنازل الحسين عن العرش

وفي منتصف شهر صفر سنة ١٣٤٣، ويوافق ذاك التاريخ منتصف شهر أيلول أيضاً من سنة ١٩٢٤، هجم الوهابيون على مدينة الطائف، وعقب ذلك نشوب الحرب بين الحجاز ونجد.

وبتاريخ ٥ ربيع الأول ١٣٤٣ تنازل جلالة المنقذ الأعظم عن العرش وبويع بالملك صاحب الجلالة الملك علي بن الحسين.

وفي الثلث الأخير من الشهر المذكور، وصل جلالة الملك حسين الى العقبة، حيث بقي فيها ما يقارب الثمانية أشهر، ثم غادرها بتاريخ ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٣ الموافق ١٧ حزيران ١٩٢٥.

وبتاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٤٣ الموافق ٢٤ حزيران ١٩٢٥ أصدرنا الارادة التالية:

نظراً لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك علي المعظم، ملك البلاد المقدسة الحجازية أيده الله وأدام نصره، ضم ولاية معان والعقبة الى امارتنا، اقتضى اصدار ارادتنا اليكم اعلاماً بذلك، مع الشكر الدائم لجلالته الملوكية الهاشمية منا ومن شعبنا وحكومتنا.

وفي اليوم التالي أي يوم الخميس وصلنا معان، وكان معي رئيس النظار، وجرت مراسيم الانضمام الرسمية، ورفع علم شرق الأردن، واعتبر يوم ٢٥ حزيران ١٩٢٥ التاريخ الرسمي للالحاق.

الحكومة الخالدية الثانية
المجلس التنفيذي

وبتاريخ ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٤٤ الموافق ٢٦ حزيران ١٩٢٦ الّف حسن خالد باشا ابو الهدى حكومته الثانية. وقد عرض، في العريضة التي ضمنها أسماء زملائه الذين اختارهم، انه ينسب تشكيل مجلس تنفيذي برئاسته وأن يحل هذا المجلس محل مجلس النظار وتودع اليه صلاحياته. وقد وافقنا على ذلك، أما المجلس التنفيذي فألف كما يلي:

رئيس النظار وناظر الداخلية	حسن خالد باشا
قاضي القضاة وناظر العدلية	الشيخ حسام الدين افندي جارالله
السكرتير العام	عارف بك العارف
محافظ الآثار	الدكتور رضا بك توفيق
مدير النافعة	عبد الرحمن بك غريب
مستشار المالية	كركبرايد بك

وقد جاء في برنامج الحكومة انها تسعى قبل كل شيء الى أن يخضع كل فرد للقانون كما تحترمه هي، وان ذلك الضمان الكافي لايجاد الثقة بين الأمة والحكومة، وانها ستتبع الصدق والصراحة والاخلاص في جميع تصرفاتها وتضمن العناية بشؤون المدافعين ورعاية

مصالحهم، وتطلب اليهم الابتعاد عن التدخل في الشؤون السياسية وهي عازمة على وضع نظام خاص يعين حقوقهم وواجباتهم، وانها ستولي الأمن العام والشؤون المالية والاقتصادية والمعارف والصحة جل اهتمامها، وستسعى لحفظ علائقها الودية مع حكومات المناطق المجاورة وتوقيعها، وستصرف عنايتها الخاصة لتأسيس مجلس تشريعي يمثل طبقات الشعب كافة فيشرف على التشريع ويعاون الحكومة في الأمور الداخلية في اختصاصه الذي سيعينه الدستور.

هذا هو ملخص برنامج الحكومة، وقد كان برنامجاً طويلا حوى التفاصيل الكثيرة عن الأمور التي احتواها هذا التلخيص. وكما أن مجلساً تنفيذياً حل محل مجلس النظار، فقد أشار البرنامج الى أن مجلساً تشريعياً سيحل محل المجلس النيابي الذي مر ذكره في برامج ومناسبات قبل تأليف هذه الحكومة.

ان وجود مستشار المالية في المجلس التنفيذي لم يدم طويلا، ففي ١١ ايلول ١٩٢٦ خرج منه بناء على تشبثات جرت مع الجانب البريطاني، وحل محله مدير المعارف السيد أديب وهبه. ثم بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٢٧ أُخرج من المجلس مدير النافعة وهو موظف مستعار من حكومة فلسطين، وحل محله ابراهيم بك هاشم الذي عين آنئذ مديراً للخزينة. وبعد مدة أُدخل في المجلس التنفيذي توفيق ابو الهدى بدلا من الدكتور رضا توفيق، وبعد ذلك بسنة حل محل السكرتير العام الذي كان مستعاراً من حكومة فلسطين فعاد الى محله هناك.

وبتاريخ ٢٦ آذار سنة ١٩٢٨ نشر نص المعاهدة الأردنية البريطانية، الموقع عليها في القدس بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٨ من قبل اللورد بلومر وحسن خالد باشا. وبتاريخ ١٩ نيسان ١٩٢٨ نشر القانون الأساسي لشرق الاردن. وبعدئذ اصدر قانون انتخاب اعضاء المجلس التشريعي.

واجتمع اول مجلس تشريعي للنظر في المعاهدة واقرارها بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٤٧ الموافق ٢ نيسان ١٩٢٩، وقد استمر درسها ومناقشتها مدة شهرين، ثم صُدقت بتاريخ ٤ حزيران ١٩٢٩.

وقبل ان يعقد المجلس التشريعي دورته الاعتيادية في شهر تشرين الثاني ١٩٢٩، رأى حسن خالد باشا الذي صار يلقب (برئيس الوزراء) بحكم الدستور، ان لا يظل في المجلس أحد من المستعارين ـــ وكان لا يزال فيه الشيخ حسام افندي جار الله والدكتور حليم ابو رحمه ـــ وان يدخل في المجلس اثنان من اعضاء المجلس التشريعي المنتخبين؛ فاستقال ليؤلف وزارة جديدة على هذا الأساس، وألفها فعلا. الا ان تجربة الاستفادة من أعضاء منتخبين من المجلس التشريعي لم تنجح، فأعطي لهذين العضوين مركزان في الحكومة، وانفصلا عن صفتهما الانتخابية في المجلس حيث انتخب عضوان بدلا منهما.

استمرت حكومة حسن خالد باشا في الحكم مدة تقارب الخمس سنوات، ثم استقالت بعد أن حلت المجلس التشريعي الذي رفض أن ينظر في قانون الميزانية ويلبي طلبات الحكومة.

الوزارة السراجيّة

وبتاريخ ٥ شوال ١٣٤٩ الموافق ٢٢ شباط ١٩٣١ الف الشيخ عبدالله أفندي سراج حكومته، فاحتفظ لنفسه إضافة للرئاسة بمنصب قاضي القضاة ووزارتي الداخلية والمالية؛ وجعل المجلس التنفيذي مؤلفاً برئاسته، ومن السكرتير العام توفيق بك أبو الهدى، ووزير العدلية عمر حكمت بك، ومدير الخزينة شكري بك شعشاعة، ومدير الآثار أديب بك الكايد، والنائب العام عودة بك القسوس. ولقد أعلنت هذه الحكومة منهاجاً مفصلاً أهم ما جاء فيه:

١ ــ شعورها بالمسؤولية المشتركة الملقاة على عواتق أعضائها بمدلول القانون الأساسي تجاهنا.

٢ ــ وعدها بالسعي لتعديل المعاهدة ضمن حدود الامكان والاعتدال.

٣ ــ تعهدها بأن تترك أمر الانتخاب للمجلس التشريعي حراً بعد أن حل المجلس السابق وأن يكون في منجاة من أي تدخل غير مشروع.

٤ ــ الحرص على استعمال الحقوق المعينة في القانون الأساسي والقوانين الأخرى كاملة غير منقوصة مع مراعاة القيود التي نصت عليها المعاهدة.

٥ ــ ما تذكره الحكومات عادة من أمور الاصلاح والتحسين في جميع الأمور النافعة.

وزارة ابراهيم باشا الاولى

بتاريخ ١ شعبان ١٣٥٢ الموافق ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٣ ألَّف فخامة ابراهيم باشا هاشم وزارته، فاحتفظ إضافة الى الرئاسة بوزارة العدلية ومنصب قاضي القضاة، والف المجلس التنفيذي على الشكل التالي:

ابراهيم باشا هاشم	رئيس الوزراء ووزير العدلية وقاضي القضاة
شكري بك شعشاعة	مدير الخزينة
عودة بك القسوس	النائب العام
سعيد بك المفتي	المفتش الاداري
هاشم بك خير	مدير الآثار
قاسم بك الهنداوي	عضو المجلس التشريعي

وقد كان منهاج الحكومة مختصراً، يتضمن العزم على انتهاج كل

خطة للاضطلاع بأعباء المسؤولية وفق رغبتنا بما يحقق أماني البلاد ومصالحها، مع العناية بالشؤون الاقتصادية والعمرانية والحزم في محافظة الأمن والنظام، وتحقيق مطاليب البلاد الدستورية بجميع الوسائل المشروعة.

وبتاريخ ١٩ صفر ١٣٥٢ الموافق ٢ حزيران ١٩٣٤ غادرنا الامارة في زيارة الى انكلترا وقد عدنا بتاريخ ٨ ربيع الثاني ١٣٥٣ الموافق ٢٠ تموز ١٩٣٤.

وبتاريخ ٢٢ تموز ١٩٣٤ أُعلن نص الاتفاق المعقود بيننا وبين صاحب الجلالة البريطانية ملحقاً للاتفاقية المؤرخة في ٢٠ شباط ١٩٢٨ ومعدلا بعض موادها لمصلحة شرق الأردن.

وفي آخر شهر نيسان ١٩٣٧ غادرنا بلاد الامارة مرة أخرى لحضور حفلات التتويج، وعدنا من انكلترا يوم ١٣ حزيران ١٩٣٧.

وزارات توفيق باشا ابو الهدى

وبتاريخ ٣ شعبان ١٣٥٧ الموافق ٢٨ أيلول ١٩٣٨ تألفت وزارة توفيق باشا أبو الهدى، وصار المجلس التنفيذي على الشكل الآتي:

توفيق باشا أبو الهدى	رئيس الوزارة ووزير الخارجية
السيد أحمد السقاف	قاضي القضاة
عبدالله بك الحمود	مدير الخزينة
خلف بك التل	مفتش الادارة
نقولا بك غنما	النائب العام
هاشم بك خير	مدير الآثار

ولقد كان المنهاج في هذه المرة أيضاً مختصراً، تضمن أشد الارتباط بنا والعزم على السعي لأن تكون للبلاد مكانة في المجموع العربي كما لغيرها من الأقطار الشقيقة، من وجود وكرامة مع التمسك بمبادئ القضية العربية التي وضع كيانها المنقذ الأعظم رضي الله عنه، حتى يتيسر الوصول الى غاية العرب المنشودة وهي الوحدة القومية.

وكذلك أشير الى ما يشار اليه عادة من الحرص على الأمن العام والعناية بالمصالح الاقتصادية وتخفيف العبء عن المكلف في الأوقات العسيرة والاهتمام بالمعارف وجميع الشؤون النافعة واتباع النظام الكامل في دوائر الحكومة.

مجلس وزراء بدل المجلس التنفيذي

وفي بداية سنة ١٩٣٩ انتدبنا رئيس وزرائنا للسفر الى لندن ممثلا عنا، لحضور المؤتمر الذي عقد من أجل قضية فلسطين. ولقد انتدبناه للقيام بايصال طلباتنا بشأن تعديل الاتفاقية الأردنية — البريطانية والمفاوضة في هذا الشأن. ولقد اسفرت النتيجة عن اجراء تعديلات أخرى لمصلحة شرق الأردن، وتم الاتفاق كذلك على تعديل القانون الأساسي في أمور كثيرة، وقلب المجلس التنفيذي الى مجلس وزراء اسوة بالبلاد الدستورية وجعله مسؤولا تجاهنا.

وبتاريخ ٦ آب ١٩٣٩ تم تعديل القانون الأساسي، واعتبر الأمير بمقتضى هذا التعديل « القائد الأعلى للقوات العسكرية »، ونص على تأليف مجلس الوزراء وصلاحياته ومسؤولياته. ثم استقال الرئيس وفق التقاليد الدستورية وألفت أول وزارة في هذا العهد الجديد كما يلي:

توفيق باشا ابو الهدى	رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية والعدلية
السيد احمد علوي السقاف	قاضياً للقضاة ووزيراً للمعارف
رشيد باشا المدفعي	وزيراً للداخلية والدفاع
عبدالله بك النمر	وزيراً للشؤون المالية والاقتصادية
نقولا بك غنما	وزيراً للتجارة والزراعة
علي باشاي الكايد	وزيراً للمواصلات

وأعلنت الوزارة في منهاجها عزمها على التمسك بمبادئ النهضة العربية والتآزر مع المخلصين لها، حتى تصل الأمة الى ضالتها ووحدتها باذن الله، وعلى حفظ روابط الاخاء والتعاون الوثيق مع الأجزاء الأخرى من الوطن العربي لكل ما فيه المصلحة؛ ونوهت ان البلاد خطت خطوة طيبة بفضل الخطة المثلى والحكمة البالغة اللتين أبداهما أمير البلاد وما أظهره شعبه الكريم من الاخلاص والطاعة.

صورة رد الحكومة البريطانية البرقي على طلبات شرق الاردن المبلغ بكتاب المعتمد البريطاني المؤرخ في ١٦/٦/١٩٤٤

ان حكومة جلالته قد أولت مذكرة مجلس الوزراء المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٣٤ في وضع شرق الأردن في المستقبل اعتباراً جدياً وعطفاً.

فهي تقدر اسمى تقدير صداقة الحكومة والأهالي ومعاضدتهما غير الملتويتين بزعامة سمو الأمير الرشيدة، وهي تدرك شاكرة ممتنة انها استطاعت في كثير من الفترات العصيبة في العشرين سنة الأخيرة، ولا سيما ابان أشد أيام الحرب الحالية، الاعتماد دون ما تردد على ادارة جميع طبقات الأمة في شرق الأردن وعلى تعاونها تعاوناً فعالاً الى مدى ما أوتيت من قوة ومورد.

ان حكومة جلالته تقدر تقديراً تاماً ان رغبة الشعب الاردني تتجه الى وجوب وضعه على قدم المساواة مع شعوب الاقطار العربية المجاورة، ولهذه الغاية ترحب حكومة جلالته بعقد معاهدة مع شرق الاردن تتلاءم الى حد أقرب مع ظروف الأحوال مما هي عليه اتفاقية سنة ١٩٢٨.

انه لأسباب فنية يجب أن ينظر للمفاوضة في معاهدة كهذه الى نهاية الحرب؛ ولكنه بالرغم من أن العلائق الرسمية بين حكومة جلالته وبين حكومة شرق الاردن ينبغي في الوقت ذاته أن تستمر على ما هي عليه في الوقت الحاضر، فانه سيكون غرض حكومة جلالته أن تفسر هذه العلائق تفسيراً فيه المراعاة لقصدها هذا.

وتعرب حكومة جلالته عما يخامرها من الأسف لما حدث من التأخير في هذه المسألة، فان هذا التأخير لا ينطوي على شيء من عدم المجاملة نحو حكومة شرق الاردن، وانما هو يعزى الى انهماك حكومة جلالته انهماكا كبيراً.

الوزارة الرفاعية

وبعد أن قام توفيق باشا أبو الهدى بأمرنا بإعادة تأليف الوزارات عدة مرات، استقال بتاريخ ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤ وخلفه في منصبه سمير باشا الرفاعي الذي الف وزارته على الشكل التالي:

سمير باشا الرفاعي	رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية والدفاع
الشيخ فهمي أفندي هاشم	قاضياً للقضاة ووزيراً للمعارف
سعيد بك المفتي	وزيراً للداخلية
مسلم بك العطار	وزيراً للمالية والعدلية
هاشم باشا خير	وزيراً للمواصلات
نقولا بك غنما	وزيراً للتجارة والزراعة

وذكرت الحكومة في منهاجها ان المنهاج الأساسي الذي وضعته الوزارة السابقة ــ وكان رئيس الوزراء الحالي أحد أعضائها ــ والذي كان من حسناته ضمان الاستقرار لهذه الامارة السعيد طيلة سني الحرب وفي أخطر أدوارها والذي كان محل الرضا من لدننا، إنما هو بنفسه منهاج الوزارة الجديدة.

وزارة ابراهيم باشا الثانية

وبتاريخ ١٨ مايس ١٩٤٥ استقال سمير باشا، وفي اليوم الثاني الف ابراهيم باشا هاشم وزارته من أعضاء الوزارة السابقة باستثناء هاشم باشا خير، الذي حل محله في مجلس الوزراء دولة توفيق باشا أبو الهدى وتولى وزارة الخارجية.

وأشار منهاج هذه الوزارة الى الحرب، وأنها وإن تكن قد انتهت في أوربا إلا أن أيام السلم تتطلب الكثير من الجهد والبذل وتدعو الى التساند والتعاون التامين للخلوص نهائياً مما خلفته الحرب من مشاكل وأرزاء، ولانجاز ما ارتكنته من مشاريع اصلاحية، وللحصول على ما ترقيه الأمة من استكمال استقلالها وتحقيق آمالها وأمانيها في الوحدة القومية المنشودة. وذكر في المنهاج أن الحكومة لا ترى عرض برنامج لما تعتزمه من أعمال إنشائية، وأن من الخير أن تعلن الأعمال عن نفسها بنفسها، وأن سياستها ستكون الحرص على التعاون الكلي مع دول الجامعة العربية والسعي لاتمام الأهداف التي رسمتها الثورة الكبرى.

وزارات ومعتمد

ومما هو جدير بالذكر في صدد وزارة ابراهيم باشا الأولى، انه قبل أن أعهد اليه بتأليف الوزارة، بعد اقالة الشيخ عبد الله سراج، كان المعتمد السابق ــ السير هنري كوكس ــ عندما سألني عن خلف الشيخ، ذكرت اسم المرحوم حسن خالد باشا، فلم يرعني الا قوله: ارجوك ارجوك. لا استطيع التعاون معه...

وانا لم اقل له حسن خالد باشا، الا لئلا يظهر عدم ارتياحه من ابراهيم باشا؛ لأنني كنت سمعت منه عن فلان وفلان انهما اصلح من يكون لهذه الرئاسة، وقد صار احدهما وزيراً للداخلية ووزيراً للدفاع في وزارة توفيق باشا ابو الهدى، واما الآخر فلم يكن الا نسخة ثانية من هذا الذي لمحت به.

ولم يعترض على ترئيس ابراهيم باشا هاشم، فجاء للوزارة بنشاطه المعروف، وصرف جهود الجبابرة، واستمر الى ان تغلب عليه اليأس، حيث ضيق الميدان القيد الاجنبي الممل.

ولم تكن الحكومة الانكليزية تعرف هذا، مع انني لم أُخفِ متاعب رؤساء الوزارات من تدخل المعتمد السابق فيما ليس له فيه اي حق. وقد اخبرت بذلك المندوب السامي سير شانسيلور، واعلمت السير

آرثر واكهوب، واخيراً انتهت وظيفة السير هنري كوكس في عهد السير مكمايكل، وهي خير خدمة وقعت من مندوب لشرق الاردن. وانا لا اقصد من هذا الحط من قدر السير هنري كوكس، فانه كان يحبني كثيراً ويخلص في عمله لاعتقاده انه يسدي الخير للناس رغم انوفهم.

ثم استقال ابراهيم باشا وجاء الى الرئاسة توفيق باشا أبو الهدى، وكنت أعتقد أنه يرضى بالتعاون معه الكولونيل كوكس، واذا الأمر بالعكس؛ فإنني لما أردت تعيينه للسفر الى لندن يوم تعديل المعاهدة، اعترض ورجح أن أُعين ابراهيم باشا لهذه المهمة، فأصررت على رأيي، ثم أوعز الى السير مكمايكل أن يأتي ليحاول أن أغير رأيي، فجاء وحدثني فلم أُوافق.

وبين يدي سفر الباشا قال لي المعتمد: ان توفيق باشا أصبح لا يعتمد عليه، فقلت: عجيب!.. من أخبرك بذلك؟ انه لدي في منتهى درجات الاعتماد.

وفي اليوم التالي حضر الباشا المشار اليه مع المعتمد، فقلت له: سافر يا باشا وثق بانني معتمد عليك في كل أمر دق أو جل.

وبعد خروجهما زار المعتمد الباشا واعتذر اليه وقال انه يحبه ويعده بالمعاونة النزيهة.

وعند سفر رئيس الوزراء كنت بالغور وكان المعتمد عندي فقال لي: أتسمح يا سمو الأمير لي بأن آخذ رسم توفيق باشا فمن الممكن أن لا يعود من انكلترا؟ فقال له توفيق باشا: خذ رسمي ولكن من الممكن أن أعود فلا أجدك هنا. وكان ذلك فجاء الباشا بالتوفيق وسافر المعتمد.

وجاءت الحرب ومضت، وقد تعب فيها توفيق باشا كثيراً؛ وانها لمهمة شاقة، وان الباشا المشار اليه لمن خيرة رجال العرب، ومن الأشخاص الذين إذا صادقوا يصدقون وإذا عادوا لا يتسترون.

ثم استقال توفيق باشا، ولما لم يقبل ابراهيم باشا الوزارة أحببنا توجيهها الى حامد الوادي باشا، فحالت بعض الظروف دون ذلك؛ فأولينا ثقتنا سمير باشا الرفاعي، وهو من نتاج شرق الأردن، حيث تمرن وتقلب من عهد الركابي باشا الى أن نال الرئاسة وهو بالقرب من الرؤساء وليس بالبعيد منا؛ ولكن كانت مدة وزارته قصيرة، ولكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب.

وانا لنرجو من الوزارة الحاضرة، المتحلية برئيسين سابقين، التوفيق في كل الأمور، وبالأخص في أمر الوحدة السورية التي بها يتم استقرار بلاد العرب ودوام أمرها وسلامتها من الأخطار السياسية وما في التجزئة من وهن وضعف.

المعتمدون البريطانيون

بعد أن تشكلت الادارة في شرقي الأردن على شكلها المعلوم برئاسة رشيد بك طليع، عين مستر أبرامسون معتمداً بريطانياً لدى هذه الامارة، وكان على ما يظهر في العقد الخامس من سنه، وهو رجل محترم وقور، فمكث في المعتمدية نيفاً وستة أشهر.

ولما حضر الكولونيل لورنس الى عمان ومعه حداد باشا للنظر في المعاهدة الحجازية الانكليزية، بقي وكيلا للمعتمد الى أن تهيأت الأسباب فعين مستر فلبي معتمداً بشرقي الأردن، وهو معروف لدى العرب، على شيء كثير من الاخلاص في البلاد التي يعمل فيها.

ومن جملة ما أذكر له ــ كفكرة ظريفة ــ في إحدى الليالي، وقد كان في المجلس شخص طلب أن يكتب كل من حضر المجلس جملة أدبية في دفتره، فكتب مستر فلبي البيت المشهور لعبيد بن الأبرص:
ساعد بأرض ما دمت فيها ولا تقل إنني غريب

وهذا شاهد على ما قلت، وان إخلاصه للملك عبد العزيز بن سعود يكاد يفوق إخلاصه لملكه وبلده. وقد سافر معي الى لندن في السفرة الأولى، ولم يألُ هنالك جهداً في القيام بواجبه، ولقد كان بيننا أحياناً ما يكدر صفو الوداد لصلف يبدو منه، ولقد كان هنا يوم شرَّف

الوالد المرحوم شرقي الأردن وحين البيعة للخلافة، ولقد حرض الناس وحض عليها.

ثم استبدل بالكولونيل كوكس وهذا الأخير له شخصية إدارية، ولا يحب الا أن يعمل مع أشخاص يرتاح اليهم، وكان زمن بدئه عمله زمن حظ سيِّئ لشرقي الأردن وللبيت الهاشمي من حيث هو. فمكث تلك المدة الطويلة، ولولا الصبر والحكمة التي منّ الله بها علينا لكان الامتزاج معه من المستحيلات.

ثم عين أخيراً وبين يدي هذه الحرب، المعتمد الحالي مستر كركبرايد، وهو من أصدقاء العرب القدماء، حيث شهد الحرب السابقة في الجيش الشمالي برفقة الأخ الملك فيصل. وإنه من أعز الأصدقاء لنا شخصياً، فقد ظهر في وقته الشيء الكثير من التوفيق، واستراح في أمر التعاون معه توفيق باشا أبو الهدى بمجموع وزاراته، كما أنه تعاون مع سمير باشا على تلك الوتيرة، وهو الآن مع ابراهيم باشا صديقه القديم على تعاون ونزاهة. وكذلك كان في وكالاته عن المعتمد السابق. واني لأرجو له من كل قلبي مستقبلاً حسنا وصحة وعافية.

المندوبون السامون

سير هربرت صمويل

كنا تكلمنا عن أول مندوب عرفناه في فلسطين وهو السير هربرت صمويل ــ الآن لورد صمويل ــ بما عرفناه عنه؛ وانه لمن الرجال الأفذاذ الذين عرفتهم كوزير ورجل دولة، وكمتفان بحكمة في قوميته. وكانت الليدي صمويل مكرمة للضيف وقورة محترمة.

اللورد بلومر

ان اللورد بلومر هو المندوب الثاني في فلسطين في عهدي، وهو نبيل وقور كريم، ومشير فخيم، لطيف المعشر وصريح. وفي عهده أبرمت المعاهدة البريطانية الأردنية. وفي عهده أنقص عدد الجيش العربي، وأخذت منه المدفعية وانشئت قوة الحدود. ولقد كنت نصحت بعدم فائدة هذه الاجراءات، ولكن لعل ذلك من ظواهر الانتداب. وانه لخير كثير حيث لم تقع هذه البلاد فيما وقعت فيه سوريا التي تعاني من الحكومة الفرنسية الى الآن ما تعاني. ولقد تعاونت مع اللورد بلومر، ولقد عاونني ضمن الحدود التي له ولي.

سير جون شانسيلور

هو ثالث مندوب وهو رجل حليم مدقق. وفي عهده بدأ الشعور القومي ينمو في فلسطين. وكانت أول المظاهرات والثورات واللجان البريطانية للتحقيق، وحوادث البراق. وكان صديقاً حميماً لي.

سير آرثر واكهوب

ان هذا الجنرال هو الثاني من المندوبين السامين العسكريين. وكان كشرارة تتقد، حسن النية جوالا شاطراً. وفي وقته كانت الثورة المعلومة في فلسطين، وفي وقته قيل عن التقسيم. وبهذه المناسبة أتساءل: هل يمكن لعاقل في الدنيا القول بتهويد فلسطين؟!.. انه لمن خير اليهود ومن واجب الذين يحدبون على اليهود أن يقنعوا بما حصل؛ ولتقف الهجرة ولتستقل فلسطين عربية، ولتكن الطائفة اليهودية لها ما لسواها من حقوق لمواطنين فلسطينيين؛ فان محاولة أي حل غير هذا فيه الكوارث والخراب والدمار.

سير هارولد مكمايكل

حضر هذا المندوب السامي الى فلسطين بعد فتور الثورة العربية بفلسطين، ولم يمضِ زمن حتى كانت الحرب الاخيرة فشغلت الناس عن كل شيء. وفي الحق انه أحسن عمله في هذه الفترة الخطيرة من الزمن. وان محاولة الاعتداء عليه من اليهود تري الانسان من هو مكمايكل في نظر اليهود.

اللورد غورت

لقد كنت أتوقع تولية هذه الشخصية الكريمة لهذا المنصب، بعد أن تولى الدفاع عن جبل طارق وعن مالطة. ولقد صدق الفعل الظن؛ فهو المندوب اليوم، وهو ثاني مشير بريطاني يشغل هذا المقام السامي، وهو من النبلاء المعروفين يضرب به المثل في الشجاعة كجندي وكقائد عظيم. وان التراجع العظيم الذي تولاه فأنقذ الجيش البريطاني في أول الحرب من دنكرك، يريك من هو لورد غورت. وإنه في مركز شديد الخطورة، وفي بلد أموره شديدة التعقيد؛ يواجه العرب ومن ورائهم الاسلام في هذه الدعوة الصهيونية. وانا لنرى فيه خير رجل لهذا الوقت في فلسطين.



سمو الامير عبدالله والى يساره البروفسور ريجنالد كوبلاند، فاللورد بيل، فالسير هوراس رمبولد

الجيش العربي

حين تشكيل إدارة شرق الأردن، جرى الحديث بين رشيد بك طليع والسير وندهام ديدس السكرتير العام لحكومة فلسطين حين ذاك، عن ايجاد قوة لتأمين الأمن الداخلي في البلاد وعلى حدودها؛ بعد ما دار من حديث بيننا وبين مستر ونستون تشرتشل. وكنت رأيت لزوم تشكيل فرقة نظامية بما تحتاج من الصنوف العسكرية المقبولة حين ذاك، من مشاة ومدفعية وخيالة، وأن تكون مركبة من ثلاث كتائب، كل كتيبة مركبة من ثلاثة أفواج، وكل فوج مركب من ثمانمائة نفر، مع ما يتبع هذه الكتائب من مدفعية جبلية ومدافع ميدان ورشاشات، وأن يكون فوج فرسان مركب من الف وخمسمائة رمح أو سيف أو فلنته (بنادق صغار) مع السيف أو الرمح فقط.

ولما جرى البحث بين رشيد بك طليع والسير وندهام ديدس، لم تقرب الحكومة البريطانية الى تأييد هذا بالمرة، معتلة بفداحة المصاريف، ولكن رضيت بأن تُضمم القوة التي جاءت معي من معان وهي مركبة من متطوعين نظاميين الى القوة السيارة، وهي قوة فرسان كانت موجودة في شرق الأردن بقيادة الكبتن بيك وهو (الفريق بيك باشا أخيراً) ورضوا بأن تكون معها بطارية جبلية وأن تتكيف من قوة درك في المناطق الثلاث: عجلون والبلقاء والكرك، هذا عدا قوة البوليس.

فدأب الكبتن بيك بصفته مفتش الجيش وساعده فؤاد بك سليم وعبد القادر باشا الجندي ومحمد علي بك العجلوني وغيرهم من حضرات الضباط العرب، وكانت هذه القوة جديرة بالاعجاب في سرعة تنظيمها وتدريبها وفي لباسها وسائر مقتضياتها.

ولقد قامت بواجبها أثناء حركة الكورة بسير جبريّ من الكرك الى عجلون، فوصلت سيراً على الأقدام في أربعين ساعة، وتمكنت من إرضاخ كليب الشريدة ومن معه وانصياعهم الى القانون. ثم كانت موفقة أيضاً أثناء حركة البلقاء المعروفة وبعدها.

وفي عهد الكولونيل كوكس، يوم أن كان لورد بلومر مندوباً سامياً وكان المستر سايمس سكرتيراً عاماً، وبين يدي المعاهدة الأردنية الانجليزية، أنقصت من قوة الجيش العربي قسم المدفعية وأنشئت قوة الحدود؛ وكانت هذه عملية غير متناسبة بالنسبة للقرارات الأولى.

ثم تعين كلوب بك قائداً لقوة البادية، بعد أن تحقق فعلا عدم اقتدار قوة الحدود على أي شيء يودع اليها في نواحي البادية. فبنشاط كلوب بك وبالقابلية الحربية في البدو ظهرت قوة البادية بالشكل الموجب للفخر.

وبعد أن أُسندت قيادة الجيش للقائد الحاضر وحدوث الحرب الحاضرة وثبوت صداقة شرق الأردن واخلاصنا لقولنا وعهدنا، توسع الجيش العربي الحاضر فأصبح مفخرة للبلاد، ولا ينقصه من الأسلحة الجديدة سوى قسم الطيران والمدفعية الثقيلة. وان للفريق كلوب باشا الهمة والجهد المخلص في هذا الباب. فقد قام هذا الجيش إبان مضاعفات الحرب الحاضرة بعملية مهمة في العراق وبمساعدات قيمة أثناء طرد فرنسا الفيشية من سوريا.

وإنا نثبت فيما يلي البرقيات الوارِدة من القواد الانكليز في هذا الصدد:

يا صاحب السمو المعظم

الآن وقد رجع الفريق كلوب باشا وفرقة جيشكم العربي الى عمان، بعد قضائهم ذلك الأمد القصير المظفر في العراق، أجد لزاماً عليَّ أن أسجل الشرف العظيم الذي تولاني بانضمامي الى رجالكم البواسل في المعركة. وليس ذلك فحسب وانما تقديري الشديد لعملهم الباهر كجنود.

ان أعمال قوة الجيش العربي الناجحة في اجتياز الصحراء في مقدمة خطوطنا الميكانيكية، وتدميرها لمواصلات العدو وقطعها السكك الحديدية، وصيانتها لمواصلات أحد خطوطنا المستقلة من الهجوم الخلفي، كل ذلك جعلني أقدر أياديها العسكرية العديدة حق التقدير.

ان تقدم تلك القوة وعزمها وبشاشة رجالها في شتى الأحوال بعثت في النفس أعظم السرور للانضمام اليها في ميدان المعركة.

فاسمحوا لي يا صاحب السمو أن أهنِّئ سموكم على الفعالية التي قامت بها هذه القوة الممتازة، وأملي الوحيد أن يسعدني الحظ فانضم اليها والى قائدها الشهير في الأعمال الحربية المقبلة.

ولي الشرف أن أبقى خادم سموكم المطيع   الميجر جنرال
عن قيادة قوات الحبانية: ١ حزيران ١٩٤١   جورج كلارك

* * *

صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ــ عمان

بمناسبة عودة قوة البادية من العراق أحب أن أبعث الى سموكم بأحر تهاني، على العمل الباهر الذي قاموا به بقيادة قائدهم وجميع الضباط والرجال في الواجب النبيل لاستعادة الحرية والحكومة الدستورية.

١٩٤١/٦/٣   مكمايكل

صاحب السمو المعظم أمير شرق الأردن

هل لي أن أعرب لسموكم عن تقديري وشكري، للخدمات القيمة الباسلة الممتازة التي قامت بها قوة البادية من الجيش العربي وقائدها في العمليات التي انجزوها في العراق بمؤازرة الجيش البريطاني وسلاح الجو.

١٩٤١/٦/٤ الجنرال سير هـ.م. ولسون

* * *

الى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله المعظم ـــ عمان

لقد قامت أمس قوة البادية الأردنية في السخنة بقيادة كلوب باشا، بأعظم عملية ناجحة؛ فقد أسرت ثمانين أسيراً وست سيارات مصفحة واثنى عشر متراليوزاً. فأقدم لسموكم تهانيّ مشفوعة بكل احترام، على روح العمل وصفات القتال في قواتكم.

١٩٤١/٧/٢ الجنرال هـ.م. ولسون

* * *

صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن

يا صاحب السمو

بمناسبة الانتهاء الظافر للحرب في أوربا، أشعر بأنه من واجبي أن أقدم الى سموكم بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن الجيش البريطاني في الشرق الأوسط تشكراتي الخالصة على الخدمات الجلّى التي قدمتها شرق الأردن والجيش العربي للقضية المتحدة.

ان البسالة والثبات اللذين أبداهما سموكم في السراء والضراء طيلة سني هذه الحرب الطويلة، كانتا محل اعجاب القادة البريطانيين في الشرق الأوسط.

ان موقف سموكم كان بدون ريب الملهم لجنودكم؛ وعندما كانت بريطانيا في سنة ١٩٤١ في موقفها الحرج، وقف الجيش العربي وقفة صادقة بجانب حلفائه البريطانيين. وقد قام جنود سموكم بدور هام في عمليات العراق وسوريا، ولولا مساعدتهم في عمليات العراق لكان من الممكن أن تتخذ هذه العمليات شكلا آخر. وانه لما يؤسفني ويؤسف سموكم أيضاً كما أنا متأكد بأن الفرصة لم تتح لجنود سموكم بالاشتراك في العمليات الحربية في أوربا. ان بقاء قواعد الشرق الاوسط في قبضة الحلفاء كان على كل حال عاملا رئيسياً في كسب الحرب، وان جنود سموكم في هذه السنوات الخمس قد لعبت دورها الهام في هذا الواجب الحيوي.

إن نظام الجيش العربي قد استوجب احترام القادة البريطانيين الذين كان هذا الجيش يعمل تحت إمرتهم. وقد كانت علاقاتهم بالجيوش البريطانية دائماً علاقات الزمالة العسكرية المخلصة.

واني أود بأن أبين تقديري لموقف الصداقة والمساعدة الذي وقفته حكومة سموكم والشعب الأردني تجاه القوات البريطانية التي كانت في البلاد. واني على يقين بأن روابط العطف والزمالة التي وجدت في وقت الحرب بين الجيش البريطاني والشعب الأردني ستستمران أثناء سنوات السلام التي نأمل أنها أمامنا.

لي الشرف أن أكون خادم سموكم المطيع

٨ أيار ١٩٤٥ باجت

* * *

حول فتنة العراق

ولمناسبة ذكر فتنة العراق سنة ١٩٤١، أود أن أثبت هنا البيان الذي كنت أذعته في شعبي الأردني العزيز، في ذلك الظرف العصيب.

بيان الى الشعب الأردني الكريم:

لقد علمتم بما يجري في هذه الآونة في بلاد العراق الشقيقة من حوادث مؤسفة، نشأت عن أن فئة اغتصبت سلطة الحكم في هذا القطر العزيز قد رغبت في اتباع سياسة خاطئة ترمي الى تعريض هذا البلد العربي الكريم الى القلاقل والفتن وسلامته واطمئنانه الى الفوضى والاضطراب.

ولقد كنت أول من انتابه الحزن والأسى لوقوع هذه الحوادث المؤسفة في قطر كانت الأمة العربية باجمعها ولا تزال تعتبره المثل الحي للاستقلال الكامل الذي ما برح أمنية البلدان العربية الأخرى تسعى اليه بجهود قومية موفقة إن شاء الله.

ولكن الغموض الذي رافق هذه الحوادث في بدايتها وما تغذيها به الدعايات الخبيثة المغرضة من أفكار السوء والدس والفتنة، كل ذلك لم يساعد الرأي العام على الوقوف على حقيقة هذا الموقف الطارئ

الذي أرادت تلك الدعايات السامة أن تروج به مقاصدها الهادمة لاستقلال العراق وحريته وتسميم الأفكار العربية جمعاء.

وانني بالنسبة لما أشعر به نحو العراق الشقيق من عواطف الحب والولاء الشخصية فضلا عن روابط الاخاء الصادق التي تربط هذه الامارة به وفضلا عن خدمة البيت المالك في البلادين، قد رأيت من واجبي أن أذيع على شعبي ا[illegible]يم بياني هذا، لأعلن لهم فيه أن الحركة القائمة هناك أدت الى نزوح حضرة صاحب السمو الملكي الوصي على عرش العراق، تبرؤاً مما جرته هذه الفتنة على العراق من ويلات ومصائب كما جاء في بيان سموه الذي أذيع على الشعب العراقي بعزمه الصادق على العودة الى العراق إن شاء الله مرجعاً لتلك البلاد استقلالها وسيادتها وطمأنينتها إن شاء الله. وكما علمنا من تصريحات وزير خارجية بريطانيا العظمى المستر ايدن من انه ليس في نية الحكومة البريطانية الانتقاص من حقوق العراق الاستقلالية وسيادته باي صورة من الصور وليس بينها وبين الشعب العراقي أي اختلاف أو عداء. هذا وان العزم منصرف الى اعادة الحالة الطبيعية والود الحقيقي بين الأمتين الحليفتين، واني موقن بذلك كل الايقان إن شاء الله تعالى. فلايضاح الحال وتنوير الأذهان أعلن هذا لشعبي الكريم.

عمان في ١٩ ربيع الاخر سنة ١٣٦٠
الموافق ١٦ ايار ١٩٤١ «عبدالله»

* * *

وبتاريخ ١٨ أيار ١٩٤١ ــ وأنا في إربد ــ أرسلت الملاحظات التالية:

الى سعادة الجنرال ويلسون.

١ ـــ مساعي الألمان الافسادية في بلاد العرب وكيف نستطيع إحباطها.

٢ ـــ تجلى للعيان أن الألمان قد توقفوا في مساعيهم في العراق.

٣ ـــ تبذل هذه المساعي بكل قوة في المدارس والكليات بسوريا ومصر وفلسطين وشرق الأردن.

٤ ـــ تبذل هذه المساعي بين العمال في كل محل يوجدون به.

٥ ـــ إن إذاعات الراديو في فلسطين ومصر تساعد على تلك المساعي بإذاعة ما يظنون أنه لهم واذا به عليهم. مثال ذلك ذكر نزول الطائرات المعادية بسوريا والعراق، فهذا يجعل الناس يظنون أن الألمان يستطيعون عمل كل شيء.

٦ ـــ يجب سرعة ضرب الاعداء في العراق بأسرع ما يمكن.

٧ ـــ بقاء الجيش البريطاني بالصحراء بين الرطبة والفلوجة وبالبصرة دون تقدم، أمرٌ لا أرضاه، وأرى أنه يقوي الخصوم ودعايتهم.

٨ ـــ الحالة في سوريا تأتي بالدرجة الثانية بعد العراق. وانني أرى الحكمة في سياسة حكومة جلالته بالنسبة الى حليفتها السابقة فرنسا، ولكن أعتقد جازماً بأن العملية التي قامت بها ضد أسطول فرنسا في وهران يجب أن تطبق حالا في سوريا. لذلك أرى أنه أولا يجب طلب كل دبابة وكل سيارة مصفحة في سوريا وكل طائرة، وتسليمها لجيش جلالته أو حجزها تحت ضغط قوات بريطانية، أو نقلها الى بلد محايد كتركيا مثلا؛ على أن تبقى الادارة في سوريا في أيديهم ـــ أيدي الفرنسيين ـــ واذا لم يقبلوا فيجب الدخول الى سوريا حالاً، حيث من المقرر إعلان وحدة العراق وسوريا بتعضيد من الألمان. وانه من المقرر جلب جنود ألمان بالطائرات وتسليم كل الأسلحة الفرنسية

من آليه وغيرها اليهم، وحينئذ ينبغي على حكومة جلالته أن تعاني متاعب ايجاد قوة عظيمة هنا وفي فلسطين مثل قواتها على حدود ليبيا.

٩ ـــ يجب إعادة روح الصداقة في العراق وسوريا بين العرب والانكليز حالا، بالقضاء على المتمردين وفق ما شرح أعلاه.

١٠ ـــ إنني منزعج لعدم وقوفي على الحالة السياسية والحركات العسكرية في حينها، ومنزعج لامكان تغلغل الدعاية المعادية الى بلادي إذا طال المدى. إنني في وضع عادي، أي كأنه وليس في الدنيا شيء عاطل غير عامل لخير بلادي وأصدقائي. وربما يلاحظ أن شيوع مساعداتي تغضب ملكا من ملوك العرب، ولكن أرى أنه قد لا تكون هذه الملاحظة مفيدة في هذه الأوقات الحرجة. وانني أطلب أن أكون سيد بلادي الأمين لحلفائي والقائم بوظيفتي قبل فوات الفرص.

١١ ـــ ليس لي ما أقوله في مسألة التحكيمات المقامة من إربد الى سال، والأخرى في ناحية المفرق، غير ملاحظتي بأن المسافة بينهما عظيمة جداً ومن الممكن للعدو المفروض اجتياز ما بينهما ليلا.

١٢ ـــ ألاحظ أن هذا التحكيمات لا تكون ضامنة النتيجة إلا إذا كان جبل الدروز في يد الجيش البريطاني؛ فإنه إذا كان هذا الجبل على حاله في أيديهم، ففي إمكان الاعداء دخول البلاد من شرقي المفرق فالزرقاء فوادي الاردن فضفاف الشريعة ـــ إن شاء ـــ أو من عمان أو من وادي الزرقاء ومنحدرات جبل عجلون.

* * *

ولما أُخمدت فتنة العراق، وانهزم مثيروها الهوج، وعاد الملك والوصي الى مقرهما تلقيت من سمو الوصي البرقية التالية:

حضرة صاحب السمو الملكي سيدي الامير عبدالله المعظم ــ عمان

بحمد الله ورعايتكم انتهينا هذا اليوم من حل مشاكلنا وقد تألفت الوزراة برئاسة فخامة جميل المدفعي، وما أخرنا عن ارسال برقية إلا انتظاراً لتصفية جميع الامور لتكون البشرى التي أرفعها لسيدي كاملة، لاني أعلم كما يعلم غيري أن ما يعنينا يعنيكم اكثر من أي انسان، وما ذلك إلا لحنوكم الابوي وكونكم الاساس المتين الذي ترتكز عليه عائلتنا عند الشدائد والمحن وليس من المستبعد أن نستنير بهدى من عركته الايام وصقلته التجارب. وبالختام أتمنى لمولاي وللعرب جميعاً أياماً كلها عز وسؤدد.

٣ حزيران ١٩٤١ عبد الاله

* * *

وبتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٣٦٠ الموافق ٤ حزيران ١٩٤١ عادت قوات الجيش العربي الاردني من عملياتها الموفقة في العراق، فألقيتُ فيها الكلمة التالية:

مرحباً بالقوة الموفقة، مرحباً بالقوة الظافرة المطيعة، وشكراً لها ولقائدها.

لقد عدتم من مهمة دقيقة مثلتم فيها الوفاء وواجب الطاعة والاخلاص للبيت الهاشمي.

لقد عدتم بعد أن قمتم مساهمين في اطفاء هذه الفتنة أحسن مساهمة فبورك فيكم وفي عملكم.

لقد وصل الوصي الى بلاده وعدتم انتم الى بلادكم وكلا البلادين

بلاده وبلادكم. وعليَّ أن أنبئكم بأننا جميعاً في طريق وحدة كنا نرجوها وقد مزَّقها أولئك الذين طردتموهم من العراق.

استعدوا دائماً للقيام بما يطلب اليكم كما استعد أجدادكم الذين كانوا مع أجدادنا، واحذروا الفتن ودعاتها واحذروا أهل الدس والنفاق.

لقد عدتم والوجوه باسمة مشرقة، لقد عدتم وأنا راض عن عملكم كل الرضى، فأنتم فخرنا وعليكم بعد الله اعتمادنا.

فليحي الجيش العربي الباسل ولتحي قوة البادية الظافرة ولتصل الأمة العربية الى أمانيها القومية بفضل الله وكرامة رسوله ﷺ، وبحسن مؤازرة حليفتنا بريطانيا العظمى، ولنف لها كما وفت لنا ولنساعدها في مهمتها العالمية الشاقة بكل شهامة واهتمام.

والآن أوجِّه الى قوة البادية الباسلة المحبوبة وسام النهضة العليّ الشأن من الدرجة الثانية، مرفوعاً على هذا العلم الذي أسلمه اليكم لترفعوه عالياً، ولتدافعوا تحت ظلاله عن مجدكم، كما انني قد أصدرت ارادتي بصنع سيف ذهبي مرصع يهدى الى قائدكم تقديراً لعمله وشجاعتكم.

* * *

رسالة من نوري السعيد والجواب عليها

سيدي ومولاي صاحب السمو الملكي

بعد التشرف بلثم اليدين الكريمتين والابتهال الى الله جل وعلا بأن يطيل عمر مولاي ويقرن أيامه الغر بالعز واليمن. أعرض أنني أرى من واجبي ـــ وقد عدت الى العراق ـــ أن أعرب عن عظيم تأثري وعظيم اغتباطي بالعطف السامي والفضل العميم اللذين شاء نبل مولاي أن يغمرنا بهما في أثناء إقامتنا في الشرق العربي في الآونة الأخيرة.

والواقع أن ما لقيناه من سموه الملكي في أثناء الفتنة المؤسفة التي اجتاحت العراق في تلك الآونة ليس سوى حلقة جديدة من سلسلة أفضال سموه التي تتابعت علينا خلال بضع السنوات الأخيرة المكتظة بالأحداث والأرزاء، فكانت خير بلسم لجراحنا وأسطع نبراس أنار طريقنا في المراحل المظلمة التي اجتزناها، وأفضل مشجع لنا على مجابهة المصاعب المختلفة ومعالجة المشاكل المتنوعة التي اعترضت سير البلاد نحو أهدافها السامية ومثلها العليا التي اختطها لها البيت الهاشمي العظيم وتولى قيادتها اليها.

واذا كان قلمي عاجزاً عن التعبير عما أشعر به نحو عطف مولاي من التقدير والامتنان، فإني مطلق لساني بترتيل آيات الشكر والامتنان

ومتوجه بقلبي الى الله تعالى، سائلا إياه أن يجزي مولاي عنا خير الجزاء وأن يقر عينيه بتحقيق آمال الأمة العربية التي وقف عليها جهوده فيجلي عن آفاقها سحب الظلمة والابهام ويبدل ذعرها أمناً وشكها يقيناً وأمانيها حقائق ويمهد امامها سبل المجد والفلاح.

وأنتهز هذه الفرصة لتقديم عظيم احترامي وخالص أماني للامراء الكرام، سائلا المولى أن يقر بهم عيني سموه وأن يديمه ذخراً وملاذاً للأمة العربية؛ وليتفضل مولاي بقبول فائق احترامي وتعظيمي.

بغداد في ١٥ حزيران ١٩٤١ — العبد المخلص

نوري السعيد

* * *

عزيزي نوري باشا

لقد تلقيت بانامل السرور رسالتكم الكريمة المؤرخة في ١٥ حزيران ١٩٤١ والصادرة عن بغداد، ولقد قدرنا ما جاء فيها من جمل وكلمات حق التقدير؛ وانه من كان له مثل سابقتكم في الحجاز في حروب الثورة من بابها الى أن بلغت نصابها فحري أن يكرم ويبجل متى كان لذلك التكريم والتبجيل سبب وسبيل.

أما وجودكم لدينا قبل قدوم سمو الوصي وأثناء وجوده هنا، فهو منكم عمل فذ لا يقوم به إلا كل شهم محب لوطنه. فقد برّأكم الله من كل ما ألم بالعراق في تلك المدة من خراب وتدمير على أيدي الأثمة الأشرار، سواء من كان من أهل العراق أو ممن حرضهم اعداء الكمال والاستقرار من فرار الاقطار بفلسطين وسوريا. والله اسأل أن يعيذنا جميعاً من شر كل هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم.

رغدان في ٢٤ حزيران ١٩٤١



سمو الامير عبدالله لدى نزوله من الطائرة في مطار بغداد، في زيارته الاخيرة للعراق

استعراض الموقف الحاضر في البلاد العربية

موقف العراق والاردن إزاء التضافر السوري اللبناني النجدي وتشجيع السياسة العليا له، وموقف مصر كالوسيط في تنفيذ سياسة مجهولة، ووجود نجد بالحجاز وما يجب على البيت الهاشمي وانصاره بالعراق وشرق الاردن إزاء ذلك.

تمهيد

بالنظر لما يجري اليوم من أحاديث ومحاولات، وبالنسبة لأن الفكر القائم الآن قد يخرج السير العربي نحو استكماله من طور الى طور، فمن واجب الامانة وضع مبادئ الثورة العربية الكبرى ومبانيها في هذا البيان لاطلاع صاحب السمو الملكي الوصي المعظم ورئيس وزراء العراق ووزير خارجيته ورئيس وزارته السابقة الفخام على ذلك.

الامة العربية

الأمة العربية ذات التاريخ وصاحبة الماضي المجيد والتي نزل على نبيها القرآن والتي فتحت المشرق والمغرب في أقل من ربع قرن وجاءت بالاصلاحات الدينية والمدنية وبما يقتضيه الاخاء الانساني، أمة لا يجوز أن تكون مستعمرة مستعبدة، بل هي أمة قائمة مستقلة هادية. أما بقاؤها

في ظل حكومات غير عربية ولكنها مسلمة فقد جاء عن رضوخ تلك الأمم للتعاليم الاسلامية والاخاء المحمدي. فإذا سادت تعاليم القرآن وعمل بالسنة فالعربي حينئذ سواء عنده أكان سلطانه عربيا أم كان ينتمي الى غير العرب من المسلمين. لذلك كانت الأمة العربية تنظر الى سلاطين الاسلام بما أعطاها الله من شرف خص به النبي العربي عليه الصلاة والسلام.

تصدع الرابطة العربية العجمية

على انه لما جاء العصر الأخير والذي قبله، حدث شيء من التحور زلزل تلك الرابطة الجامعة بين العربي والعجمي؛ فمنشور التنظيمات الخيرية الصادر في عهد السلطان محمود الثاني كان أول مرقاة للخروج على التعاليم العربية المستمدة من قرآنها وسنة نبيها الى الشكل الغربي الغريب الذي لم يفهمه منتحلوه أنفسهم؛ فكانت النكسات والاختلافات والتعثر في السير والتلكؤ في العمل. ومن ذلك تحوير شكل الجيش والادارة فجأة والقضاء على العسكرية الينيشارية وايجاد الجند المسمى « بالنظام الجديد »، وحوادث مورة التي استخدم فيها الجيش المصري بأمر من السلطان الى والي مصر محمد علي باشا آنذاك، وما كان هناك وفي كريت من فواجع وخاصة على الأسطول التركي المصري في ناوارين، ثم صدور الأمر السلطاني الى والي مصر بالتوجه الى الجزيرة العربية أيام محمد بن عبد الوهاب، وقد حدث ذلك، وتكلل الجهد المصري بالنجاح في الحجاز ونجد وعسير حتى صنعاء.

بوادر الانفصال

بعد ذلك تراءى لوالي مصر الوهن في الجسم العثماني، فاقتحم الى سوريا والأناضول وكانت هزيمة الجيش العثماني المشهورة أمام الجيش المصري، ثم تدخل روسيا وانكلترا في الأمر وارجاع الجيوش

المصرية الى مصر مخلية الأناضول وبلاد العرب بأجمعها، وارضاء والي مصر بأن تكون ولايته فيه وفي اعقابه باسم والي مصر وبفرمان سلطاني، ومشى به الأمر كذلك حتى زمن الخديوي اسماعيل الذي حصر الارث في نسله على أصول الوراثة الاوروباوية وسمي « الخديوي ».

وكانت هذه الظاهرة اول صبغة عربية استقلالية بدت في مصر، عقبتها محاولة الشريف عبد المطلب بن غالب — الذي كان أميراً على مكة بعد الشريف محمد بن عون رأس الأسرة الهاشمية الحاضرة، والصديق الحميم لمحمد علي باشا والي مصر — فقد انتهز ذلك الشريف الفرصة السانحة بسبب الحرب الروسية العثمانية المعروفة بحرب القرم، فحاول اعادة استقلال الحجاز اليه الا انه لم يتوفق الى ذلك.

وعند الانقلاب العثماني الاخير الذي أعيد بسببه الدستور العثماني لسنة ١٢٩٣ تحولت الحاكمية السلطانية الى حاكمية ملية محصورة في العنصر الذي منه السلطان، وغدت سائر العناصر والأقاليم تبعاً للعنصر الحاكم، وشرع في تتريك العناصر الاخرى لتغيير صبغتها القومية ودفع الخطر عن السلطنة الدستورية التركية، الشاعرة بوجود اجناس اخرى في الامبراطورية هي اكثر عدداً وتدين بالاسلام. وبدأت الاحزاب المختلفة والأندية المتعددة لكل أمة تتشكل وتتكيف وتناضل عن حقها وتطالب. وأحس بالضغط من فرقة الاتحاد والترقي التركية في الانتخابات للبرلمان العثماني كي لا ينجح في عضوية البرلمان الا من كان تركياً او اتحادياً. عند ذلك شعر العرب، وشعر معهم بقية الأقوام الاخرى ممن تتكوَّن منهم الامبراطورية، انهم على خطر الزوال؛ فحدثت الثورات في بلاد الارناؤوط وفي جبل الدروز وفي الكرك، وتولى اخماد الثورة العربية سامي باشا الفاروقي المعروف، وكانت الثورة في عسير وقد أخمدها أمير مكة الشريف الحسين بن علي، وثورة اليمن وقد أخمدها المشير عبدالله باشا وأتم أمرها المشير عزت باشا.

وكان الشريف متمسكا حينذاك بالرابطة العثمانية، يفضلها ويرى بقاءها ويؤثرها على انهيار وتصدع لا يعرف مداه ولا تؤمن عاقبته، الى ان بلغ الصلف الاتحادي ذراه وشوهد أن أمر انفصال العرب عن الاتراك الذين تعادوا وتهوروا وازدروا كل ما سواهم امر لا بد منه. فطالبت سوريا بادارة لامركزية واستولى ابن سعود على الاحساء واتفق الإمام في اليمن مع الاتحاديين على شكل معين، وشد الامر بين السيد الادريسي والترك على طريقة خاصة؛ وكانت هذه اول مرقاة ايضاً الى الانفصال والقلوب مفعمة بالعداء ورجال الدولة من الاتحاديين يحرقون الأرم على كل عربي نابه.

الوفود الى الحجاز والمساعي العربية

ثم ترامت الوفود الى الحجاز من القطر الشامي، وعرضوا على الشريف في مكة ما الناس فيه من سوء حال ومستقبل مظلم مع الظلم والاضطهاد والنفي والإبعاد، حتى جاءت الحرب السابقة وجاء جمال باشا بسلطانه وعدوانه الى دمشق، فضاقت الأرض بما رحبت وخاف بأسه كل عزيز وذليل. وفي غضون ذلك كانت مذاكرات القضية العربية بين الشريف وبين رجال الاتحاد والترقي تجري بالمخابرة احياناً، وأحياناً بواسطة الأمير فيصل بن الحسين ملك سوريا أخيراً وملك العراق فيما بعد ذلك. وكانت المكاتبات تدور من الناحية الأخرى مع بريطانيا العظمى لايجاد الحلول الموصلة العرب الى حقهم الأكبر فيما إذا أخفق العرب والترك في الاتفاق.

تحديدات

وقبلت بريطانيا العظمى مساعدة العرب بقيادة شريف مكة، لوصولهم الى استقلالهم وتحريرهم من نير الأتراك والألمان في كافة البلاد العربية، ما عدا الساحل الغربي من ولاية الشام وذلك يعني جبل لبنان، فقد

كان الرأي المتقرر في مكة عدم إكراه لبنان على ما لا يرتضيه وان له الحرية التامة في أن يسعى لنفسه ما يشتهيه. وما لبنان في البلاد العربية إلا عون لها مع أية صبغة يكتسبها.

ويدل التحديد المتقدم على أن ساحل حلب والساحل الفلسطيني معترف بهما للناحية العربية، واستثنت بريطانيا الامارات العربية التي لها صلات عهدية مع حكومة الهند وهي الامارات التالية:

إمارة آل سعود في نجد، إمارة الكويت، إمارة البحرين، سلطنة مسقط وعمان، سلطان حضرموت، ولحج، وان مستعمرة عدن والنواحي الست التي على حدها مستثناة، هذا ولم يُستثنَ من الحركة العربية سوى ما ذكر أي بلد.

فاليمن وعسير وامارة حائل في عهد ابن رشيد، والعراق كله وسوريا؛ هذه تعهدت بريطانيا العظمى أن لا تعقد أي صلح مع تركيا والمانيا قبل أن يتم تحريرها.

وعلى هذا بنيت الثورة العربية لايجاد دولة عربية واحدة يرأسها ملك واحد وترمي الى هدف واحد. وكانت الأمة حينذاك مستكملة الشروط الضامنة لقيامها على قدمها، وكانت لها متصرفية فلسطين وولاية بيروت وولاية حلب وولاية سوريا وولاية بغداد والموصل وولاية البصرة وولاية الحجاز، تلك المجموعة من الولايات الغنية بشبابها ورجالها من ملكيين إداريين وعدليين ومن قضاة شرعيين وأمراء عسكريين من أعلى الرتب الى أصغرها، وكانت الجيوش العثمانية العربية مركز أحدها دمشق ومركز الثاني بغداد، وفي الحجاز الرجال الذين حملوا عبء هذه المسؤولية العظمى متكلين على الله وعلى الاخلاص والأمانة في الأمة وعلى الوفاء من حليفتهم بريطانيا العظمى.

نتائج

وما أن ألقت الحرب أوزارها حتى عاد أُناس من العرب الذين كانوا يخدمون الأتراك بالاتفاق مع حزب الاتحاد والترقي واختلطوا برجال الثورة العربية في هذه الأنحاء واختطفوا منهم زمام التوجيه فعملوا على استقلال سوريا والعراق. وكان عهد سايكس بيكو وجاءت الانتدابات على موجبه فكافحوها وأوجدوا الميثاق القومي الذي نص على حدود سوريا من أولها الى آخرها ميثاقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم جاءت الضربة الفرنسية وأخرج الملك ونكست الأعلام فتخبطت سوريا بعد أن أضاعت مركزها العالي الرفيع، وتقسمت كما هو معروف الى سوريا ولبنان الخاضعين للانتداب الفرنسي وفلسطين وشرق الأردن الخاضعتين للانتداب البريطاني، وجاء التحديد الحاضر بين أجزاء هذا البلد الواحد على هذه الكيفية ولهذا السبب ولقيام الانتدابين.

وبعد ذلك كانت الحركة الوهابية الأخيرة التي أدت الى خروج العائلة الهاشمية من الحجاز، بعد جهاد وجلاد أدى فيه البيت حقه لبلاده المقدسة وحرص على أن لا تصبح الأمة العربية متحيرة لا رأس لها يجمع كل أجزائها، ليتابع مسؤولياته في الاحتفاظ بحقوقها. ومن المعلوم أن بريطانيا العظمى كانت متعهدة بأن لا تسمح لأي واحدة من الامارات والسلطنات العربية التي لها صلات عهد بحكومة الهند في أن تعرقل مساعي الثورة العربية أو تقف معاكسة لها، حتى تتمم واجباتها القومية. وقد أوقفت الحكومة البريطانية اعتداءات الوهابيين على المملكة الهاشمية في الحجاز أكثر من مرة، وأخيراً في مؤتمر الكويت، ولما لم يوصل الى اتفاق حينذاك، كان ما كان مما حصل فسقط الحجاز، وبسقوطه أصبحت القضية العربية منقسمة الى قضايا مشتتة بين يمن ونجد وعراق وامارة وجمهوريات في سوريا وبلاد منتدب

عليها فلسطين. ومن المقتضى عدم اغفال بيعة الناس في مكة لصاحب النهضة بأنه ملك البلاد العربية، وقد ضربت السكة النقدية بهذا الاسم، ثم جاءت التجزئات السابقة كما ذكر.

واننا، لما ذكر، نلقي هذه الحوادث بين ايديكم ليتبين انه من الخسران العظيم على الأمة العربية ان تظل التجزئة فيها تحت اسم استقلالات واهنة تجعل كل جزء من هذه الاجزاء غير قادر فعلا واقتصاداً على حفظ كيانه ان لم يعد بمجموعه الى كيان واحد، واضعين امام الأمة هذه الحقائق خشية فوات الوقت ومخافة العمل على دوام هذا الشكل بهذه الاسماء التي لا تلبث ان تعصف بها أعاصير السياسة فيأتي الندم حين لا ينفع الندم. وأي خسران على رجال الثورة اذا رأوا ان عملهم الانفصالي لم تكن له نتيجة سوى تجزؤات لمنفعة اشخاص وعدم ظفر الأمة بما كانت ترمي اليه من مجد موحد وحق تاريخي.

وعلى هذا، وبعد البيان الموجز الذي سردناه فيما يتعلق بمبادئ الثورة ونشأتها ومراميها، نرى ان ايجاد هذه الدويلات في الشام من حدود مصر الى العراق الى تركيا هو تقسيم ضار بمصلحة العرب، وانه التحديد الذي أقامه شكل الانتدابين وانه هو الذي كافحه الوطن ووقف في وجهه. فإن قبلنا هذا التقسيم واقررناه فكأننا رضخنا لما كانت الأمة رفضته، وستكون حجتنا واهية واهنة ازاء مطامع اليهود وأنصارهم ان طلبوا مثل ذلك في فلسطين.

من هذا كله يتبين ان البلاد العربية التي لا تزال في يد ورثاء الثورة من رجال البيت الهاشمي وأشياعه هم العراق وشرقي الأردن، وان عليهما واجبات وتبعات من المقتضى ان ينظروا اليها بحقيقتها والاعتراف بها بالنظر للحقائق الآتية وهي:

آ ــ الاقرار بأن سياسة اعلان استقلال سوريا والعراق عند انتهاء

الحرب السابقة وفصلهما عن الحجاز قبل ان يتم الصلح بين تركيا واعدائها وقبل ان تتنازل الحكومة التركية عن حقوقها في هذه البلاد لهذه الأمة كان من اكبر الاخطاء.

ب ــ الاعتراف بان استقلال سوريا والعراق وانفصالهما عن الثورة العربية والملك الواحد هو الذي جر الانتدابات على هذه البلدان.

جـ ــ الاعتراف بأن اقرار التغيير في البيت المالك للحجاز هو ازالة الرئاسة الواحدة للبلاد الواحدة وان كل هذا ليس في مصلحة الامة العربية بأجمعها.

وعليه فخلاصة ما هو واقع الآن من دعوة الى وحدة امر لا يعرف منشأه والغاية منه. الا ان هنالك مساعي خفية يجب البحث عنها والعثور عليها. فمسألة ايجاد وحدة عربية او اتحاد عربي مسألة موهومة خطيرة؛ ففلسطين لا تزال محل اصرار لإتمام آمال اليهود فيها وانها لا تزال تحكم حكماً مباشراً من انكلترا، سوريا ولبنان وان كان يقال انهما قد استقلا استقلالا ذا سيادة وان لديهما وزراء مفوضين من دول كبرى فانه مع هذا يقال عنهما أنهما لم يُزَل عنهما الانتداب الفرنسي بشكل فني؛ وهذه نقاط ارتكاز ان دلت لا تدل الا على التشكيك. وكذلك فشرقي الاردن الموعودة بصورة صحيحة الى الوصول الى مصاف اخواتها مرجأ امر تحقيق ما طلبت الى ما بعد الحرب، فهي مقيدة الحرية نوعاً. ولا تزال المملكة الحجازية منضمة الى نجد وهي عقدة العقد لدى البيت الهاشمي وعقدة العقد لدى العالم الاسلامي بأجمعه في حجه وزيارة قبر نبيه، اذ انه محظور على هذا العالم الكريم من ان يقوم بواجبات معتقداته كما يريد، وان الاقلية المتعصبة المتحكمة فيه ليس لها في قديم الاسلام ولا جديده من فضل، وهذا لا ينبغي ان يغفل امره.

وانه لا ندري بالنظر للمسائل المعلقة بين انكلترا ومصر فيما يتعلق باحتلال مصر فيما ينوب الجانبين في السودان، ثم انا على جهل تام من درجة تحقيق أماني الوحدة او الاتحاد وما يملكه رئيس وزراء مصر من وعود سرية يعلمها هو من لدن انكلترا وامريكا الى أي حد هي. فاذا وقع أي إشكال بين الدول الغالبة التي لها من الحرب السابقة يد قوية على البلاد العربية، فهل سيسمح للمؤتمرين ان ينفذوا ما سيقررونه ام لا؟

ولذلك فمن واجب بغداد وعمان السعي للسير على سياسة هاشمية موحدة مع صرف المساعي للقضاء على من يريد اخراج القضية العربية عن مبادئ النهضة الاولى، بالاخص في القطر السوري الذي قد قام به تفاهم سعودي سوري لبناني خطير، وبذل الجهد لاحياء أنصار الثورة مرة أخرى بهذه الديار واعادة الدعوة الهاشمية بها. هذا فيما يخص العراق والاردن وانه يجب عليهما لفت نظر النحاس باشا الى أن يطلب باسم المؤتمر من الحكومة العربية السعودية ايجاد ادارة دستورية وحكومة مسؤولة بالحجاز قائمة على هذا الاساس، لتأمين الرقي واستكمال أسباب الدفاع وتأمين حرية المذاهب في البلاد المقدسة حتى تتمكن الحكومة النجدية من اكتساب ثقة العالم الاسلامي.

وكذلك فمن واجب الساعين للاتحاد أو الوحدة اظهار الرغبة في أن تكون المملكة اليمنية تحوز شيئاً من الاصلاح العصري، مع شكر جلالة الإمام على انه احتفظ بهذه القطعة المباركة بشكلها الحاضر سالمة نقية، وانه ينبغي تدريبها لكي تستعد لتنظيم خطاها فيما بعد مع اخواتها. ولذلك ولئلا يقع أي فشل في هذا الجهد، فمن الممكن عقد اتفاقات ترمي الى وحدة عسكرية في نظامها، ووحدة مالية من حيث النقد وقيمته، ووحدة ثقافية ووحدة اشتراعية في غير الحجاز، ثم ايجاد عهد دفاعي لدرء أي خطر قد يقع على أي قسم من هذه

الاقسام؛ وأن تتم هذه في سنين معينة بعد التداول، ومع هذا فلا ينبغي منع هذه الاقسام من أن تنضم متحدة أو موحدة كلها أو بعضها متى شاءت وفي اي لحظة ارادت.

وانه ينبغي وحدة العمل وبناء وحدة عقيدة يدافع عنها الجميع اثناء الخروج من الحرب الحاضرة الى حالة السلم، وما يمكن ان ينجم من وراء هذا من اضرار تلحق بالبعض او الكل، مع الدعوات الطيبة وتمنيات الخير للامم العربية وملوكها وزعمائها الكرام.

الوحدة العربية وكيف مزقت
وسوريا وكيف ضاعت، وسوريا ورئاسات الدولة فيها وجمهورياتها،

وفلسطين وأحزابها وصهيونيتها وسبب ضياع الحجاز من أجلها، وسوريا واستقلالها الاخير المزعوم وحالتها اليوم

مزقت الوحدة العربية بسبب الانتدابات، وكانت مساعي منوري سوريا في عهد الدستور العثماني طلب ادارة لامركزية، وبالطبع فإن دعاتهم جعلوا مركز دعايتهم في أوروبا باريس وفي الشرق مصر. ونظراً للضغط التركي كان العطف على هذه المزاعم في كل بلد عربي مرئياً ظاهراً، فجاءت الحرب العامة فاستغلت وقامت الثورة العربية.

ولما تبين أن الحركة العربية ثابتة، جاء سايكس وبيكو الى جدة ومعهما الملك فيصل، فكان ما تذاكروا فيه ــ مما خفي عليَّ الى الآن ــ غير ما كتب اليَّ الوالد عنه وانا ببوادي العيص، وهو قوله: « حضروا فأبدوا لنا ما أرادوا فأجبناهم بما ألهمنا الله وقد عادوا وعاد أخوك ».

فمنذ ذلك الحين والجيش الشمالي العربي الذي يقوده الملك فيصل، كان ينال كل مساعدة وتأييد من الانكليز والفرنسيين؛ وباقي جيوش

الثورة في الحجاز كانت لا ينالها من المطر إلاَّ الرشاش. وتبين أن هذه الجهود تنصرف لايجاد قوة تسند جيش اللنبي من يمينه، وتبين أن المحادثة كانت لايجاد سوريا مستقلة عن الحجاز، وايجاد دولة عراقية مستقلة عن الحجاز أيضاً.

وبعد أن جلت الجيوش العثمانية عن بلاد الشام الى ما وراء حلب، ظهر عياناً أن سفر الأمير فيصل الى أوروبا باسم رئيس الهيئة العربية في مؤتمر الصلح انما هو أمر ظاهر، والحقيقة هي انه كان يعمل بين لندن وباريس للاتفاق على ايجاد مملكة سورية مستقلة عن الحجاز؛ وان الأمر لظاهر، فان في انزال الراية العربية عن بيروت في أول أيام الهزائم التركية ما يشير الى صحة ما ذهبنا اليه.

فهذه السياسة هي التي مزقت وحدة العرب وملك العرب. فلما تم ذلك وكانت البلاد ترغب شيئاً، والذين يريدون الرئاسة والحكم يعجزون عن الحصول على ذلك الشيء وهو استقلال البلاد الحقيقي، جاء التبلبل والتردد مع عدم الاستعداد، وعملت العصابات ما أشير اليها.

ثم لما وقعت الواقعة دخلت فرنسا وفر المترئسون، وهكذا سقطت سوريا وجاء الرجال الذين ترأسوها تحت إمرة المفوضين السامين الفرنسيين من رؤساء الحكومة ورؤساء الجمهوريات الى أن حلت الحرب الأخيرة، فهزمت فرنسا واستسلمت وجاءت حكومة فيشي وسيطرت وجاءت اللجان الألمانية الايطالية، واضطرت انكلترا الى التدخل لسلامة نفسها قبل كل اعتبار، فأدخلت معها ديغول ومن معه، فكان للانكليز فرنسا وللالمان فرنسا أخرى. أما العرب فهم ينتظرون مصيرهم مستسلمين، ولقد وقع ما كان ينتظر.

وبعد أن تم اخراج فرنسا الفيشية قيل إن ميدان الحرب بعد عن الشرق الأوسط وان لا مانع من اعادة الحياة الدستورية الى سوريا

ولبنان مع الاعتراف باستقلالهما؛ وقد جرى ذلك تحت ضمانة بريطانيا كما يعرفه الناس.

وكانت الانتخابات وجاء البرلمان السوري وجاءت الجمهورية الحاضرة، ثم حصل ما حصل بين هذه الجمهورية وفرنسا، وتدخلت انكلترا لتأمين الأمن فكبلت أيدي الفرنسيين وأرخت الحبل بيد الحكومة السورية، على أن يكون في لندن مؤتمر لحل المشكلة؛ وهذا يعني أن الإشكال لا يزال في طريق الحل، وأن انكلترا كانت أوصت الطرفين بالتقارب، وانها تريد نفاذ استقلال سوريا ولبنان، ولا تنكر مركز فرنسا الممتاز في البلدين.

أما فلسطين فلا تزال تتخبط تحت شهوات أحزابها. فالعرب في تأخر واليهود كل يوم يستزيدون أرضاً يملكونها. ولقد أدهشني ما رأيت بينما أنا في طريقي من جنين الى اللد، من مستعمرات اليهود؛ فالساحل كله من حيفا الى يافا أصبح بأيديهم، وقد عمروا تلك الرمال واستخرجوا مياهها وأحيوا مواتها وجعلوها جنات عدن وألجأوا العرب الى الجبال القاحلة. ولا تزال الأحزاب العربية تناضل عن الشخصيات الذين على أيديهم خربت البلاد، بعد أن كان لمساعي هؤلاء التأثير الكبير في سقوط الدولة الهاشمية في الحجاز. لأن الدفاع السلبي غير المتقن الذي اتبعه جلالته تحت تضييقهم قد أدى الى سقوط الحجاز. وفي كل هذه الأمور العِبر.

أما الجامعة العربية ومركزها بمصر، فهو أمر خطير للغاية. اسم كبير ودعاية عريضة طويلة، واجتماع ممثلين ليس لهم من الاتصال بالرغائب القومية ولا بوسيلة من الوسائل، وكل دولة من دول الجامعة مرتبطة بدولة أجنبية كبيرة لا تمكنها من التصرف خارج الالتزامات المتعهدة بها، والأمم العربية وملوكها في منعزل عن ذلك؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

واننا نثبت هنا ما كنا أوصينا به توفيق باشا أبو الهدى ثم سمير باشا الرفاعي لدى سفرهما الى مصر للمشاورة في مسألة الوحدة العربية.

الى فخامة رئيس وزرائنا توفيق باشا أبو الهدى
تعليمات خاصة بمسألة الوحدة العربية

١ ــ قد أطلعكم فخامة نوري باشا على ما يجب مما كان أساساً للمذاكرة بين الرئيسين المصري والعراقي في صدد الوحدة.

٢ ــ إن ما اطلعنا عليه مما جرى بين رفعته وفخامته هو غاية ما يمكن ضمن تلك الدائرة.

٣ ــ شرق الأردن تؤيد هذه المساعي المحمودة بكل تصميم.

٤ ــ عني المرحوم الملك حسين بالبلاد العربية تلك البلاد التي تحدها من الغرب الحدود المصرية والبحران الأبيض والأحمر، ومن الشمال الولايات التركية ومن الشرق الحدود الايرانية مستثنية الامارات والسلطنات التي لها صلات عهدية بحكومة الهند وهي الأمير ابن سعود (يومئذ) وأمير البحرين وسلطان مسقط وسلاطين حضرموت ولحج. أما ولاية اليمن العثمانية ومتصرفية عسير وولاية الحجاز وامارة شمر، وهي امارة الرشيد ومركزها حائل، فكلها ضمن البلاد العربية المقصودة، ولا يخرج من هذا إلا أولئك الأمراء والسلاطين الذين لهم صلات عهد بالهند كما جاء آنفاً، ومستعمرة عدن البريطانية والنواحي الست.

٥ ــ لقد جاء في التحفظات البريطانية ذكر الساحل الغربي من بلاد الشام كمرسين وأضنه، وقد رضي المرحوم باعتبار مرسين وأضنه ليستا بعربيتين محضاً.

٦ ــ وبما أن البلاد الفلسطينية والسورية ساحلا وداخلا كانت الهدف من الثورة، فهي القضية التي ينبغي اذن الخروج منها بوحدة شاملة أو باتحاد تعاهدي؛ فبالمعنى الأول جعل المجموع حكومة واحدة بصبغة واحدة وفق ما جاء في قرار المؤتمر السوري ٢ تموز ١٩١٩ والمبلغ للدول ذات العلاقة يومئذ من لدن الحكومة الفيصلية، وبالمعنى الثاني اتحاد تعاهدي يبقي الحكومات الاقليمية كما هي ويضمها في أمور تتعين لربط أجزائها بعضها ببعض تحت رئاسة واحدة.

٧ ــ إن الاتحاد المعمول به اليوم والمرتكز على مصر والعراق لا يكون محكماً قبل أن تتحد البلاد الشامية (سوريا الكبرى) أو أن توحد، واذا بقيت هذه البلاد منقوصة السيادة تحت انتدابات أجنبية أو تشتت محلي، فأمر تمشيها مع مصر والعراق يكون من الضعف وعدم التماسك بصورة تجعلها تعجز عن القيام بما يجب عليها في هذا المضمار.

٨ ــ من المعتقد أن بريطانيا العظمى والأمم المتحدة على اثر عهد الأطلنطي وبنتيجة ما أثبتته الحرب الحاضرة لا بد وأن تكون قد عزمت هي ومن معها على تصحيح غلطات الحرب السابقة وعلى بناء الديموقراطية بناء صحيحاً يجعل الأمم الشرقية في منزلة الاستقلال والشرف القومي والاستعداد، واصلة الى الكفاءة الجديرة بالاعتماد عليها لحفظ السلام العام على طول الساحل الشمالي لأفريقيا والساحل الغربي لفلسطين وسوريا. ولذلك فالمعتقد أن أمر الوحدة متى عولج بطريقة صحيحة متساندة من العراق ومصر، بعد الاصرار الكلي على وحدة سوريا أو اتحادها، سوف لا يجعل هناك مصاعب يواجهها العاملون على الاتحاد العربي إزاء انكلترا أو أميركا. أما الانتداب الفرنسي فموقف فرنسا الحاضر هو بنفسه يقرر أن قيام فرنسا بعبء كهذا مرة أخرى ليس من الممكنات، وان عرب سوريا الكبرى مصممون على وصولهم

الى حقوقهم في بلادهم، وتلك الحقوق هي الاستقلال والوحدة والاتحاد، وان هذه النتيجة ضرورة حيوية عسكرية للعراق ولتركيا ولمصر في آن واحد.

٩ ـــ أما القضية الفلسطينية فقد أعلنت بريطانيا العظمى سياستها فيها في الكتاب الأبيض الذي لم تنقضه الى اليوم، وليس بد من ادخال فلسطين في الاتحاد أو الوحدة، وأن هذا الادخال لا يتنافى مع أي حل كان قد قدم من أية لجنة بريطانية أوفدت لهذا أو من أي مؤتمر عربي قدم اقتراحاته في هذا الصدد؛ ومن الممكن الاعتماد على قرارات مؤتمر لندن بهذا الشأن أو على مقررات المؤتمر البرلماني العالمي العربي الذي عقد بمصر.

وأما لبنان فلا مانع من جعل الخيار له في الوحدة أو الاتحاد مع كل هذه البلاد العربية واحتفاظه بما يريد من شكل وكيفية، على أن مسألة لبنان الكبير هي من جملة الحقوق السورية التي لا ينبغي اغفالها. وأما السودان فهي كما معروف مصرية بريطانية. وأما شمال افريقيا فمن المستحسن التوسل للتفاهم مع حضرة صاحب الجلالة السلطان لمراكش ومع حضرة صاحب العظمة باي تونس. أما ليبيا وطرابلس فأمرهما حتى يحين الحين، وان الأمل في أن سيكون لليبيا كيان عربي مشكوك فيه. وأما مصر فمع كون اسمها مصر، فهي من أمهات البلاد العربية وهي الكنانة وهي التي لها من الصلات القديمة والروابط القومية ما لا يمكن التبرؤ منه والعياذ بالله.

فالبلاد العربية ترحب بالاتحاد بهذا القطر العزيز بكل قواها، وتشيد بذكر الساعين اليه وعلى الأخص زعيمها المحترم.

١٠ ـــ ان أمير شرق الأردن يؤيد بكل جهده مساعي مصر والعراق

ويصر على أن على مصر والعراق السعي لوحدة سوريا أو اتحادها قبل أن اتحاد عربي آخر.

فلتكن مذاكرات فخامتكم مع رفعته على هذا الاساس، واننا ننيركم بهذه التعليمات ونترك مسألة ما يمكن أن يتجدد من ابحاث الى فطنتكم ورويتكم المعروفتين.

حاشية: فيما يتعلق بنجد والحجاز واليمن، أرى أن لا يلح عليهما فيما لا يستأنسان به، مع جعلهما على وقوف عما يجري فيما لا يعده العراق ومصر ومن معهما سراً لا يزال.

رغدان في ٢٣ شعبان ١٣٦٢
الموافق ٢٤ آب ١٩٤٣

عزيزي سمير باشا

هذه تعليمات لفخامتكم فيما يتعلق بمهمتكم في مؤتمر وزراء الخارجية العرب بمصر:

١ ــ اقرؤا السلام دولة ماهر باشا والنقراشي باشا وليعلما انني محتفظ لدولته ولمعاليه بأرق شعور المودة وأحاسيس الأخوة.

٢ ــ أُقدر تمام التقدير الشعور العام العربي بخصوص الوحدة العربية وقد نظرت باهتمام الى البروتوكول الذي هيئه مؤتمر الاسكندرية، ومن المعلوم أن الوحدة العربية إذا حصلت تكون الأساس المتين للعرب في آسيا وأفريقيا وفي البلاد الاسلامية كتركيا وايران والأفغان. إن هذه الوحدة متى اقترنت بالحرية والسيادة والعسكرية غير المقيدة كانت خير عون للديمقراطيات في كل موقف وفي كل ازمة، واذا قلنا

الديمقراطيات فنحن نعني بها أي دولة قديمة ديمقراطية لها أغلبية كبرى من التبعة المسلمين، تلك الحكومات التي مشت مع التاريخ الاسلامي من القرن المسيحي السابع الى اليوم.

٣ ــ من المعلوم أن النهضة العربية عند نجومها، كانت البلاد العربية موحدة بمجموعها خديوية مصر بالنظر لسلطة السلطان العثماني، وليست هناك حواجز جمركية أو موانع تتعلق بجوازات السفر، وقد كانت وحدة تعليمية.

٤ ــ إنه لما جاء الدستور العثماني وتسلطت فرقة الاتحاد والترقي على الدولة العثمانية ومشت نحو تتريك العناصر واخراجها عن صبغتها القومية وعدم الاعتداد بمرامي الشريعة السمحة المحمدية، والثورات في اليمن وعسير، والمطالبة في سوريا بإدارة لا مركزية؛ كل هذه الدوافع ساقت العرب الى الرغبة في الانفصال عن هذا الجسم العتيق الواهي، وكانت النهضة وهي الحركة العربية الثانية التي تلت حركة محمد علي باشا والي مصر الذي وصل بجيوشه الى قونيا لهذا الغرض نفسه.

٥ ــ فإن كانت الحركة الأولى جرت الى حيازة مصر العزيزة ما حازته من تخلص من تلك اليد، فإن الحركة الأخيرة العربية أدت الى عين النتيجة نفسها في البلاد، ولم يكن يتصور أن هذه الحركة تجر الى تفتت وتفريق يقع على اثر انتهاء الحرب العظمى السابقة ذلك التفرق الذي تسعون جميعاً اليوم لجمعه.

٦ ــ ومن هذا يفهم أن الأمر دقيق وخطير، ولكن نعتقد بحسن النية في الجميع. فالبيت الهاشمي الذي تزعم هذه الحركة التي لها صلة غير منفكة بتاريخ محمد علي باشا الكبير وبتاريخ الشريف محمد ابن عون صديق ورفيق محمد علي باشا، يضع نصب عيون اعتباركم

مسؤولياتها في تحقيق مراميها. ونلفت الأنظار الى حالة التقسيمات الحاضرة لتنظروا اليها بعين حقيقتها. وليست البلاد العربية اليوم حرة بعيدة عن الأيدي والأنظار التي لها مقاصدها الكبرى اليوم غير ما كانت عليه قبل عصر المطامع في الغاز والمعابر الى البحار الكبرى يجعل هذا الشرق في دقة ورقة مخيفتين. فإذا رأينا الى ما لمصر من إدارة وتشكيلات وما للعراق كذلك من وحدة وتهيئة لا نرى هذا في الحجاز ونجد ولا في سوريا بأجمعها؛ وان لمصر من المعلومات والأخبار عن حالة الأمة الحجازية ما يغنينا عن الشرح، ولديها أيضاً من الأخبار والمعلومات عما للقضية الصهيونية والانتداب الفرنسي بسوريا ما يغنينا عن الاشارة الى ذلك. وان لكل بلد من المجموعة الافريقية وآسيا من المسائل المعلقة غير المحلولة ما يلفت النظر. والوقت ليس بوقت تشكيك، بل هو وقت ائتلاف وتضامن نزيه يوجب الاعتراف بما هنا وهناك من أدواء قومية وأجنبية واجبة الاصلاح. لذلك تتقدمون الى المؤتمر وأنتم على علم من هذا لنقله الى رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية بمصر وان الاعتقاد في أن مصر تقف موقف الأخ المحايد الجامع الناس للخير، وهذه فكرة العراق الشقيق، والسلام عليكم.

رغدان في ٢٩ صفر ١٣٦٤

الموافق ١٢ شباط ١٩٤٥

سوريا
كيف تستقل وتدوم وهي مجزأة؟!

أليس من العجيب أن ترفض سوريا كل انتداب على أثر انتهاء الحرب العظمى الأولى، وتعلن وحدتها وتختار ملكها وتصر على مبدأها وتقاتل عنه، فتهاجم فيقضى عليها وتدار أمورها مدة ما بين الحربيين بأيد أجنبية وبوحي أجنبي، فتثور ثورتها المعروفة وتجاهد جهادها القويم، ثم تأتي اليوم تخالف ذلك المبدأ فترضى بالتجزئة وتسعى لابقاء الحالة الراهنة كما هي، ضاربة بالشعور الماضي عرض الحائط تاركة ميثاقها القومي؟! تالله إن هذا لأمر عجيب!...

إن التجزئة الحاضرة هي بعينها تطبيق عهد سايكس بيكو بعينه، زد على هذا الآن سعي انكلترا لاحلال النظام الذي أخلّت به فرنسا في سوريا باعتدائها الأخير. فبريطانيا التي تعلن أنها نصحت للجانبين السوري والفرنسي بأن يتساهلا فيتعاقدا على عهد يحفظ الوداد بينهما ويعطي سوريا استقلالها ويعطي فرنسا مركزها الممتاز، جاءت هي فكبلت أيدي الفرنسيين وحلت قيود الوطنيين واستولت بجيوشها على سوريا تديرها لتعيد النظام؛ وستظل كذا حتى المؤتمر الثلاثي وحتى تعاهد سوريا ولبنان فرنسا، ولا يعلم أحد متى وكيف يتم هذا.

يا قوم لا حياة لسوريا وهي مجزأة.. يا قوم إن حياة الفرد قصيرة وإن حياة الأمم طويلة.. يا قوم ألا تتعظوا بما هو واقع نصب أعينكم؟ لقد حرص هتلر على أن يكون أبرز شخصية في تاريخ البشر، فدعا أكبر أمة في أوروبا ليقودها فاستقادت له فخر صريعاً في جداله الظالم وخرت صريعة معه، فلم يُغنِ عنه حرصه شيئاً ولم تغنِ عنه تلك الأمة العظيمة، لأن عمله عمل باغٍ ومسعاه لنفسه لا لأمته وشعبه.

يا قوم، أنتم الذين جئتم لاعادة الحياة البرلمانية إبان الحرب الحاضرة وفي وقت بعد فيه ميدان الحرب نوعاً ما عن الشرق الأوسط، فقبلتم ما عرض عليكم بحرص شخصي ورغبة ذاتية، لتحكموا فتأمروا وتنهوا متكئين على حراب معادية أُثبتت تحت أقدامكم، إن تحركتم عليها خرجت من رؤوسكم.

يا قوم، لِمَ تبوأتم مراكزكم قبل أن تضعوا أيديكم على ما هو لكم، ولقد نصحكم الناصحون حينذاك لقد خدعتم — يا قوم — أو تخادعتم، إنها يا قوم صفقة خاسرة. فيا هل ترى ماذا أنتم صانعون؟! إن لفرنسا حقاً ممتازاً، تقول انكلترا إنها لم تنكره، وتقولون أنتم لا تقبلونه، وأنتم والفرنسيس اليوم في قبضة انكلترا التي اشترطت لخروج جيوشها ما يرفضه الجانبان.

يا قوم لا مخرج لكم اليوم من هذا المأزق بغير اعلان الوحدة وتنفيذها؛ فإن هذا العمل يجعل قضية بلاد الشام في يد جانبين: العرب أهل الحق، ودولتي الغرب انكلترا القوية وفرنسا الخاسرة. وعالم اليوم ليس هو بعالم الأمس، والحق لصاحب الحق...

* * *

امتيازات البترول في الحجاز

كتاب من صاحب هذه المذكرات الامير عبدالله بن الحسين الى فخامة المندوب السامي لشرقي الاردن

عزيزي سير هرولد مكمايكل

عزّ علي أن أُسافر الى العراق قبل أن أراكم، ولكنها الظروف قد حالت دون ذلك فأخرت زيارتكم لاربد فجرش، حيث كان في الامكان أن أراكم في أثناء تلك الزيارة. والآن يسرني أن أُودعكم كتابة، حيث أنني عزمت على السفر إن شاء الله يوم السبت القادم الموافق ٨ نيسان ١٩٤٤، وأملي أن أعود بعد عشرة أيام أُقيمها هناك.

عزيزي سير هرولد: أنا لا أدري كيف أبدأ فأكتب أفكاري الذاتية اليكم، في الموضوع التالي الذي يهم كل مسلم ومسلمة على وجه الأرض، ويهمني ويشغلني معهم وزيادة عليهم، لانه موضوع يتعلق بوطني المقدس ووطن أجدادي الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام. حيث قد شاع لدى الرأي العام أن امتيازات للبحث عن البترول والتبر قد أعطيت لشركات أميركية في الحجاز، بمهد الذهب، وهو محل يقع في الوسط شرقي المدينتين القدسيتين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد أوجدت هنالك محلات للسكن ومراكز للأشغال ربطت بالساحل

في البحر الأحمر، وانه علاوة على ذلك قد أسس مخيم لشركة أميركية لتشغيل الذهب والنفط غربي جبل رضوى على طريق ينبع البحر ــ المدينة المنورة، ومخيم آخر بموقع بريمان شرقي جدة وشمال طريق جدة ــ مكة المكرمة تعمل على ما يقال طريقاً معبدة الى منطقة غامد وزهران بالحجاز الى جنوب الطائف.

ومن المعلوم أن المنطقة من مدينة صالح الى حدود اليمن بما فيها متصرفية عسير، من الشمال الى الجنوب الى حدود امارة حايل وهي شرقي تيما وشرقي الحناكية في خط يمتد فيدخل حرة كشب، الى شفا نجد فيترك للحجاز وادي الخرمة وتربة ووادي بيشة من ناحية الشرق، ثم ما يصاقب هذا الحد من مداين صالح فحدود اليمن من ساحل البحر، هي منطقة مقدسة لا تفتح لعمل ما ولا لقصد ما غير أعمال التعبد للمسلمين، من حج وعمرة وزيارة. فهي بلاد الهدوء والسكينة وطرح الأوزار والتفرغ لعبادة الله واداء الواجب، وقد بقيت هكذا في العصور الاسلامية بأجمعها.

وانني أقول إذا كان جلالة الملك ابن سعود قد احتلها ونزل بها، فليس لجلالته أن يخل بقدسيتها أو يغير طقوسها ويدخل الى ساحة قدسيتها عمالا يعملون لدنياهم، فيغيرون اخلاق سكانها ويصرفونهم عن وظيفة المجاورة للبلدين القدسيين، فتصبح مجالا لاعمال الدنيا التي تقلق راحة الذين يؤمونها من أقطار العالم لطرح الاوزار ونسيان الدنيا والخروج بالتوبة من الآثام.

اكتب هذا اليكم كمسلم وكأمير هاشمي، يقول هذا هو الحق الذي أرجو رفعه لرئيس الوزارة البريطانية الافخم، ليعلم ما يهم أهل الاسلام في محل عباداتهم وقبلتهم وقبر رسولهم؛ وبعلمه لما قلت لا شك أنه سيعمل على اجتناب ما فيه قلق العالم الاسلامي من ناحية رقيقة دقيقة.

أما جلالة ملك نجد فربما لم يبلغ علمه ما أعرف، حيث هو جديد فيما هو فيه؛ وأنه وان كان الأمين اليوم على الحرمين فليس له أن يتصرف فيهما وضمن حدودهما بما يخل بقدسيتهما المحضة القديمة.

راجياً وزن أفكاري بميزان بريء من كل قصد غير الحقيقة، وعرضه بأسرع الوسائل حسبما ذكرت.

إن الموضوع لمهم، وانه متى انتهت الحرب وعاد العالم الى السلام فرأى وسمع، فسيكون لهذه الأمور المخيفة الآن ضجتها المزعجة في العالم الاسلامي غداً، وبالخاصة في الهند. وان ما اكتبه لهو مبني على حسن النية والاخلاص للمسلمين وللدولة البريطانية ـــ التي لديها منهم العدد الوافر ـــ وللملك ابن سعود نفسه، وقد كتبت اليه عن الموضوع ما يجب.

وتقبلوا شعوري الودي عزيزي.
١٢ ربيع الثاني ١٣٦٣ الموافق ٥ نيسان ١٩٤٤

* * *

ونستون تشرشل
وبريطانيا العظمى والعرب

أود أن أتكلم عن هذا الرجل الذي قام في الحربين بما يدهش العالم، وبالسياسة التي سار عليها في وزارة لويد جورج في القضية العربية يوم أن كان وزيراً للمستعمرات.

ونستون تشرشل هو سعد بريطانيا وحظها ورجلها الفذ في العصر الأخير، فقد قيض له أن ينجو بالمملكة المتحدة وبالامبراطورية بما يشبه المعجزة.

لقد تحمل هذا الرجل عبء المسؤولية وهو يعلم ما عليه. لم يجهل تشرشل ما كانت عليه المانيا من استعداد عظيم مفاجئ، وما يكنه صدر كل الماني من حقد على بريطانيا في الدرجة الأولى قبل سواها؛ ويعلم ما كانت عليه المملكة المتحدة من عدم استعداد جرته عليها الوزارات والبرلمانية البريطانية السابقة، منذ سقوط وزارة لويد جورج حتى وزارة تشمبرلن وكانت الحرب الأخيرة في عهدها.

ولكم حذر قومه من المانيا، وكم خطب، وكم أنب؛ فشاء الله القدير أن يقع هو تحت عبء ما حذر قومه منه، وينجو ببريطانيا وبالعالم على الشكل المعلوم، وبعد المحن والمشاق التي مرت على

الانكليز في هذه الحرب الضروس. ولكن لولا الانكليز واخلاص كل انكليزي وانكليزية لوطنهم وسعيهم، ماذا كان يستطيع أن يعمله تشرشل؟!.. فانكلترا بلد كفء لتحمل كل ملمة وكل كارثة مفاجئة، وتشرشل أثبت انه الكفؤ لقيادة هذه الأمة الوادعة، القاسية، المترفة، الناعمة، الشجاعة.

فانكلترا وحدها، ورئيس وزرائها وحده، هما اللذان مثلا للعالم مثال الوطنية والصبر والجدال عن الحق، وبذل الأنفس والأموال لسلامة الوطن وعز القومية وصيانة الشرف؛ فحازت بريطانيا عن جدارة واستحقاق غار الظفر، وفاز تشرشل بالقيادة المشرفة لهذه الأمة.

ان في تراجع دنكرك مثال الشجاعة والصبر، وفي هجوم الاسطول البريطاني على وهران، وفي تدمير الاسطول الايطالي في معقله، وفي عمل ويفل وهزيمة غرازياني، وفي القضاء على الجيوش الايطالية في الحبشة والارتريا، وفي الاستعدادات في بريطانيا لتلقي الغزو الالماني، وفي شجاعة وتضحية سلاح الطيران الملكي في الدفاع عن بريطانيا، وفي الهجوم على الاعداء في كل محل، ما يثير الاعجاب والدهشة؛ مع أن هذه الاعمال المجيدة ليست في ميدان واحد، بل هي واقعة في ميادين مترامية متناثرة في بحار الله وأرضه، تلطم أعداءها حيث تراهم، وفي حيث تجدهم، بشجاعة وتمكين متزايدين.

تالله انها لمن المعجزات المحيرات، وان في وقوف بريطانيا تقاتل المحور البطاش وحدها قبل أن تدخل أميركا الحرب باعتداء اليابان عليها، وقبل أن يحارب هتلر روسيا، القول الفصل لمن يقول كلمة الحق عن انكلترا ورئيس وزارتها. وما ثنى عنان الغزو الالماني الى روسيا الا عنف الدفاع في بريطانيا، وظن الزعيم الالماني أن المخرج في روسيا؛ وما النصر الا من عند الله.

ومستر تشرشل هو الذي حضني على أن أسعى لاخي فيصل في أن يكون ملكا على العراق، فاحل في شرق الاردن واعمل بالحسنى لاستعداد وحدة سوريا؛ وهو الذي سعى كل السعي في أن يحل الوئام محل الخصام بين الوالد المرحوم وابن سعود. وانني في هذه الكلمة أطوي شعوري عن الزعيم وهذه الامة التي تتعامل مع العرب.

فيا أيها العرب! اعلموا ان في مصاحبة انكلترا وجوب الاستعداد وفي مخالفتها ما عجزت عنه الأمم الكبار، وحاذروا.. فان انكلترا لا تقيم لأحد وزناً ان لم يكن كفؤاً، وانكلترا لا تصاحب الكذوب ولا الجبان ولا النوام، وانكلترا لا تبني سياستها على العاطفة ولا على ما قدم لها من مساعدة في حلف ما او حرب ما، بل انكلترا امة المثابرة والدوام، تحترم القوي وتحب ان تضمه اليها، وتكره التخاذل وتبتعد عنه. فكونوا أقوياء حذرين أوفياء يقظين، تكن معكم بريطانيا وتوليكم اعتمادها.

وأخيراً تحياتي واعجابي واحسن تمنياتي لبريطانيا ومليكها ولزعيمها تشرشل.

محتويات الكتاب

استعراض الموقف الحاضر في البلاد والعربية